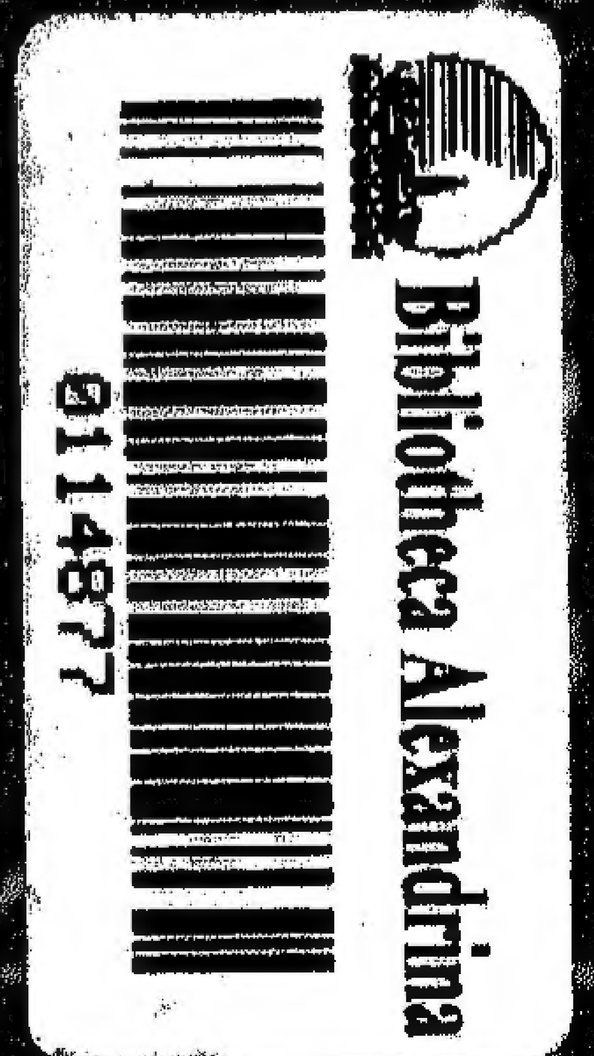
دراسات أندلسية

«١»

تاريخ النقد الأدبي في الأندلس

الدكتور محمد رضوان الداية

(مدرس الأدب الأندلسي بجامعة دمشق)



مؤسسة الرسالة

تاريخ النقد الادبي

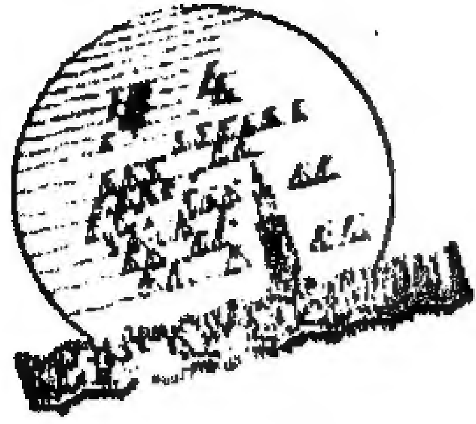
في الأندلس

الطبعة الثانية

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران



دراسات أندلسية
١

تاريخ النقد الأدبي في الأندلس

الدكتور محمد رضوان الداية
أستاذ الأدب الأندلسي المساعد بجامعة دمشق

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه دراسة عن (النقد الأدبي في الأندلس) قصدت فيها الى أن تكون بياناً عن ناحية من نواحي الحياة الأدبية والفكرية في الأندلس . وإننا لنرى ازدياد الإهتمام بالتراث الاندلسي عامة من جهة ، وتقدم البحوث في الدرسات الأدبية والفكرية الأندلسية من جهة ، مما يشجع على متابعة ذلك السير ، اهتداء بمن تقدم وأبدع ، واقتداء بمن اجتهد وأخلص .

وهو موضوع جديد على الدراسات الأندلسية ، فليس هناك كتاب جامع لما عُرف عند الأندلسيين من بحوث نقدية وملاحظات بلاغية ، ولا أحصِيَت كتبهم في ذلك ، وظل الظن بأن الأندلس صورة مشرقية شاحبة . ولا يعنيني في هذه المقدمة أن أثبت خطأ هذه الفرضية ولا أن أحتج لها ، فذلك بحث آخر له غير هذا المجال ، وإنما هي ملاحظة عابرة للدلالة على أن الأندلس كثيراً ما كانت تشملها الأحكام العامة – أصابت أم جانبها الصواب – وكثيراً ما افتقرت الى الشواهد والأدلة . ومن هنا كانت أهمية هذه الدراسة وطرافتها .

ومنذ أن لاح لي هذا الموضوع وأنا أعنّي نفسي بجمع مادته ، وتبين مداه ، والبحث عن أصوله ، والتهيؤ لذلك كله بالعَود الى التراث الأندلسي من شعر ونثر ، ومن كتب تراجم وكتب مختارات ، ومؤلفات ومشيخات ، لأكون في دائرة البحث ، وجوّه ، ولأتمكن – ما قدر لي ذلك – من ربط الموضوعات

بعضها ببعض ، والإفادة من كل ما يمكن من المواد .

وأول ما عانيت منه هو قلة ما بين أيدينا من الآثار النقدية الأندلسية ، وسأشير في فصل خاص الى بعض ما علمنا من أسماء تلك الكتب المفقودة ، والى أسماء أعلام عُرفوا بالبصر في تذوق الأدب ونقده، وسأتحدث أيضاً عن موضوع يتفرع من هذا : أكان نقص ما بأيدينا من تلك الآثار بسبب ضياعها — لأسباب مختلفة — فحسب ، أم أن عوامل أخرى أثرت في ذلك مثل قلة تلك الكتب أصلاً ، وعدم اهتمام الأندلسيين اهتماماً كافياً — يقابل ما في المشرق على الأقل — بدراسة الشعر والنثر ونقدهما ؟

كان من الصعب أن أعين فترة محددة أقصر اهتمامي عليها في دراسة النقد الأدبي في الأندلس ، لقلة المصادر أولاً ، ولأن أي دراسة كهذه ينبغي أن تقوم على تمهيد طويل يبين ما قبل تلك الفترة ، وهذا سيؤول الى ما صرنا اليه . وإذا عرضنا سريعاً لأنواع مصادر البحث ظهر معنى ما ذهبت اليه من جعل الدراسة عامة ، ومحاولة تبين معالم البحث ، واستخلاص نتائجه من كل العصور الأدبية الأندلسيه .

وافترضت منذ البداية أن كل التراث الأدبي الأندلسي يمكن أن يرفد الموضوع ، ويمكن أن يكون من المصادر والمآخذ ، مثل دواوين الشعر ، وكتب المختارات الأدبية ، وكتب التاريخ والطبقات ، والكتب المؤلفة في فنون خاصة من أنواع الأدب ، وكتب الادب العامة ، بالاضافة الى ما تحقق أنه أثر نقدي أو بلاغي ، وما نقلته المصادر المشرقية من الآثار الأندلسية . وكان في هذه الكتب المطبوع والمخطوط ، والمصور والمكبر ، والمصغر على أفلام . فكان لي من صحبة المخطوطات والأفلام نصيب ، وكان لي من مساعدة أساتذة كرام وأصدقاء خلص في تقديم مصورات وتسهيل اجتلاب أفلام نصيب أوفر .

والمقصود بهذه الدراسة هو استقراء تطور النقد الأدبي ، والوقوف عند النقاد الأندلسيين بالترجمة لهم وعرض آرائهم سواء أكان ذلك في آراء مبثوثة

كابن بسام في الذخيرة ، أو في مقامات نقدية كالسرقسطي ، أو في كتب وصلتنا وهي ثلاثة : إحكام صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي والوافي في نظم القوافي لأبي الطيب بن شريف الرُّندي ، ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني الأندلسي .

ويتقدم ذلك عَرْضٌ لأهم الشراح الأندلسيين وآثارهم ، باعتبار الشروح التي وضعوها تمثل وجهة نظر خاصة ، فهم على اختلاف عصورهم ومناحيهم يدلّلون على ذوق خاص ، وينتقدون أثناء شروحهم ، ويعقبون بالاستحسان أو الاستهجان ، ويبينون مواطن الجمال ، ويتعرضون لتطبيقات نقدية وبلاغية متفاوتة — كالحديث عن الأخذ والسرقة ، والتشبيه والاستعارة ، والاقتباس والإغارة ، وما شابه ذلك . وللشراح — وأكثرهم رواة للشعر في الوقت نفسه ، وشيوخ في حلقات — أهمية في توجيه الثقافة الأدبية ، وشيوع دواوين بأعيانها ، ورسوخ مقاييس محددة ، وذوق خاص . وقد خرّجوا كثيراً من الدارسين والباحثين ، والشعراء والكتاب ، كما أثاروا حركة نقدية لدينا من بقاياها ما يشهد بأهميتها . وينضاف الى الموضوع ملاحظات أخرى بلاغية تُتم الدراسة وتكملها .

وينتظم ذلك كله دراسة شاملة لأهم القضايا التي شغلت النقاد والشراح الأندلسيين تكون نتاجاً للبحث وخلاصة لما انتهينا اليه مما وقع من الآراء النقدية ، ومقابلة ذلك كله في مواضعه بروافده المشرقية ، على قدر ما تسمح بذلك دراسة قائمة على بقايا آثار ، وشتات آراء مبثوثة . ولا شك في أن مجرد العرض والاستقراء ، واستنباط الاحكام دراسة مستقلة ذات مغزى واضح ، وعمل متكامل ، كما أن عرض ذلك بالتفصيل على الآثار المشرقية بمقابلة جزئية دقيقة ، واستصدار أحكام مقارنة عمل متكامل آخر ؛ وسيكون بحثنا هنا هو الأول المخصوص بالعرض واستنباط الأحكام ، مقارناً ما أمكن بمصادره المشرقية . وستكون الحلقات المفقودة من سلسلة التراث الأندلسي عقبة تواجهنا دائماً ، وتجعل ما نصدر عنه من آراء وأحكام رهناً بالرجحان والتغليب ،

وعرضة للتغير والتبديل كلما ظهر جديد من الكتب الأندلسية ، وهذه حقيقة أدبية معروفة ، لا بد من حسبانها .

منهج البحث

وقد جعلت الدراسة في تمهيد وأربعة أبواب وخاتمة :

١ – جعلت التمهيد تهيئة عامة للبحث وهو في ثلاثة مطالب ، الأول : (سمات من الحياة الأندلسية) قدمت فيه ملاحظات أساسية ، في عرض سريع عن مظاهر الحياة الأندلسية التي اتصلت بموضوع الثقافة والأدب بسبب من الاسباب كأثر الطبيعة وموقف الحكام ، والأثر الديني ، ومنزلة الشعر والكتابة . والثاني: (الأندلسية) وعرضت فيه لموضوع تفرد الأندلسيين ببعض المظاهر وموقف أدبائهم من التبعية للمشرق . والثالث : (الثقافة في الأندلس) وبينت فيه انتقال الثقافة المشرقية الى الأندلس ، وتطور الثقافة هناك .

٢ – والباب الأول عن (الشراح الأندلسيين) وهو في أربعة مطالب:
١ – الشروح التعليمية العامة . ٢ – والشروح الذوقية الجمالية .
٣ والشروح الخاصة . ٤ – والشروح الأدبية الجامعة .

٣ – والباب الثاني : (أوليات النقد الأدبي) وهو في ثلاثة مطالب:
١ – اتجاهات النقد الادبي في المشرق . ٢ – صدى المذاهب الفنية المشرقية في الأندلس . ٣ – أوليات النقد الادبي : فصوله خمسة : ١ – اللغويون والنحويون والمؤدبون . ٢ – ابن عبد ربه وكتابه (العقد) . ٣ – ابن حبيب الحميري وكتابه « البديع في وصف الربيع » . ٤ – أبو عامر بن شهيد . ٥ – أبو محمد بن حزم .

٤ – والباب الثالث : (مقالات وآراء نقدية) وهو في سبعة مطالب :
– دراسة مقدمة «تسهيل السبيل الى تعلم الترسيل» للحُمَيدي تلميذ ابن حزم
٢ – رسالتان نقديتان . ٣ – الانتصار لابن السيد في الرد على أبي بكر بن العربي – ٤ – المقامتان النقديتان من المقامات اللزومية للسرقسطي

٥ – مقدمة ديوان ابن خفاجة . ٦ – الذخيرة لابن بسام .
٧ – عنوان المرقصات والمطربات لابن سعيد .

٥ – والباب الرابع : (كتب أندلسية في النقد الادبي) وهو في ثلاثة مطالب :
١ – إحكام صنعة الكلام للكلاعي – ٢ – الوافي في نظم القوافي للرنـدي
٣ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني الأندلسي .

٦ – والخاتمة أشرت فيها الى النقد الأدبي في عصر غرناطة إشارة عامة ، ولخصت فيها ما نتج لدينا من خلاصة البحث .

وبعد

فهذا عمـــل اجتهدت مخلصاً في أن يكون على غاية ما يُطلب من العناية والتدقيق ، أرجو أن أكون قد وفقت الى ما صبوت اليه من عرض الموضوع ودراسة جـوانبه واستخلاص نتائجه ، وأن يـــكون فيه ما يرفد الدراسات الأندلسية بشيء جديد . وما أشك في أن اعادة النظر فيه كلما ظهر جـديـد في التراث الأندلسي ستغنيه وتملأ ثغراته .

وأختتم مقدمة البحث بشكر أستاذي الدكتور : عبد العزيز الأهواني الذي كان لي نعم العون في التوجيه والرعاية ، ونبهني الى كثير من الملاحظات القيمة ، وأتاح لي من علمـه ووقته ومكتبته ما أرجـو أن يكون وفـاءه حسن التلمذة وجزيل العرفان .

والحمـــد لله رب العـالمين .

محمد رضوان الداية

تمهيد

في الحياة والبيئة والثقافة في الأندلس

سمات من الحياة الأندلسية

الأندلسية

الثقافة في الأندلس

سمات من الحياة الأندلسية

هذه ملاحظات أضعها بين يدي الدراسة تتناول بعض سمات الحياة الاندلسية ، والمقصود منها هو أن تكون مدخلا نرتكز عليه في فصول لاحقة ؛ ذلك أن عوامل كثيرة مختلفة الموارد ومتعددة الجوانب أثرت في تكوين الحياة العامة وفي تشكيل مظاهر الحياة الأدبية والفكرية بشكل خاص . فرأيت أن أمر بها في مطلع الحديث مروراً عابراً يُكتفى فيه بالقدر الذي يمهّد ويقدم ، ويلقي في الوقت نفسه بعض الاضواء .

١ – أثر الطبيعة :

اشتهرت الأندلس – منذ افتتاحها في آخر القرن الهجري الأول – لدى الفاتحين الأُول ومن تلاهم بحسن الطبيعة وجمالها ، واعتدال الجو ووفرة الخيرات وأطنب الجغرافيّون والمؤرخون المسلمون في وصف هذه الخصائص وتفصيلها؛ اشترك في ذلك الأندلسيون وسواهم ممن كتب عن حال الأندلس . وهم يَجمعون فيها معظم خصائص بلدان الاسلام الأخرى ومميزاتها ، فهي عندهم جامعة وافية ، ونقل المقري عن أبي عبيد البكري وصفه فقال: « الأندلس شاميه في طيبها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وزكائها ، أهوازيّة في عظم جباياتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها [1] .

وشعرت الطوالع العربية الى الأندلس الفَوج بعد الفوج أنهم قادمون على أرض طيبة وبيئة مناسبة كثيرة الخير بعيدة الاركان . وذكر الرازي أنه لمـّا

---

(١) نفح الطيب للمقري (طبعة محي الدين عبد الحميد) ١ :١٢٥

أزعج موسى بن نصير – بعد فتح الأندلس بقليل – فقفل معه مَن أحب من المشرق » وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها ، فأقاموا فيها [١] .

وبالاضافة الى غنى الأندلس الطبيعي فإن العرب سرعان ما تأقلموا وشاركوا في معالجة أمور الزراعة والصناعة وشادوا حضارة عربية جديدة على أرض جديدة ، وانتشر العمران في أنحاء الأندلس واتصلت المدن بالمدن والقرى بالقرى في إتقان عمل وبهاء منظر ؛ وهذا يستمر الى زمن ابن سعيد الذي يصف بلاده : « وميزان وصف الاندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخِصب والعمارة من كل جهة. فمتى سافرت من مدينة الى مدينة لاتكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة » . وبعد هذا الحديث عن خصب الارض وجمالها يأتي الحديث عن أهل البلاد وعاداتهم ومظاهر تمدنهم « ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنّع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها [٢] » .

ومن هنا كان تعلق الاندلسيين ببلادهم وحنينهم اليها إذا سافروا عنها تعلّقاً حقيقياً ، لأنهم يجمعون الى ما يكون من حب الوطن بعامة شَغفاً شديداً وامتزاجاً بالبيئة وراحة اليها . وينعكس ذلك بوضوح في آثار الاندلسيين اذا كتبوا بعد اغتراب او عند مُحاجّة وحِجاج . فابن سعيد يذكر الاندلس – بلاده – في كتبه كثيراً ، يهتبل الفرص ليوازن بينها وبين كثير من البلاد في المشرق والمغرب ، ولتكون الاندلس دائماً الاغنى والاوفى والاجمل والاحسن . والشَّقُندي يفخر بالاندلس ويفضلها على المغرب في حديث طويل سنأتي على ذكره في فقرة تالية[٣]، ولسان الدين بن الخطيب يقيم مفاخرة بين مالقة وسَلا[٤]

---

(١) نفح الطيب ١ : ٢٦٢ .
(٢) نفح الطيب : ١/ ١٩٠
(٣) نفح الطيب المقري ٤ : ١٧٧ .
(٤) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (مجموعة من رسائله) تحقيق : الدكتور أحمد مختار العبادي – مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ صفحة ٨٧ .

ليكون لمالقة القِدْحُ المُعَلّى . ونقع على مادة أكثر طرافة ، وهي تصنيف الاندلسيين في المفاضلة بين المدن الاندلسية وتعيين صفات كل واحدة بأسلوب شعري رقيق يكشف عما في نفوسهم من الأنس بتلك البلاد ، والشغف بمعطيات الحياة فيها . فمن ذلك رسالة أبي بحر صفوان بن إدريس[1] صاحب كتاب زاد المسافر ، التي رفعها الى الامير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، صور فيها منافسة متخَيلة بين مدن الاندلس للظفر بالامير ودعوته ، وخرج منها الى بسط مآثر كل مدينة وما تَفضل به سواها . ومن ذلك ما أورده لسان الدين بن الخطيب عن بعض مدن الاندلس في مقاماته : (معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار) من وصفٍ لها وذكر لخصائصها ومآثرها .

متنزهات وأشعار

وكان من انفعال الاندلسيين بالطبيعة أنهم دأبوا على الخروج الى مُتَنَزَّهاتها والاستمتاع بمهرجاناتٍ واحتفالات كانوا يعقدونها . وفي الكتب والدواوين اخبار لا تحصى عن هذا المَوضوع : فإذا ما أقبل الربيع وَجَّه بعضهم الى بعض بطاقات دعوة ـ ومن الطرافة أن بعضها شعري ـ وخرجوا الى المتنزهات والجنائن والمياه ، وبها تهادوا الازهار والاوراد والنواوير ، وارتجلوا فيها الشعر وعقدوا الموازنات والمقارنات . وفي كتاب البديع في وصف الربيع للحميري[2] قصص وأخبار وأشعار أندلسية ومعاصرة للمؤلف تصلح أمثلة لما نقول . وهو يقدم لتأليفه بقوله[3]: « لست أودعه إلا ما أذكر لأهل الاندلس خاصة في هذا المعنى إذ اوصافهم لم تتكرر على الأسماع ولا كَثُر امتزاجها

---

(١) نفح الطيب : ١/ ١٦٠ ، ونقلها محقق كتاب زاد المسافر . انظر : ١٢٣/ ١٢٨ .

(٢) البديع في وصف الربيع لأبي الوليد اسماعيل بن عامر الحميري تحقيق هنري بيريس ـ طبع الرباط ١٣٥٩ ١٩٤٠ .

(٣) صفحة : ٢ .

بالطباع فتردها شيّقة وترودها تيّقة » وقال في خبر له : « وأخبرني الفقيه أبو الحسن بن علي قـال : كان في داري بقرطبة حائر (بستان) صُنع فيه مرج بديع وظُلّل بالياسمين فنزّهتُ اليه أبا حفص التُّدميري في زمن الربيع فقال : ينبغي أن تسمي هـذا المرج السُّندسة ، وصنع عـلى البديهة أبيـاتاً [1] .

وشارك النثر الشعر في وصف الرياض[2] ومفاضلة بعض الأزهار على بعض[3] .

وأنشد الحميري لأبي القاسم البلمي :

انظُر ونَزّه ناظريك بروضةٍ غَنّاء ما زالت تُراح وتُمطَر
لتُريك من صنعاء صنعة وَشيها بمطارفٍ من تَستَرٍ لا تستُر
ألوانُها تُشتَهى وطيبُ نسيمها يُقضى العبير به ويُنسى العَنبر

ومن الأبيـات السائرة في الانـدلس ، وأعجب أهلها بها ، قول ابن سفر المريني[4] :

في أرض أنـدلسٍ تلتَذُّ نَعماء ولا يفـارق فيها القلبَ سرّاءُ
وليس في غيرها بالعَيش منتفَعٌ ولا تقوم بحقّ الأُنس صَهباءُ
فيها خلعتُ عِذاري مابها عِوَضٌ فهي الرّياضُ وكل الارض صَحراءُ

وهذه الأبيات مجتزأة ، وإنما هي تدل على نَفَس الشاعر ومدى اعجـابه ببلاد جميلة تقوم له بحق الأنس ، وتفي له بأسباب البهجة والسرور ، وتمتّـع ناظره بما راق وحلا ، من ماء رقّ وعَذُب وهواء طاب ، وشجرٍ أثمر ، ونَوْر أزهر ، ولاعتب عليه اذا وصفها بأنها الرياض ، وكل الارض صحراء .

---

(١) البديع في وصف الربيع ١٩ .

(٢) انظر صفحة ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، الخ . وفي صفحة ١٧ - ٧٩ رسـالة لعبد الملك بن ادريس الجزيري موصولة بشعر ، عن بنفسج العامرية ، رفعها الى المنصور ابن أبي عامر .

(٣) من ذلك ولعهم بالمفاضلة بين البهار والورد والانتصار لأحدهما ، ولهم في ذلك ردود على ابن الرومي الذي تحامل على الورد . انظر ص : ٧٦ - ٧٧ .

(٤) نفح الطيب ١ : ١٩٤ - ١٩٥ .

والشعر في هذا كثير ، ودواوينهم زاخرة بمثل هذا الإعجاب وهذه النفثات ، « والحق أن شعراء الأندلس كانوا في الطبيعة وشعرها يحسون ويهيمون ، ثم يعبرون عن حسهم وهيامهم . . وكثيراً ما خرج الشعراء جماعات وأفراداً يمتّعون النفس بجمال الطبيعة ثم يعبرون عما في أنفسهم [1]» . ونقف بعد على ملاحظة هامة ذكرها الحجاري عن أهل الأندلس ، قال « وهم أشعر الناس فيما كثّره الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور والكؤوس ، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن ، وابن خفاجة سابقهم في هذا المضمار ، الحائز فيه قصب الرهان ؛ وأما إذا هبّ نسيم ودار كأس في كف ظبي رخيم ورجع بمّ وزير وصفّق للماء خرير . . أو أزهرت دوحة السماء بزُهر كواكبها أو قوّضت عند فيض نهر الصباح ببيض مضاربها فأولئك هم السابقون السابقون . . وقد أعانتهم على الشّعر أنسابُهم العربية ، وبقاعهم النضرة وهممهم الأبية [2]» . وفي هذا النص الموجز نقف على ملاحظتين هامتين في تفسير شاعرية أهل الأندلس وبيان أصالتها ؛ فهو يعلل ذلك بأنسابهم العربية ، وما يكون لمحافظتهم على ذلك من أثر في الثقافة والشاعرية ، ويعلله ثانياً بأثر الطبيعة . وقد جعلوا بلادهم مثالاً للجنّة وفي ذلك يقول ابن خفاجة [3] بعد أن ذكر الأندلس في غربته بالمغرب الأقصى :

إن للجنّةِ بالأندلسِ   مُجتلى مرأى وريّا نفَسِ
فسَنا صُبحتها من شَنَبٍ   ودُجى ظُلمتها من لعَسِ
فإذا ما هبّت الريح صَبا
صحت : واشوقي إلى الأندلسِ !

---

١) شعر الطبيعة في الأدب العربي – الدكتور سيد نوفل – مطبعة مصر : ١٩٤٥ صفحة ٢٦١ .
٢) نفح الطيب ٤ : ١٥٠ – ١٥١ .
٣) نفح الطيب ١ : ١٩٥ .

تآليفهم في ذلك :

وقد ألف الأندلسيون كتباً في الربيع أو الشعر المتعلق به ، ووصف الطبيعة من شجر وزهر وحيوان ونبات وماء ، وما يتصل بذلك من إحساسات وانفعالات ، وصف الرحلات والنزهات ومجالس الأنس . فصاحب رايات المبرزين ينقل عن كتاب (زمان الربيع) للخشني ؛ وفي بغية الملتمس في ترجمة يوسف بن هارون الرمادي أنه : عمل في السجن كتاباً سماه « كتاب الطير » في أجزاء وكلّه من شعره ؛ وصف فيه كل طير معروف وذكر خواصه ، وذيّل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام بن الحكم [1] . ولأحمد بن فرج الجياني كتاب (الحدائق) في القطع الغزلية وهو مفقود عدا نقول قليلة منه في الكتب [2]. ولأبي الوليد الحميري كتاب « البديع في وصف الربيع » الذي سبق ذكره . ولأبي حفص أحمد بن برد رسالة وصف فيها خمسة من أنواع النواوير ، وغرضه تفضيل الورد[3]. ولأبي الوليد أيضاً رسالة في الرد على رسالة ابن برد هذه وصف فيها سبعة أنوار وغرضه تفضيل البهار [4] . ولأبي جعفر بن الأبار رسالة في عدة من الأنوار[5] . ولأبي عامر محمد بن عبد الله بن مسلمة « كتاب الارتياح بوصف الراح » : ذكر ما قيل فيها وفي الرياض والبساتين والنواوير واحتفل في ذلك [6] . وغاية القول أن الأندلسيين أحسوا بجمال بلادهم ، ورأتهم الطبيعة خير أكلها وأحسن زينتها ، فكان لذلك أثره في نفوسهم ، وكان لتأثرهم بهذه

---

١) رايات المبرزين وغايات المميزين . تحقيق إميليو غارثيا غومز – مدريد : ١٩٤٢ صفحة : ١١٠ .
٢) بغية الملتمس : ٤٨١ .
٣) جذوة المقتبس : ٩٧ .
٤) البديع في وصف الربيع : ١٣ .
٥) المصدر نفسه : ٥٨ .
٦) المصدر نفسه : ٦٧ .
٧) جذوة المقتبس : ٦١ .

الخيرات وذلك الجمال نتائجه في خلاصة فكرهم من شعر ونثر وتأليف .

٢ – الأندلس ثغر إسلامي :

إن نظرة سريعة على التاريخ الأندلسي تبيّن بوضوح وجلاء أن الأندلسيين كانوا في صراع دائم مع العدو الذي تراجع بسرعة غريبة حتى أخلى شبه جزيرة إيبريا تقريباً إلا مواضع قليلة في الشمال معظمها جبلي. وكانت فترات السلم قليلة، وعاش الناس على مدى ثمانية قرون وهم يوطّنون أنفسهم على أنهم أهل حرب، وفي ثغر يتطلب الجهاد المستمر والاستعداد الدائم (١) . وإذا كان الرخاء الداخلي واستتباب الأمن سبيل رضا الناس في الداخل فإنهم كانوا يتطلعون دائماً إلى أميرهم ليكون بالدرجة الأولى قائد معركة وبطل انتصار . وعرف الحكام هذا ، فكانوا يُكثرون من الغزوات ويتقربون إلى العامة والخاصة برفع راية الجهاد . وكثيراً ما كانت الاعتبارات على اختلافها تتداعى أمام هذا الاعتبار الأكبر . وبهذه الحماسة وهذا الشعور رجّح المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية في نهاية الأمر أن يكون « راعي جمال » على أن يكون راعي خنازير ، وبَوْن بين الحالين . وفي ذلك يقول الحميدي عن الأندلس « وهي ثغر من ثغور المسلمين لمجاورتهم الروم واتصال بلادهم ببلادهم (٢) » . ويشهد المقري بعد استغلاب الأندلس بزمان « أنه لو لم يكن للاندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد لكان كافياً (٣) » .

---

١) لعل هذا يفسر ما روي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان نوى إخلاء الأندلس من المسلمين خشية عليهم من العدو لانقطاعهم من وراء البحر ، ولكن الأندلسيين تولوا اقناعه .

انظر فجر الأندلس للدكتور : حسين مؤنس – الشركة العربية للطباعة والنشر : ١٩٥٩ . صفحة : ١٣٦ ومراجعه في ذلك .

٢) جذوة المقتبس : ٧ .

٣) نفح الطيب : ١ : ١٧٤ .

وكان لهذا الأمر بالاضافة إلى الاندلسيين اعتبار كبير وأثر واضح ، وإن بلداً بهذه الحال من مواجهة العدو ، والإقامة الدائمة في ظل الرماح والسيوف ، وتحت احتمال الحروب المستمرة لا بد وان يتأثر وتتصف كثير من مظاهره على وجه من الوجوه بما يلائم ذلك الاعتبار .

من ذلك أن كافة الأندلسيين صاروا – بحكم ما هم فيه – من أهل الثغور أو بمنزلتهم ، فساعد ذلك على بروز الناحية الدينية في الاندلس وظهورها ، ومهّد للفقهاء – كما سنبين بعد – منزلة لا تفوقها الا رتبة الوزراء . ومن طريف تطبيقات هذا الرأي أن خصوم لسان الدين بن الخطيب عدّوا عليه خروجه عن الأندلس – الى المغرب – واعتبروه آثماً ، لأنه غادر دار الجهاد وانقلب على عقبيه .

وإذا كان الأندلسيون قد تصدوا للقتال جهد استطاعتهم فإن عدوهم كان يقتضي منهم أن يزيدوا عدداً وعدة ، واتضح هذا بعد سقوط دولة بني أمية وزوال العامريين ، ونشوء ملوك الطوائف . وبالرغم من كل المضاعفات التي استتبعت ضعف المرابطين ، وضعف الموحدين في حينه – بعد أن كانوا دخلوا الأندلس لإنقاذها – فإن المبدأ الذي دخلوا به إلى الأندلس صحيح ، ولو استمر المرابطون أو الموحدون كما بدأوا لكان للتاريخ في تلك البقعة وجه آخر .

ويصف كاتب اندلسي حال بلاده في أواخر القرن الثامن فيقول إنها «أسمى ثغر نالت به الهمم العالية مراتب وأقداراً ، وأكرم تربة رفع الإيمان بها علماً ومناراً ، وحل الدين الحنيفي منبراً ووسم ديناراً ، فعزت جانباً وكرُمت أنصاراً .. وأمر جزيرة الأندلس على سائر الاقطار مُنيف ، لأنها في بحر زخّار وعدو جرّار ، ملازمين أهلها في الليل والنهار . والروم بها أمم كثيرة مختلفة

لا يعلم عددها إلا الله تعالى ..[1] »

ولا بد أن ينعكس هذا في تراث أهل الأندلس وأدبهم فيظهر في امتداح الشجاعة والشجاع والدعوة الى إجابة الصريخ ، وحماية الديار والذمار . ونجد الى جانب ذلك أثراً آخر إذ صارت حياة كثير من الأدباء حياة قلقة مثل غيرهم فهم بين أمن وفزع ، ونصر وهزيمة ؛ وقد يُضاف الى ذلك اضطراب حبل السلطان الداخلي، فيكون القلق أوضح وأظهر . وقد أشار الى هذا ـ بأسلوبه ـ ابن بسام صاحب الذخيرة ، وقد اختار في كتابه أنماطاً من محاسن أدب معاصريه ، ووصف شعرهم ونثرهم ، وأثنى عليهم وأطرى ، قال « أودعت هذا الديوان الذي سميته بكتاب الذخيرة في محاسن هذه الجزيرة من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم ما هو أحلى من مناجاة الأحبة .. لأن أهل هذه الجزيرة ـ منذ كانوا ـ رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة .. على كونهم بهذا الإقليم ومصاقبتهم لطوائف الروم ، وعلى أن بلادهم آخر الفتوح الإسلامية وأقصى خطى المآثر العربية ، وليس وراءهم وأمامهم إلا البحر المحيط والروم والقوط ، فحصاة مَنْ هذه حاله ثبير ، وثمَده بحر مسجور[2] .. »

٣ ـ الأثر الديني :

كان للأندلس وضع خاص من جوانب كثيرة . ومن هذه الجوانب ما يلاحظه الدارس من أثر الأمور الدينية في الحياة الأندلسية على أشكال مختلفة .

---

١) تحفة الانفس وشعار أهل الأندلس لابن هذيل الغرناطي ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية (تيمور باشا) رقم : ٩٩ الورقة ١٤ / ظ . والكتاب قسيم كتاب آخر عنوانه (حلية الفرسان وشعار الشجعان) نشره الاستاذ محمد عبد الغني حسن في دار المعارف بمصر عن نسخة مصورة اخرى ، والكتابان مجلد واحد في جزأين .

٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني ـ القسم الأول ـ المجلد الأول صفحة ٤ ـ ٥ .

فمن الطبيعي أن يكون التدين ، والعناية بشعائر الدين وأصوله وأهله عامة ، واضحاً في بلد شغل بالحروب – كالأندلس – واتقدت فيه على وجه من الوجوه روح الجهاد والمرابطة والمحاججة . ولقد كان لجوار المسلمين مع النصارى ومعايشتهم أثر بالغ في توقد هذا الشعور ،وفي نماء الكتابة في ذلك والتأليف.

بدأت الأندلس على مذهب الإمام الأوزاعي فقيه أهل الشام(١) ، واستمر ذلك الى أن دخلت الأندلس في حكم الدولة المروانية ، وظهر فيها فقيه ذائع الصيت كان مكيناً لدى السلطان هو يحيى بن يحيى الليثي(٢) . وينقل المقري عن ابن حزم رأيه في هذا ؛ فهو يشبّه انتشار المذهب المالكي في الأندلس على يد يحيى كانتشار المذهب الحنفي في المشرق وأنهما ذاعا بمعونة الحاكم قال : « مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبي حنيفة ... ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء . وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومَن كان على مذهبه ، والناس سِراعٌ الى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون أغراضهم به (٣) » . ويضيف ابن خلدون – على منهجه – سبباً آخر لذيوع المذهب المالكي ويعلله بأن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس وأنهم لم يكونوا يمانون الحضارة التي لأهل العراق،فكانوا الى اهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة(٤) .

---

١) قال ابن الفرضي في ترجمة زهير بن مالك البلوي : كان فقيهاً على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس – قبل دخول بني أمية رحمهم الله (تاريخ علماء الأندلس – نشرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦) انظر ص ١٥٣ .

٢) انظر ترجمته في نفح الطيب ٢ : ٢١٧ .

٣) نفح الطيب ٢ : ٢١٨ .

٤) انظر مقدمة ابن خلدون عن أثر عبدالله بن حبيب – المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٢٠ هـ صفحة ٤٢٥ .

الفقهاء والقضاة :

وانتقلت أهمية الدين أيضاً الى الفقهاء لما كان لهم من المنزلة والمكانة بين ذوي الشأن . وفي كتاب قضاة قرطبة لمحمد بن الحارث الخشني[1] أمثلة رائعة لتبوىء القاضي منزلته الرفيعة التي تخوله أن يقتص من السلطان ويرد رغبته ويبطل حكمه [2] ، متذرعاً بأحكام الشريعة . ومن هنا تكبر شخصيته في أعين العامة ، وتتضح أهميته . ولعب الفقهاء ، وجلهم على المذهب المالكي ، دوراً هاماً في تثبيت مذهب مالك الى آخر نهاية المسلمين في الأندلس من جهة ، وفي إثارتها حرباً شعواء على أنصار المذاهب الأخرى – على قلتهم – من جهة أخرى ، كما كان لهم أثر لا يقل أهمية عما سلف في مضايقة الدراسات الفلسفية ، وربما العلمية المتصلة بالمنطق والفلسفة بأدنى سبب . وينقل المقري عن فقهاء الأندلس أن « خواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم . وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه .. وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي (فقيه) لأنها عندهم أرفع السمات [3] » . وكان لهم دورهم أيضاً في فتنة الربض التي أقامت الدنيا على الحكم بن هشام سنه ٢٠٢ وكادت تودي بملك الحكم لولا ان تداركها[4] .

« وانتشر الفقهاء ببلاد الأندلس على مذهب مالك ، وكان بإلبيرة سبعة سمعوا كلهم من سُحنون في زمان واحد ، وأصبح الفقهاء يدورون حول المدَوّنة

---

١) انظر ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي . تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي – مصر – ١٣٧٢ . ص ٤٩ – ٥٠ .

٢) قضاة قرطبة للخشني : ٢٩ – ٣٠ .

٣) نفح الطيب ١ : ٢٠٦ .

٤) المغرب في حلى المغرب : ابن سعيد – تحقيق الدكتور : شوقي ضيف . (دار المعارف بمصر : ١٩٥٣) ١ : ٤٢ – ٤٣ .

وكتاب آخر ألفه العتبي الأندلسي ويسمى العُتبية أو المستَخرجة ، وضاقت الدائرة فأصبحوا يكرهون الحديث ، مع ان الحديث أصل مذهب أستاذهم إلا انهم شغلوا بالتفريعات والرأي .. واخذ بعضهم يتنقصون أهل الحديث [1] » .
ومن الأمثلة على ذلك ما حَلّ ببَقِيّ بن مَخلد إذ أدخل كتباً في الحديث من المشرق فيها مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، وقرىء عليه ، « فأنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستشنعوه وبسطوا العامة عليه ومنعوه من قراءته [2] » ولولا أن أمير الأندلس في وقته محمد بن عبد الرحمن الأوسط كان « محباً للعلوم ، مؤثراً لأهل الحديث [3] » لما سلم بقي بن مخلد من العامة ولا من السلطان .

وأبو محمد بن حزم مثال كامل لعالم فقيه أندلسي خرج على رأي الجماعة عندهم واستقل برأيه ، فكانت بينه وبينهم خصومة لم تنقطع . وقد جمع ابن حزم فنوناً شتى وأتقنها وجاهر بما عنده ، وبرع بالحديث والفقه والجدل والنسب والأدب ، وشارك في المنطق والفلسفة . ونقل ابن بسّام أنه مال أول الامر إلى رأي الشافعي « فاستهدف لكثير من الفقهاء وعِيب بالشذوذ، ثم عدل في الآخر إلى قول أصحاب الظاهر .. فنقحه ونهجه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه .. حتى استهدف إلى علماء وقته فتمالؤوا على بغضه وردّوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنّعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم من الدنو اليه [4] .. وسنفصل في شيء من هذا عند ترجمته ، ولكن وجه الحديث هنا أن خصومة الفقهاء لابن حزم فاقت حد الجدل العلمي والمناظرة العقلية إلى استعداء

---

١) تاريخ الأدب الأندلسي — عصر سيادة قرطبة — الدكتور احسان عباس . دار الثقافة ؛ بيروت — صفحة ٢٤ .
٢) جذوة المقتبس : ١١ .
٣) المصدر السابق : ١١ .
٤) الذخيرة — القسم الأول — المجلد الأول . ص : ١٤٠ — ١٤١ .

السلطان ، والتعريض بما لمخالفة ابن حزم من عواقب ، ونالوا من ابن حزم كما أرادوا .

ووقف الأندلسيون من علوم الأوائل موقفاً معادياً إلا ما كان مباحاً كالطب ؛ وما استمر من البحوث المنطقية والفلسفية ، وما يتصل بالكواكب والنجوم ظل نشاطاً فردياً ولم يحظ بقبول العامة ولا سكت عنه السلطان إلا في القليل النادر . وسنحت فرصة نادرة من رعاية السلطان لهذه العلوم ، ولكنها كما نصفها نادرة ، ولم تعمر طويلاً ، فبالرغم من المكتبة التي أنشأها الحكم وتسامع بها الناس في الشرق والغرب الا أن مصير علوم الأوائل منها وما نحا ذلك المنحى كان الاحراق على يد منصور بني عامر تقرباً للفقهاء والعامة « وفعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس .. اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم مذمومة بألسن رؤسائهم[1] .. ». وكان يطلق لقب زنديق على كل من تسامع الناس باشتغاله بالتنجيم أو قراءته الفلسفة ، وربما تجاوز الأمر هذا الى ما هو أسوأ منه « فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر باحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت[2] .. »

٤ — الغناء في الاندلس :

لما استقر الحال بالأندلس تحت ظل الدولة المروانية الجديدة التفت مَن بها إلى أسباب الحضارة ، ونشأ في قرطبة مركز جديد كبر مع الزمن فصارت عاصمة أخرى من عواصم العلم والأدب ومختلف الفنون والصناعات . ومن الطبيعي أن يبدأ كل شيء في البلد المفتوح النائي مستعيناً بحضارة المشرق ، وأن تستمر قيمه

١) طبقات الأمم لصاعد بن أحمد الأندلسي — مطبعة السعادة بمصر — صفحة : ١٠٢ — ١٠٣ . وانظر النفح : ١ : ٢٠٥ .

٢) نفح الطيب ١ : ٢٠٥ ، وانظر مقالة ابن سعيد في ذلك . النفح ٤ : ١٦٧ .

الفكرية والأدبية زمانا على غرار ما يصل الى أهله من تراث (مستورد) .

المُغنُّون والمغنيات :

ومنذ عهد عبد الرحمن الداخل نقع على أسماء مغنيات مشرقيات قدمن الى الأندلس وبُذل في شرائهن واستقدامهن مال وفير . وقد أورد صاحب نفح الطيب في ذكر الوافدين على الأندلس من المشرق أسماء كثيرة لمغنيات دخلن الأندلس ؛ استقدم عبد الرحمن الداخل الجارية « العجفاء » المغنية وابتيعت له من أحد موالي بني زُهرة بالمدينة وكانت موصوفة بجمال الصوت وحسن الأداء . ويظهر أنه كان يجدّ في طلب المغنيات المشهورات من المشرق وخصوصاً المدينة لما اشتهر من إجادة جواريها بالغناء . فقد اشترى « فضل »[1] المغنية وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال[2] و « علم » و « قلم » وهي رومية الأصل ، الى صواحب لهن أيضاً[3] .

ودخل المغنون بعد المغنيات ، وأول من دخل الأندلس عَلّون وزرقون ، « دخلا في أيام الحكم بن هشام فنفقا عنده وكانا محسنين .. » ومن أشهر المغنين الذين دخلوا الأندلس ، زرياب تلميذ إسحق الموصلي[4] ، وقد ترك آثاراً في الغناء والادب والآداب الاجتماعية ما لا يستطيع رجل واحد تثبيته في بلد طويل عريض . كان زرياب في بغداد في خدمة الرشيد مع أستاذه اسحق ، وظهر من زرياب ما أثار حفيظة أستاذه وخشي معه مزاحمته في مركزه ، ورأى زرياب ذلك منه ، فأرسل الى صاحب الاندلس (الحكم بن هشام) في الورود عليه فرحب به وأرسل مغنياً يهودياً في طلبه . ودخل زرياب الاندلس ، وعلم بموت الحكم قبل الانتهاء الى قرطبة فاستبقاه المغني رسول الحكم لأن ولي العهد

---

١) نفح الطيب ٤ : ١٣٨ .
٢) المصدر نفسه ٤ : ١٣٦ .
٣) المصدر السابق ٤ : ١١٦ .
٤) النفح ٤ : ١١٧ .

لن يقصر عن سلفـــه في الاعجاب به . ونال زرياب من الحظوة في الاندلس ما تسامع به المشارقة ، وحـُكي أمام المأمون (١) .

وشاع الغناء ، وانتشرت مجالس الطرب في قرطبة، وفي كثير من الأمصار الاندلسية ، وفي جذوة المقتبس (٢) وطبقات الزبيدي (٣) والذخيرة وغيرها من كتب الادب الاندلسية أخبار طويلة عن مجالس الأنس والطرب ، وما يدور فيها من شعر ونشيد وغناء . ومن طريف ما ذكر عن شيوع الغناء في مدينةٍ فوق الحد المألوف ما جرى من المناظرة بين يدي « ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول غير أنه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيـع كتبه حُملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (٤) . وفي الذخيرة أن أحد الطـُنبوريين واسمه (زربوط) أُصيب في وقعة (قنتيش) فأقام عليه الطنبوريون مأتماً مشهوراً بعد الحادثة (٥) . والخبران طريفان ، وفيهما دلالة على كثرة المغنين ونفاق سوقهم . وقد استمر الحال بالغناء والمغنين طوال مدة العرب بالانداس . ولدينـــا خبر أورده لسان الدين بن الخطيب في القرن الثامن عن أهل غرناطة يدل على انتشار الغناء ، وشيوعه بين فئات الناس المختلفـة قال « والغناء بمدينتهم فاشٍ حتى بالدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث (٦) .

---

١) نفح الطيب ٤ : ١٢٨ - ١٢٩ .

٢) جذوة المقتبس ١٥٨ ، ١٨٠ ، ٣٢٤ .

٣) طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم - ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م . نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة . انظر ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

٤) نفح الطيب ١ : ١٤٧ .

٥) الذخيرة - القسم الأول - المجلد الاول : ٣١ .

٦) اللمحة البدرية في الدولة النصرية : لسان الدين بن الخطيب . تحقيق محب الدين الخطيب المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٧ : صفحة : ٢٨ .

موقفهم من الغناء :

تقبّل الاندلسيون الغناء قبولاً حسناً ، وقد تقدم من الاخبار ما يقوم دليلا على ذلك ، وأقبل على سماعه وحضور مجالسه العامة والخاصة وأتقنه أحياناً بعض كرام الناس مثل الأمراء ، فقد ذكر ابن حزم أن المطرف بن الامير محمد كان عالماً بالغناء وكان له أخوان عارفين بالغناء جداً [٥] . ولابن عبد ربه حكاية نقلها الحميدي « فقد وقف تحت رَوشن لبعض الرؤساء وقد سمع غناء حسناً فرُش ّبماء ولم يعرف من هو فمال إلى مسجد قريب من المكان واستدعى بعض ألواح الصبيان فكتب :

يا مَن يَضن بصوت الطائر الفَرِد ... ما كنتُ أحسب هذا البخلَ من أحد
لو أن أسماع أهل الارض قاطبة ... أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن ّ على سمعي تُقلّده ... صوتاً يجول مجال الروح في الجسد [١]

ولم يكن كثيراً على قاض من القضاة أن يحضر مجلس طرب أو يبدي إعجابه بغناء جارية أو مغن أو زامر . فقد كان فيهم من أخذ هذه الأمور بصدر واسع [٣] ، وان كان هذا لا يعني أنه لا يجد من يشنع عليه وينتقص من هيبته . وإذا كان الخبر التالي يدل على مشاركة العلماء والقضاة في الأنس بمجالس الطرب وتذوق الأدب ، فإن فيه مغزى آخر هاماً : هو هذا الجانب من طبيعة الشعب الاندلسي القائم على البساطة والطرافة . روى ابن حزم بإسناده أنه شوهد « قاضي الجماعة محمد بن أبي عيسى في دار رجل من بني حدير مع أخيه

---

١) جمهرة أنساب العرب - ابن حزم - تحقيق : ليفي برفنسال - دار المعارف بمصر - صفحة : ٩١ .
٢) جذوة المقتبس : ٩٥ .
٣) لابن حزم (رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور) انظر رسائل ابن حزم - تحقيق الدكتور احسان عباس : ٩٣ - ١٠١ (نشر الخانجي بمصر) .

أبي عيسى في ناحية مقابر قريش وقد خرجوا لحضور جنازة ، وجارية للحديري تغنيهم هذه الابيات :

طابَت بطيب لثاتك الأقداحُ ... وزَهت بحُمرة خدك التُّفاح
وإذا الربيع تنَسمّت أرواحُه ... طابت بطيب نَسيمك الأرواح
وإذا الحَنادِس ألبست ظلماءَها ... فضياءُ وجهك في الدُّجى المِصباح

قال : وكتبها قاضي الجماعة في يده ثم خرجوا ، قال فلقد رأيته يكبّر للصلاة على الجنازة والأبيات مكتوبة على باطن كفه [1] .

المغنيّ والزامر:

وتضاف إلى شخصية المغني صورة شخص آخره له دوره في إقامة الحفلات وتطريب الأغاني ، وهي شخصية الزامر. وكانت له رسوم خاصة وهيئة معهودة تكون بمثابة المظهر اللازم أو الملائم بالاضافة الى العمل الأساسي وهو الزمر والإنشاد بشعرٍ ما . ولدينا نموذج يصور زامراً في حفل عرس فيه وصف حاله، وفيه ذكر الشعر الذي كان ينشده . ونقل الحميدي رواية بعضهم : « فلمهدي بعرس في بعض الشوارع بقرطبة والنكوري الزامر قاعدٌ في وسط الحفل وفي رأسة قللسوة وَشي وعليه خَزّ عبيدي وفرسه بالحلية المحلاة يمسكه غلامه ، وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر ، وهو يزمر في البوق بقول أحمد بن كليب في (أسلم) :

أسلمني في هواه ... أسلم هذا الرّشا
غزالٌ له مقلةٌ ... يصيبُ بها من يَشا
وشى بيننا حاسدٌ ... سَيُسأل عمّا وَشى
ولو شاء أن يرتشي ... على الوَصل روحي ارتَشى

---

١) جذوة المقتبس : ٧٠ .

ومغنٍّ مُحسنٌ يسايره فيها[1] .. » .

ومن أوجه ازدهار فن الغناء وتنوّع أساليبه أن زرياب زاد في الأنــدلس وتراً خامساً على أوتار العود بعد أن كان ذا أوتار أربعــة قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وتراً خامساً أحمر متوسطاً فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة[2] .

الغناء وكتبه :

تمكنت طرائق اسحاق الموصــلي وزرياب في الأندلس ، وصارت عنواناً للذوق الراقي المتدارس المتّبع . وقد ورد في ترجمة عقيل بن نصر وهو شاعر أديب ، قديم أن « له أغان ، يجري فيهــا مجرى الموصلي »[3] . بينما ذُكر لأسلم ابن عبد العزيز « كتاب مشهور في أغــاني زرياب »[4] . وصار باستطاعة الأندلسيين مجاراة أبناء زرياب في الغناء والنسيج على منوالهم واستحقاق إعجاب النــاس والأمراء[5] . وألف أبو زكريا يحيى بن ابراهيم الأصبحي الحكيم المعروف بالخذوج كتباً كثيرة «أكثرها مختصرات » مما يدل على اهتمامه بالكتب السالفة ، وذكر الرعيني في ترجمته أنّ الخذوج عرض عليه « كتابه الكبير الذي سماه بالأغاني الأندلسية[6] » . ولكننا لا نعثر لهذا الكتاب على أثر ، ولو وجد لكشف لنا عن ناحية هامة من نواحي الموسيقى والغناء والشعر والأدب ذات أهمية بالغة . وذكر الكتابَ والمؤلفَ صاحبُ نفح الطيب نقلاً عن ابن سعيد

---

١) جذوة المقتبس : ١٣٤ .
٢) نفح الطيب : ٤ : ١٢٢ .
٣) جذوة المقتبس : ٣٠٤ .
٤) جذوة المقتبس ١٦٢ وانظر ١٣٧ .
٥) طبقات النحويين واللغويين : ٢٩٢ .
٦) برنامج شيوخ الرعيني - تحقيق ابراهيم شبوح - نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ١٣٨١ - ١٩٦٢ . صفحة : ١٦٤ . واختلف رسم (الخذوج) بين البرنامج والنفح .

رسالة ابن حزم في فضل الاندلس ، وأضاف مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة ، ومنها كتب علم الموسيقى ، قال : « وليحيى الخدج المُرسي كتـــاب الاغاني الأندلسية على منزع الأغاني لأبي الفرج، وهو ممن أدرك المئة السابعة[1] » وكان هناك اهتمام بالموسيقى الخالصة ان صح القول ، قال ابن سعيد : وأما كتب علم الموسيقى فكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطي في ذلك فيه كفايـة ، وهو في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق واليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد[2] » ولنا أن نخمّن أن كتاب يحيى الخدوج هذا جمع أغاني الأندلسيين : ألحانها وأصواتها من شعر وربما من زجل ايضاً ؛ لان قياسه بأغاني أبي الفرج الاصفهاني وتشبيهه به يدل على ضخامته واستيعابه ، وشموله اغاني أهل الاندلس . ومن كتاب ابن باجة نأخذ دلالة هامة ، ولنا ان نفترض ايضاً ان الذوق الاندلسي تطور مع الايام ، وبعد ان كانت الحان الموصلي وزرياب شائعة سائدة ، تبدل الحال ، وسادت ألحان ابن باجة الذي يصفه ابن سعيد بأنه « إمام الاندلس في الألحان[3] » .

موسيقى اندلسية :

وإذا كانت المغنيات والمغنون المشارقة قد أثروا في إشاعة الاشعار المشرقية في البيئة الاندلسية ، فإن تطور فن الغنــاء في الاندلس أخرجه عن التبعية المطلقة ، وجدّ فيه جديدٌ خاصٌ به . فقد برع مغنون أندلسيون أهم مـا يلاحظ فيهم أنهم من نوابغ الشعراء ، فهم كانوا يغنّون من شعرهم ويلحنون لانفسهم ، وكان لشعرهم ذاك وألحانهم شيوع وذيوع . فمن رجال الذخيرة محمد ابن أحمد بن الحدّاد الشاعر الكاتب، قال فيه ابن بسّام : « وله في العروض

---

١) نفح الطيب ٤ : ١٧٦ .
٢) المصدر نفسه .
٣) المغرب في حلى المغرب ج ٢ : ١١٩ .

تأليف وتصنيف مشهور معروف مزج فيه بين الانحاء الموسيقية والآراء الخليلية [١] ، ولعله جاء فيه ببدع ، لان بعض معاصريه كان أنكر عليه آراءه . وفي ترجمة ابن باجة الشاعر الفيلسوف الموسيقي انه مدح ابن تيفلويت ملك سرقسطة ، وانه اكثر من رثائه وغنىّ بقصائد رثائة في الحان مبكية [٢].

وكان له تلميذ هو ابو عامر محمد بن الحمّارة الغرناطي ومن خبره أنه « برع في علم الألحان واشتهر عنه انه كان يمم للشّعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغني به [٣] » .. ومما يوضح هذا الرأي ويزيده وثوقاً أن الاندلسيين الذين اخترعوا الموشح وضعوا بأنفسهم ألحانه ، ومن ثم ألحان الازجال ، ويقول ابن سناء الملك عن الموشحات التي خرجوا بها عن أوزان العرب إنها لا ميزان لها إلا التلحين « واكثرها مبني على تأليف الأرغن والغناء بها على غير الارغن مستعارٌ وعلى سواه مجاز [٤] » . وفي كل هذا بيان عن الاتصال الوثيق بين الغناء وبين الأدب عموماً ، وعن آثاره المباشرة فيه .

٥ — **الشعر والكتابة :**

في فصل لاحق سأتحدث عن الذوق الاندلسي في فهم الشعر ، والإقبال على أغراض منه والإعراض عن اخرى ، وسأعرض لتطور هذا الذوق واختلافه وتلاؤمه مع البيئات المكانية والزمانية . وما نحن بسبيله هنا هو بيان إقبال الاندلسيين على الشعر ، ومن ثَمّ الكتابة ، ومكانة الشعر والشاعر ، والكاتب

---

١) الذخيرة القسم الاول ـ المجلد الثاني : ٢٠١ ، والخبر في نفح الطيب ٩ : ٢٣٨ .
٢) المغرب في حلى المغرب ٢ : ١١٩ .
٣) المغرب ٢ : ١٢٠ . والشمراء : شجرة تخرج عيداناً شداداً (اللسان) .
٤) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك ـ تحقيق الدكتور ـ جودة الركابي ـ دمشق ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩ . صفحة ٣٥ .

وكتابته ، ودور ذلك في تكوين « بيئة ثقافية » تصلح لأن نُحيل عليها أثناء فصول الكتاب ، في الحديث عن النقد والنقاد ، والأدب والأدباء .

وإذا كان الشعر « ديوان العرب » فيه مآثرهم وأخبارهم وقصصهم ومجالي حياتهم ، فإن ذلك أو ما هو قريب منه يصدق على معظم الشعر الأندلسي ، فإنه ديوان حياة الأندلس . وكان للشاعر من المكانة – على اختلاف في تقديرها – ما يؤهله لأن يكون ممثلاً لبيئته ومشاركاً في تكوين ثقافة الأندلس . والحكم العام الذي يتجاوز بعض الجزئيات أو يأخذ بالغالب الأعم أن نقول كما نقل المقري : « والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ ووظائف ، والمُجيدون منهم ينشدون في مجالس ملوكهم المختلفة ، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم ، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما ، ولكن هذا الغالب ، وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب ، عادة قد جبلوا عليها[1] » .

وكانت للكاتب في الأندلس شخصية أكثر ظهوراً في المجتمع وأعظم ألقاً . فقد كانت حاجة السلطان الى كاتب يعينه في توجيه أمور الحكم أكثر من شاعر يطربه ساعة من الزمن . وكان ارتباطُ خطة الكتابة بالرياسة والسلطان السببَ الأول في شهرة الكتّاب وذيوع صيتهم ، ووقوفهم مع القضاة في موقف متقارب من نظر العامة والخاصة من التعظيم والمكانة . وينقل المقري أن الكتّاب عندهم على ضربين : « أعلاهما كاتب الرسائل وكان له حظٌ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، واشرف أسمائه الكاتب وبهذه السّمة يَخُصه من يعظّمه في رسالة . وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السّمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه .

---

١) نفح الطيب ١ : ٢٠٧ .

والكاتب الآخر كاتب الزمام : هكذا يَعرفون كاتب الجَهْبَذة ، ولا يكون بالأندلس وبرّ العدوة لا نصرانياً ولا يهودياً[1] ... ». ولعل هذا التقسيم ينطبق على الاندلس بعد مرور فترة من الزمن على الاستقرار الأموي وتدوين الدواوين وضبط أمور الدولة . وذكر لسان الدين بن الخطيب [2] أن الأمير النصري يوسف بن اسماعيل (٧٣٤ — ٧٤٩) قلده (كتابة سره) إضافة الى منحه رتبة الوزارة ،في حين كان كاتبه (الرسمي) الشيخ الرئيس أبو الحسن بن الجياب ؛ وهذا منصب كتابي آخر . كما تأصّلت أيضاً خطة منصب جديد احتُفل له في الدولة النصرية ودول المغرب منذ القرن السابع وهو منصب كاتب العلامة وفي ذكر هذا الكاتب ومن تولىّ هذا المنصب كتابٌ لابن الأحمر مطبوع [3] .

وقد زاد من مكانة الكاتب أنه كان يصل في بعض من الاحيان الى مرتبة الوزارة لِما يبديه من البراعة في تصريف الامور ، أو لِما يكون فيه من المواهب . والمثل مطّرد في مملكة غرناطة اطّراداً كبيراً .

هذه مكانة الكتاب ومشاهيرهم ، وسنعرض لطرائقهم وتأثرهم بالمشارقة في فصل آخر أكثر ملاءمة لسير البحث .

---

١) نفح الطيب ١ : ٢٠٢ - ٢٠٣ .

٢) اللمحة البدرية في الدولة النصرية : ٩١ .

٣) مستودع العلامة ومستبدع العلامة لأبي الوليد اسماعيل بن يوسف بن الأحمر - طبع الرباط ١٩٦٤ - بتحقيق : محمد بن تاويت التطواني ومحمد التركي التونسي .

الأندلسية

استمر الأندلسيون زماناً على الاكتفاء بما يردهم من المشرق من ثمرة الفكر ، ويعنينا من ذلك هنا الشعر والنثر والدواوين والآراء النقدية الأدبية ، والمثُل المحتذاة في ذلك كله . وقد استمر إعجاب الأندلسيين بالمشارقة وبما هو مشرقي إلى آخر عهد المسلمين بالأندلس ، إلا أنه مرت عليهم فترة أحسوا فيهـا بأنهم (أندلسيون) أنجبت بلادهم علماء وشعراء وأدباء وشيوخاً في كل فن ، فاتجهت الى ذلك أنظارهم ، ووجد من يقدر أعلامهم حق قدرهم ، وكانت تلك حركة تطاولت مع الزمن ، هي ما نسميها بـ (الأندلسية) .

وليس المقصود بالأندلسية ما يتبادر الى الذهن أحياناً من معنى الإقليمية وتطبيقه على الدراسات الأدبية ، ولا علاقة لها مع نظرية البيئة التي شرحهـا أحد الباحثين ، وطلب أن يكون أساس تقسيم دراسة الأدب العربي الإسلامي « هو اختلاف البيئة وتغايرها ووحدة المؤثرات المادية والمعنوية فيهـا »[1] . ووجه الاختلاف من ناحيتين : الأولى أنّ تقصي هذه الفكرة والاحتجاج لها أو عليها له مجال آخر يطول ، وليس من برنامج هذا البحث الإفاضة في ذلك .

---

(١) مصر في تاريخ البلاغة ـ أمين الخولي ـ مقالة في مجلة كلية الآداب ـ مجلد ٢ جزء ١ مايو ١٩٣٤ ـ صفحة ٥ ـ ٦ .

والثـانية أن التدليل على وجود ما يُشعر بالتفـات الأندلسيين الى تاريخهم وعلمائهم وأدبهم وتراثهم لا يعني الأخذ بهذه النظرية ، ولا تندرج تحت أحكامها مظاهر تلك «الأندلسية» . ولا يدخل في نطاقها فيما نَصف ونتحدث ما يتبادر الى الذهن من معاني القومية أو الإقليميـة بمفاهيم اليوم ، فإن الأندلسيين لم يعتبروا أنفسهم يومـاً جنساً آخر غير العرب بمعنى الكلمة العـام ، ولا دولة أخرى تختلف عن بقية دول الإسلام . ولئن حصلت منافسة بين الأندلسيين والمشارقة فلإثبات الوجود – كما نقول – أو بينهم وبين المغاربـة في بعض الأزمان فللاختلاف بـين البداوة والحضارة بكل معـاني الكلمتين في الأكثر الغالب .

لقد تجلّت هذه الاندلسيـة في شعور واضح بابتكارات الاندلسيين في التأليف والشعر والكتابة والعادات ، والتفات إلى تاريخ الأندلس وجغرافيتها وخصائصها ، وتاريخ علمائها وولاتها وقضاتها وكتابها وشعرائهـا ؛ ولا يعنينا تقصّي ذلك ، ولكن الاشارة القليلة تُغني ، وسنكتفي بالإلمام بنصيب الادب والادباء وما يتصل بذلك .

استقر العرب في الاندلس ووطنوا النفس على اتخاذها داراً دائمة ، ولكنهم ظلوا ملتفتين بأذهانهم ونفوسهم الى المشرق يستطلعون أخباره ويتسقّطون نوادره ويلحقون بركبه أنّى اتجه ، ولا يُستغرب من الأمير الأموي عبدالرحمن ابن معاوية داخل الاندلس أن يقول في شعر له – بعد أن استتبت له الإمارة واستقر على كرسيّها – إنه يحن الى المشرق والفرات ؛ وكأنه تمنى أن يعيش سُوقة بين بني العباس في مرابعه على أن يكون أمير غربة ، وما حاجته إلا نخلة مفردة ! :

يا نخلُ أنت غريبةٌ مِثلي | في الغَرب نائيةٌ عن الأهل
فابكي وهل تبكي مُكَبّسةٌ | عَجماء لم تُطبـع على خَبل

لو أنها تبكي اذن لبكت ماءَ الفرات ومَنبت النَّخل
لكنها ذهلت وأذهلني بُغضي بني العبَّاس عن أهلي(١)

ودخل الى الأندلس عدد من المشارقـة كان لبعضهم حظ وافر من العلم والثقافة والمقدرة على التلاؤم مع البيئة ، فأثروا – كما سنبين – في ثقافة الأندلس وعاداتهم ، ومهَّدوا لتثبيت المُثل المَشرقية في الفكر والأدب وكثير من نواحي الحضارة ، ولكنها لم تكن كلّ شيء في الحضارة الأندلسية . والى جانب مدرسة الشعر (القديم) الذي شجعه القالي وصَحبُه ازدهرت مدرسة الشعر الحديث وظهر منها أعلام كبار .

البَلـُّوطي

وقد بدأت مظاهر شعور بعض الأندلسيين النابهين بأنفسهم بعد استهتار مَن حولهم بمعرفة قيمتهم ، وعدم التفات المولعين بكل ما هو مشرقي – ومن ثَم بالمشارقة أنفسهم – الى هؤلاء النفر البارزين . فظهرت الشكوى من اهتضام الحقوق ، ومن إغفال المُبدعين،كما اتخذ الأمر في بعض الأحيان طريقة التَّهجين على المشارقة ، والتندر عليهم ، لإيضاح هذا الغرض . ومن هذه الشكاوى ما روي عن خطيب بني أمية : منذر بن سعيد البلوطي، الشهير،وكان من خبره أن رسولاً للروم وفد على الحكم المستنصر وخطب بين يديه فانتدب له أبا علي القالي للرد عليه فأرتج عليه وتلعثم ، فابتدر منذر وأنقذ الموقف « وأنشد لنفسه في آخر الخطبة :

هذا المقالُ الذي ما عابه فَنَدُ لكن صاحبَه أزرى به البَلدُ
لو كنت فيهم غريباً كنت مُطـَّرفاً لكنني منهمُ فاغتالني النَّكدُ

---

(١) الحلـة السيراء لابن الأبار . تحقيق الدكتور – حسين مؤنس – الشركة العربيـة للطباعة . الجزء الاول – صفحة : ٣٧ .

لولا الخلافةُ أبقى الله بَهجتها ما كنت أبقى بأرضٍ ما بها أَحد[1]

الغَزال :

وأقذع يحيى بن حكم الغزال في هجاء زرياب فأزعجه عبد الرحمن عن الأندلس ، فدخل العراق « وذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة فوجدهم يَلهجون بذكره ولا يُساوون شعر أحد بشعره ، فجلس يوماً مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس ، فقال لهم : مَن منكم يحفظ قوله :

ولما رأيت القوم أكدت سماؤهم تأبطتُ زِقّي واحتبستُ إنائي
فلما أتيتُ الحانَ ناديت ربَّه فثابَ خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع العَين إلا تَعلّةً على وَجَلٍ مني ومن نُظرائي
فقلتُ أذقنيها ... الخ .

فأعجبوا بالشّعر وذهبوا في مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم : خَفّضوا عليكم فإنه لي ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي أولها :

تداركتُ في شرب النبيذ خَطائي وفارقتُ فيه شيمتي وحَيائي

فلما أتم القصيدة بالإنشاد خجلوا وافترقوا عنه[2] . ومن الطريف أن اندلسياً آخر انتصر للأندلس وشعرها بقصيدة ليحيي الغزال موهماً أن الشعر لأبي نواس على الطريقة نفسها[3] .

ولم يتورّع الأندلسيون عن الغضّ من المشارقة الوافدين ، ومنهم العِجلي الذي وفد من العراق فمنع كتبه وضنّ بها واستدعى الناس الى أن يُملي عليهم فندب

---

١) جذوة المقتبس : ٣٢٦ . ونقله في البغية : ٤٥١ .

٢) المطرب من اشعار أهل المغرب لابن دحية بتحقيق ابراهيم الابياري وآخرين . القاهرة ١٩٥٤ – صفحة ١٢٨ ، والخبر في نفح الطيب ٣ : ٢٨ نقلا عن المطرب .

٣) الجذوة : ٢١٢ .

الناس اليه ، وخلا مجلس عالم أندلسي شهير وقتها هو الخُشَني ، فاحتال بعض تلامذته ودخل مجلس العجلي وخطّأه على مشهد من الحاضرين حتى أعاد الى حلقة الخشني حياتها [١] .

صاعد البغدادي :

ومن الامثلة البارزة على ما لقي بعض الوافدين إلى الاندلس من محاولات (الاختبار) ووضعه في موضعه الذي يرونه له ، والايقاع به : صاعد البغدادي الذي قدم في زمن المنصور بن أبي عامر وقد كان على علمه مُمَخرقاً ، وَضّاعاً « ولمّا دخل قرطبة دفعوه بالجُملة عن العلم باللغة ، وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه ، ولذلك ما رضيَه أحد من أهلها أيام دخوله إليها ولا رأوه أهلاً للأخذ عنه ولا للاقتداء به [٢] » . ولم يثبت أمام الجمع الذي جمعه المنصور للتباحث معه ، ولكنه ظل عنده كالنديم ، إلى شعر يصنعه وقصص يؤلفها .

ابن حزم : رسالته في فضل الأندلس

فإذا بلغنا القرن الخامس وجدنا أبا محمد بن حزم وله رسالة هامة « في فضل الأندلس وذكر رجالها » ، احتفظ بها المقري في نفح الطيب [٣] ، وذكر أن أبا محمد وضعها للرد على رسالة أبي علي بن الربيب القروي (القيرواني) التي بعث بها إلى أبي المغيرة بن حزم [٤] (ابن عم أبي محمد ومعاصره) يذكر فيها تقصير أهل الاندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسِيَر ملوكهم . ورفع أبو محمد بن حزم رسالته هذه إلى صديقه : أبي بكر محمد بن إسحاق [٥] .

---

١) طبقات الزبيدي : ٢٩٨ .
٢) الذخيرة القسم الرابع – المجلد الأول – صفحة : ٢ – ٣ .
٣) نفح الطيب ٤ : ١٥٥ – ١٧٠ .
٤) رد أبو المغيرة على صاحبه برسالة، في الذخيرة ١/١ : ١١٣ ، ١١٦ مقتطفات منها .
٥) جذوة المقتبس : ٤٢ .

بدأ ابن حزم رسالته فذكر أنه وقع في يده كتاب ألّفه رجل من مُصَاقبي الاندلس أخذ فيه عليهم إهمال الأندلسيين لذكر علمائهم .. وأنه لقي من شجّعه على التأليف في الرد عليه . قدّم الحديث بمن ألف في مآثر الاندلس وأولهم أحمد ابن محمد الرازي التاريخي ، وقال إن قرطبة مع سرّ من رأى في إقليم واحد « فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا [1] » . وأقام دراسة مقارنة لطيفة خرج منها إلى أن « ينسب الرجل الى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل تركٍ لسكناها إلى أن مات [2] » . وهو على هذا يضيف القالي إلى الاندلسيين ، ولا ينازِع في محمد بن هانيء « الاندلسي » . وجأر بالشكوى من إعراض أهل الاندلس عن علمائه لأن أزهد الناس في عالم أهله « ولا سيما أندلسنا فانها خُصت من حسَد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم واستقلالهم كثيرَ ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته وتتبُّعهم سقَطاته وعثراته وأكثر ذلك مدة حياته بأضعاف ما في سائر البلاد [3] » . وهو هنا يقيس على ما حوله ويطبّق على نفسه وما لقي من أهل عصره . وعدّد تآليف الأندلسيين في التفسير مثل تفسير القرآن الكريم لبقي بن مخلد « فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره [4] » . وذكر تآليفهم في أحكام القرآن وعلوم الشريعة وكتب السنة ، وكتبهم في اللغة . وذكر كتباً أُلّفت في الشعر مثل : كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الاندلس ، وكتاب الحدائق لأبي عمر أحمد بن فرج الجيّاني الذي عارض به الزهرة لداود الاصفهاني ، و« التشبيهات من أشعار أهل الاندلس » صنعه علي بن محمد الكاتب . ونوّه بشرح ابن الافليلي على ديوان المتنبي وقال فيه إنه حسن

١) نفح الطيب : ٤ : ١٥٧ .
٢) نفح الطيب : ٤ : ١٥٩ .
٣) نفح الطيب : ٤ : ١٦١ .
٤) المصدر نفسه : ١٦٢ .

جداً (١) ثم تحدث عن بحث الأخبــار المتعلقة بتاريخ الاندلس ، وكتب الطب ، والفلسفة ، والعدد ، والهندسة ، وعلم الكلام . وعاد إلى استكثار ما يصدر عن الاندلسيين « وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ونأيه عن محلة العلماء فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إن طُلب مثلهابفارس والاهواز وديارمضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفَهم وذويه ومراد المعارف وأربابها (٢) » . وختم الرسالة بفضائل الاندلس من حيث مَنْ فيها من الادباء ، وقسم شعر الاندلسيين إلى قسمين : فمنه ما يجري علىمذهب الاوائل ومنه ما يتبع طريقة المُحْدَثين؛ ودخل في موازنة شعراء الاندلس وأدبائها مع المشارقة مساوياً أو مرجّحاً . وله في هذا نظرات صائبة ، فقال إن ذُكِر أبو الأجرب جعونة بن الصِّمة الكلابي لم يُباهِ به إلا جريراً والفرزدق لكونه فيعصرهما ولو أنصف لاستُشهد بشعره فهو جارٍ على مذهب الاوائل (٣) » ووصل إلى المحدَثين من الشعراء فقال « ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد المرادي وكل هؤلاء فحل يُهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغُرة (٤) » وختم بذكر احمد بن عبد الملك بن شُهيد ، ومحمد بن مَسَرّة .

ووصل ابنُ سعيد رسالةَ ابن حزم فذكر المؤلّفات التي خلّفها الأندلسيون بعد عصر ابن حزم ممّا رأى فيه طرافة وابتكاراً ومما يُفاخَر به. واتخذ الطريقة نفسها من عَرض الكتب حسب موضوعاتها ، وذِكر أسماء المؤلفين ، ومنزلة

---

١) نفح الطيب : ١٦٦ .
٢) المصدر نفسه : ١٦٩ .
٣) المصدر نفسه : ١٦٩ .
٤) المصدر نفسه : ٤٣ : ١٧٠ .

الكتاب من فنه بين الكتب الأخرى .

المقارنات :

ومن واقع الصلة بين الأندلس والمغرب نشأت مفاضلات ومفاخرات بين البلدين فقد كان الأندلسيون يتعصبون دائماً لبلدهم ويفضلونه على غيره بجوه وإقليمه وعلمائه وتراثه . ومن ذلك رسالة المفاضلة التي كتبها أبو الوليد الشقندي [1] مناظراً أبا يحيى بن المعلم الطنجي بعد أن تنافسا مشافهة : كلّ يفضل بلده : فهذا الأندلس والثاني : بر العدوة . وكان الشقندي معاصراً لدولة المرابطين حيث كانت الرياسة للمغاربة على الأندلسيين فكان في هذه الرسالة ما يشفي بعض الصدور لما رأوه من ذهاب الملك عنهم وانتقال السلطان إلى سواهم . وتبدأ الرسالة بمفاخرة عامة وانتصار للأندلس بما فيها ، بلهجة خطابية بالغة ، ثم فاضله بالعلماء وعدّ أئمة في الفقه والسنّة والقرآن ، والنحو واللغة والأدب ، فمن ذلك قوله « وهل لكم في حفاظ اللغة كابن سيدة صاحب كتاب (المحكم) وكتاب (السماء) ، العالم الذي إن أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته . وهل لكم في النحو مثل أبي محمد بن السيد وتصانيفه ومثل ابن الطراوة ومثل أبي علي الشلوبين .. وهل لكم في علوم اللحون والفلسفة كابن باجة »[2] واعتصب بعدد من الشعراء فأثنى عليهم واختار لهم الأبيات القليلة مما استحسن ، ووصف ما اختاره بالإبداع والحُسن والاختراع . وعرّج على فرسان الأندلس وأورد نُبَذاً من مآثرهم ، وتحدث عن بعض شمائل أهل الاندلس ، ومرّ على بعض المدن الاندلسية فعدّد خصائصها ومحاسنها كاشبيلية وقرطبة وجيّان وغرناطة ومالقة .

ويلحق بهذه الرسالة من بعض وجوهها رسالة لسان الدين في المفاضلة بين مالقة (الأندلس) وسلا (المغرب) وقد سبقت الإشارة اليها . وكتب

---

١) نفح الطيب ٤ : ١٧٧ - ٢٠٨ .

٢) نفح الطيب ٤ : ١٨٢ .

بعض الاندلسيين رسائل في خصائص مدنهم واستعراض محاسنها على سبيل المفاخرة والموازنة . ومن هذه الرسائل : رسالة أبي بحر صفوان بن إدريس ، ورسالة لسان الدين بن الخطيب .

تقليد المشارقة :

وكان ولع الاندلسيين بكل ما هو شرقي عجيباً ، فقد احتالوا في اقتناء الطُّرف والجواري والمغنيات والكتب مما جاءهم من المشرق. وقد تُصنَّع لهم الأشياء خصيصاً بناء على طلبهم . وقد اشترى الحَكَم كتاب أبي الفرج الاصبهاني (الأغاني) بألف دينار وهدايا كثيرة .

ومن ذلك أنهم سموا كثيراً من مدن الأندلس بأسماء مدن مشرقية لِما رأوه من صلة وتشابه بين خصائصها . ونقل المقري أن أبا الخطار حسام بن خطار الكلابي « كثُر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وأنزل أهل دمشق إلبيرة لتشابهها وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيان وسماها قِنسرين ، وأهل الاردن رية ومالقة وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شَذُونة وسماها فلسطين . وأهل مصر تدمير وسماها مصر » .

وقد وُجد من ينسب إلى الأندلس متنبّيها وبحتريها ومعريها بشكل يدعو للتوقف والنظر ، فان الأسماء كثيرة ، وعملية المقارنة استمرت زماناً وانتحلها كتاب كثيرون وانتقلت العدوى إلى المشرق فوجد فيهم من يسلك السبيل نفسه كالثعالبي . فابن اللبانة هو « سموأل الشعراء (المغرب ٢ : ٤١١) وحمدة بنت زياد : خنساء المغرب (المغرب : ٢ : ١٤٥) وأبو الاجرب جعونة الكلابي عنترة الاندلس (المغرب ١ : ١٣١) وكانوا يقولون عن الرمادي (فتح الشعر بكندة وختم بكندة (الجذوة ٣٤٦ ، البغية ٣٧٨) وأبو الربيع سليمان بن علي الشهير بكثير (الرايات : ٢٩) والزبيدي : ابن دريد (النفح ٥ : ٢٤) والكاتب محمد بن سعيد الزجالي يلقب بالأصمعي (النفح ٥ : ٨٢) ومؤمن بن سعيد : دعبل

الاندلس (المغرب : ١/١٣٢) وأبو بكر محمد الأعمى المخزومي بشار الاندلس، وقد أحيى سيرة الحطيئة (المغرب : ٣٢٣/١) وشبهوا سيرة المعتمد بن عباد مع شاعره ونديمه ابن عمار بسيرة الرشيد مع جعفر بن برمك (المغرب ٣٨٩/١) وشبهوا أحمد بن محمد الجياني المعروف بتيس الجن بأنه يجري في وصف الخمر مجرى أبي علي الحسن بن هاني (الجذوة : ١٠٧ ، وسماه في المغرب ديك تيس الجن ٢ : ٥٨) ، والرصافي : ابن رومي المغرب (٢ : ٣٤٣) ونقل المقري في النفح أن مروان بن عبد الرحمن الطليق كان في بني أمية شبه عبدالله بن المعتز في بني العباس بملاحة شعره وحسن تشبيهه (٥ : ١٢٤) . وقد يجدون للرجل أكثر من شبيه لديهم فابن زيدون ، بحتري الاندلس (الذخيرة ١ـ١ : ٣٢٦) وأبو عبد الله بن مجبر بحتري الاندلس أيضاً (الرايات : ٧٨) وأبو العباس أحمد ابن عبد الله التطيلي الأعمى : معري الانـــدلس (الرايات : ٨٩ ؛ ويرى كرتشكوفسكي أن الصلة بينهما هي العمى فحسب : ٨٥) وابن دراج القسطلي : متنبي المغرب (عن اليتيمة في النفح ٤ : ١٨٤ الرايات : ٧٣) . وكذلك ابن هاني الاندلسي هو عندهم متنبي الاندلس . وأبو الحسن علي بن اسماعيل القرشي الاشبوني « كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه (الذخيرة القسم التالي(المخطوط) ٢٦٢/ظ) . وابن خفاجة : صنوبري الاندلس (النفح ٥ / ٣٥[1]) . والعدد المُحصي كثير ، وهذه كانت نماذج من عصور متنوعة تدل على هذا الانكباب على المشرق وأعلامه .

دعائم الأندلسية :

ولكن هذا كله كان يطوي في بعض الاحيان شعوراً غامضاً أو بارزاً بتفوق الاندلسيين فهم بدأوا بإثبات المماثلة والمجاراة إلى تحقيق التفوق والمباهاة . فابن حزم يريد أن يحتج في اللغة بأندلسيين معاصرين لجرير والفرزدق ، وابن شهيد

١) وذكر ابن سعيد في هذه الاسماء والألقاب أنهم « كانوا يلقبون شعراءهم ويقاربون بينهم وبين شعراء المشرق لأسباب تتعلق بشعرهم ونمط اجادتهم » ولعل هذا هو الغالب وان لم يكن دائماً مطابقاً للمشابهة والمضاهاة .

يتفوق على المشارقة في رسالة التوابع والزوابع ، ونقلوا عن المتنبي إعجابه بشعر ابن عبد ربه وقوله لقد تأتيك العراق حبواً (النفح ٥ : ١٠٤) [١] وصاحب الذخيرة يفخر بالاندلسيين ويُزري بالثعالبي ورجاله في اليتيمة (الذخيرة ١-١ : ٣٢٠) وتداول الاندلسيون دواوين شعرائهم ووُجد من يجمع كثير أمنها كالحميدي فقد جمع ديوان ابن حزم ، والسرقسطي جمع شعر ابن عمار ، وابن الخطيب رتّب ديوان ابن الجياب ؛ وحبيب بن أحمد الشطجيري جمع ديوان الغزال ورتبه على الحروف (الجذوة : ١٨٧) . وشاعت دواوين شعرائهم وكتب المختارات التي كانوا ينتقون فيها من أحسن كلامهم كالذخيرة والقلائد والمطمح وزاد المسافر وتحفة القادم ، والبديع . وصارت لهم في بعض الفنون طرائق مميزة يدركونها كالنزعة الخفاجية نسبة الى أبي اسحاق بن خفاجة جنّان الأندلس ، فقد حمّل عنه أبو بكر بن زهر ديوانه (زاد المسافر : ٥٥) [٢] . وحذا ابن الزقاق على طريقة ابن خفاجة في شعره [٣] .

وألف الاندلسيون مؤرخين لأمّهات مدنهم : جغرافيتها وتاريخها وخصائصها، وترجموا فيها لمشاهير الأعلام وكان المؤلف يترجم لأعلام مدينته، ويضخم عدد التراجم بذكر معظم من ألمّ بتلك المدينة ،فيكون ذلك داعية الى الى إيراد أسماء كتب المترجم به وشيوخه وتلاميذه ، وإيراد نبذ من شعره وترسله ، فهي لاحقة بكتب التراجم من جهة ، وتعد في كتب تاريخ الأدب من جهة أخرى ، إضافة الى فوائد أخرى من جوانب متعددة . والمثال البارز لوجوده بين أيدينا — كتاب الإحاطة — أو هو مختصرة — الذي وصفه لسان الدين بن الخطيب في أخبار غرناطة . وذكر في مقدمة كتابه الكتب التي سبقته

---

١) ونقل في الذخيرة ـ القسم الثاني (المخطوط) ٢ : ١٧٠ / ظ عن المتنبي أنه قال عن (ابن هذيل الأندلسي) بعد أن سمع نماذج من شعره : « هذا أشعر القوم » .

٢) وغيره كثيرون انظر مقدمة الديوان ٨ - ٩ .

٣) المغرب ٢ : ٣٢٣ .

في تواريخ مدن الأندلس ، وإن كثرتها لتثير الاعجاب وتدعو الى التأمل [1] .

معارضات :

ولدينا كتب وضعوها اختصاراً لكتب مشرقية – اهتماماً بها – وكتب أخرى معارضة لبعض الكتب . فابن فرج الجياني وضع كتابه (الحدائق) معارضاً كتاب الزهرة لداود الاصفهاني (الصلة : ١ : ٥ ، الرايات : ٧٢) والطرطوشي عارض احياء علوم الدين للغزالي (البغية : ١٢٥) وأبو القاسم عامر بن هشام الأموي القرطبي وضع مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد (برنامج شيوخ الرعيني : ١٩٧) وأبو عبدالله بن أبي الخصال عارض مبهج الثعالبي بكتابه المنهج (فهرسة ابن خير ٣٨٦) وكان لكتاب يتيمة الدهر للثعالبي شهرة عظيمة في الأندلس لِما فيه من نماذج مشرقية ، وهذا ما دعا ابن بسام الشنتريني (٥٤٢) لأن يؤلف كتابه (الذخيرة) ليضمنه محاسن أهل جزيرة الاندلس ويعارض كتاب الثعالبي [2] . ومثل ابن بسام صَنَعَ أمية بن أبي الصلت (٥٤٦) وكان معاصراً له ، ورحل الى المشرق وألف كتباً منها « كتاب الحديقة على أسلوب كتاب اليتيمة [3] ». وكان هَمّ كثير من الكتاب إثبات تقدم الاندلسيين ، كابن سعيد صاحب المغرب إذ ذهب « مذهب المعارضة للمشارقة فلم يترك لبلدة من بلاده طرفة بديعة من طرف الشعر ولا تحفة نفيسة من تحف الموشحات والأزجال إلا جاء بها معارضاً متحدياً متجاوزاً في ذلك حد الحمية الى حد العصبية [4] » .

الموشح :

وقد أحدث الأندلسيون في الشعر فناً جديداً كان وليد بيئتهم ومن اختراع شعرائهم هو فن الموشح ، وينص ابن بسام على هذا بقوله « وكانت صنعة التوشيح

---

١) الاحاطة – طبعة دار المعارف بمصر – الجزء الاول : ص ٩١ .
٢) مقدمة الذخيرة (١ – ١) .
٣) المغرب : ١ : ٢٥٦ .
٤) مقدمة الدكتور شوقي ضيف لكتاب المغرب – صفحة (ز) .

التي نهَجَ أهل الاندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ولا منظومة العقود ، فأقام عُبادة هذا منآدها وقوّم ميلها وسنادها .. وهي أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب تُشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب . وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغني محمد بن حمود القبري الضرير [1] » .. وسأعود الى التفصيل في أمر الموشح وموقف الشعراء والنقاد منه في فصل آخر إن شاء الله .

الأمثال :

ومن دلائل اختصاص الأندلس ، ومظاهر استقلال الشخصية الأندلسية الأدبية انه — مع الزمن — أخذت الأندلس تستقل في أمثالها ، وفي طبيعة لهجتها ولغتها [2] . ففي أمثال عندهم أسماء وعبارات واستعمالات تدل دلالة قاطعة على أنها وليدة البيئة الاندلسية ، مثل (ما هذا إلا أبو حَرشن) و (أفصح من بكر الكناني) ، و (أفصح من الرشَّاش) وهذه أسماء مؤدبين ولغويين من قدامى الاندلسيين . أما ظاهرة الاستقلال اللغوي فالمقصود بها تميز اللهجة الاندلسية الدارجة ونموها مع الزمن ، إضافة ما الى جدّ في البيئة الاندلسية عامة من تعبيرات ومصطلحات لو سمعها أهل المشرق لمّا عرفوا مدلولها ، مثل كلمة المسدّد أي الحاكم الذي يتولى شؤون بلدة صغيرة والقطيع للضريبة التي يؤديها المسلمون في بلاد الاندلس وبخاصة بعد الفتنة .. وكان لطبيعة أهل البلاد المؤلفين من عرب وبربر ومن أهل البلاد الأصليين أثره في ظهور لغة سائدة — الى جانب اللغة العربية (الفصيحة) يسمونها (الاعجمية) ومنها ثلاث لهجات كبرى هي الأرغونية والبلنسية والقشتالية . واستقصاء ذلك يخرج عن طبيعة البحث ، ولكن المقصود هو الإشارة إلى أن الاندلس تهيأ لها من الأسباب ما جعلها تتميز وتنفرد ببعض الخصائص .

---

١) الذخيرة ١ ـ ١ صفحة ١

٢) تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر سيادة قرطبة ـ الدكتور احسان عباس . صفحة ٦٤ ـ ٦٥ .

الثقافة في الأندلس

بدأت الأندلس الإسلامية ولاية تابعة لعاصمة الدولة الأموية في دمشق . وكان الولاة يخرجون من الشام اليها ويحكمون هناك باسم الخليفة الأموي ويرمون عن قوسه في السلم والحرب . واضطرب الحبل سنوات قليلة فيما بين ضعف الدولة الأموية وبين ورود عبد الرحمن بن معاوية على المغرب ثم الأندلس، فتولاها عمال من إفريقية أو رؤساء موقتون ، حتى قامت دولة الداخل على ساقها ، بعد أن ألقى عصا التسيار .

ومعلوماتنا عن هذه الفترة فيما بين الفتح وبين استتباب الأمر للدولة المروانية قليلة نزرة ، تستأثر بها أسماء الولاة ، وتفاصيل الفتح ، وتواريخ الغزوات في بلاد الفرنجة ، والنظر في العَود إلى المشرق عن طريق رومة والقسطنطينية ، ولكننا مع هذا لا نعدم لمحات قليلة واشارات معبرة عن سير الحركة الأدبية في هذه الفترة من الزمن فقد كان أبو الأجرب جعونة الكلابي مداحاً للصميل بن حاتم — وهو أحد رؤوس المضرية في الأندلس يوم نزاعهم مع اليمانية — « أفنى فيه قوافيه ، وكان الصميل أغلظ القسم على نفسه ألا يراه الا أعطاه ما حضره ، فكان أبو الأجرب يعتمد إغباب لقائه ، وكان لا يزوره إلا مرتين في العيدين . وكان فارساً شجاعاً يدعى عنترة الأندلس [1] .. » وفي الخبر نفسه اشارة أخرى متممة عن

---

١) المغرب : ١ : ١٣١ .

معلم صبيان يعلم تلاميذه القرآن الكريم ، كان يُـه به الصميل .

المساجد والمدارس :

كانت المساجد هي دور العلم في الاندلس ، فإنه لم تنشأ فيها المدارس المستقلة إلا في زمن متأخر في عهد دولة بني نصر ، ففي أيام يوسف بن اسماعيل ابن نصر « بنيت المدرسة العجيبة بكر المدارس في حضرته ، فتمت وكملت أوقافها [١] » . وظل المسجد في الغالب المصدر الاول لتلقي العلوم والآداب ، وبخاصة علوم الشريعة . وكانت فئة من الأمراء والكبراء تجتلب لأبنائها المدرسين والمؤدبين ؛ ولكن هذه حالات قليلة لا تغير من الاصل الشائع . وفي صلة ابن بشكوال خبر هام ، عن شيخ كان يؤمه القاصدون للعلم من بلدان مختلفة ، وكان عددهم نحو صف (فصل) كامل يتلقون دروسه ، وينعمون عنده في فصل الشتاء بشهوره القاسية الماحلة بالدفء والغذاء ، فنقل عن أحدهم قوله « كنت آتي إلى — أحمد بن سعيد بن كوثر الانصاري في طليطلة — من قلعة رباح وغيري من المشرق ، وكنا نيفاً على أربعين تلميذاً ، فكنا ندخل في داره في شهر نوفمبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات ، والحيطان باللبود من كل حول ، ووسائد الصوف ، وفي وسطه كانون في طول قامة الانسان مملوءاً فحماً يأخذ دفأه كل من في المجلس فاذا فرغ الحديث أمسكهم جميعاً وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد باللبن بالسمن أو الزبد فنأ كل حتى نشبع منها ، ويقدم بعد ذلك لوناً واحداً ونحن قد روينا من ذلك الطعام فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح إلى ذلك الطعام ، الثلاثة الأشهر ، فكان ذلك منه كرماً وجوداً وفخراً لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة [٢] » . ولا شك في أن مثل هذه الحالة قليل ، ولكن دلالتها أبعد مرمى ، فقد وُجد فقهاء وعلماء يفتحون منازلهم للعلم ، بالاضافة إلى دور المساجد في ذلك .

---

١) اللمحة البدرية في الدولة النصرية — لابن الخطيب : ٩٦ .

٢) الصلة لابن بشكوال ١ : ٣٧ . طبعة الدار المصرية .

أثر الحكام :

وكان للحكام دور فعال في تنمية الثقافة ، وتطويرها والتشجيع عليها . وكان من أهم الامور اقتناء الكتب وبخاصة المشرقية منها ، واضافتها إلى المكتبات وبثها في أيدي العلماء والمتعلمين . وكان الحكم المستنصر مثالاً نادراً للخليفة الذي تشغله الدولة ، وتشغله أيضاً رغبته في العلم واقتناء الكتب والاشارة بتأليف الكتب في موضوعات يقترحها ؛ « ولم يُسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وايثارها والتهمّم بها . أفاء على العلم ونوه بأهله ورغّب الناس في طلبه ووصلت عطاياه وصلاته إلى الامصار النائية عنه . وبعث الى أبي الفرج الاصبهاني القرشي المرواني ألف دينار عيناً ذهباً ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألّفه في الأغاني وما لأحد مثله .. فأرسل اليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو بنسخة أحد منهم . وألف له ايضاً أنساب قومه بني أمية[1] .. » وكان له ورّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم إلى الآفاق عنها . وذكر صاحب الحلة السّيَراء أسماء بعض ورّاقيه . ونقل عن ابن حزم أن عدد الفهارس التي كانت في مكتبة الحكم لتسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط[2]» . وكان لعبد الله أخي الحكم هذا مكتبة ضخمة آلت إليه بعد مقتله[3] .

استمر الازدهار الثقافي إلى آخر بني أمية – وفيها الدولة العامرية وتشجيع المنصور بن أبي عامر – ونشأت دول الطوائف ، وقد سبقت الاشارة اليها . ونضيف الآن أن كل دولة من هذه الدول حاولت أن تكون بؤرة ثقافة وهالة رياسة ، وان اختلف نوع الثقافة المسيطرة . فبنو عباد للادب والأدباء وفي بلاطهم شعراء كبار كابن عمار ومنهم أنفسهم شعراء وأدباء . وكان للمعتمد في الادب باع وساع ينظم وينثر . وفي أيامه نفقت سوق الادباء فتسابقوا

---

١) الحلة السيراء – ج ١ : ٢٠٠ – ٢٠١ .
٢) المصدر نفسه : ٢٠٣ .
٣) المصدر نفسه : ٢٠١ .

اليه وتهافتوا عليه [1]. وكان المعتصم بن صمادح التُّجيبي « يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً في كل جمعة للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث ، ولزم حضرته فحول من الشعراء كابن الحداد وابن عبادة وابن مالك [2] .. وكان محمد بن أحمد بن اسحاق بن زيد بن طاهر القيسي صاحب تدمير جواداً مُمَدَّحاً ينتجعه الشعراء ويقصده الأدباء [3] » . وكان أحمد بن رشيق الكاتب على ميورقة مقدماً من مجاهد العامري واشتهر عنه أنه « يشتغل بالفقه والحديث ويجمع الصالحين ويؤثرهم وهو آوى الفقيه أبا محمد بن حزم [4] » . ولئن بدأت دولة المرابطين عسكرية بدوية فإنها سرعان ما تأقلمت مع الجو الأندلسي ، وازدهر الادب والشعر . ولا شك في ان الدراسات عموماً لم تتأثر بالتغير السياسي بمثل ما تتأثر به الحياة العامة ، لأنها عادة حلقات مستمرة متلاحقة يغذيها العلماء والوافدون من المشرق والآيبون من رحلات الحج والعلم والتجارة ، فاشتهر كتاب كبار وشعراء ذاع صيتهم. واستقدم علي بن يوسف بن تاشفين من كبار كتاب الأندلس نفراً كثيراً ، « ولم يزل أمير المسلمين من أول امارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس ؛ وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك [5] كابن الجد وابن القبطرنة وأبي عبد الله بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان وابن عبدون ..

واستمر الحال من تشجيع الدولة للعلم والمتعلمين في دولة الموحدين أيضاً . فكان عبد المؤمن – أول أمرائهم – مؤثراً لأهل العلم محباً لهم محسناً اليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ويُجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنوية بهم والاعظام لهم ، وقسم الطلبة طائفتين : طلبة الموحدين وطلبة الحضر بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين [6] . وعظمت مكانة الشعراء عند الموحدين وكثروا كما تقدم في فقرة سابقة . وكان أبو يعقوب يوسف (ابنه)

١) الحلة السيراء ، ج ٢ : ٥٥ . ٢) الحلة السيراء – ج ٢ : ٨٢ – ٨٣ .
٣) الحلة : ٢ : ١١٩ . ٤) الحلة : ٢ : ١٢٨ . ٥) المعجب : ٢١٧ .
٦) المعجب : ٢٦٩ .

بعيد الهمة سخياً جواداً . . مع إيثار للعلم شديد وتعطش اليه مفرط .. وكان له مشاركة في علم الادب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو [1] . ودفعه طموحه العلمي الى معرفةِ الفلسفة ، فصحبه من علمائها : أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، ونبهه على أبي الوليد بن رشد فقربه وأكرمه .

الاثر المشرقي :

هذا وجه من وجوه تقدم الثقافة وازدهارها ، ذلك هو أثر الدولة في الثقافة ومناحي العلم والمعرفة . ولكن هل كان هذا هوكل شيء عن الثقافة في الاندلس؟ لا بد من وقفة عند أثر الوافدين على الاندلس في صبغ بعض وجوه الحياة الاندلسية بصبغة مشرقية ، وتثبيت بعض القيم الفكرية والحضارية ، وتوجيه الدراسات الادبية وجهة معينة . والاستقصاء صعب وغير عملي ، ويُغني في ذلك نماذج قليلة ندرسها ونحللها . وقد أورد المقري في النفح في الجزأين الثالث والرابع تراجم كثيرة وفيرة لمن رحل عن الاندلس إلى المشرق استقراراً ، أو لطلب العلم والحج والسماع – وهم الاكثر – ولمن وفد على الاندلس من أهل العلم والادب . ويستشف المرء من هذه التراجم مدى الأثر الذي تركه المشرق في الاندلس ، ويتبين مدى الصلة التي كانت تربط بينهما وان كانا في الادارة والسياسة في بعد واختلاف .

في سنة مئتين وست قدم إلى الاندلس من العراق علي بن نافع المعروف بزرياب مولى المهدي العباسي وتلميذ اسحق الموصلي ، فلقي حفاوة بالغة ، اذ تلقاه عبد الرحمن الأوسط [2] ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، ووفر له مرتباً ومؤونة واقطاعات كثيرة. ولما سمعه عبد الرحمن ونادمه زاد اعجابه به وعَلَت مكانته لديه وفتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده [3] . ويبدو أن زرياب استطاب المقام واستقرت نفسه بما انثال عليه فعكف على ألحانه وآلاته ،

---

١) المعجب : ٣١٠ – ٣١١ .
٢) نفح الطيب ١ : ٣٢٢ .
٣) نفح الطيب ٤ : ١٢١ .

واستنبط شيئاً جديداً في آلة الغناء التي برع فيها . فزاد في أوتار عوده وتراً خامساً اختراعاً منه [1] . واخترع مضراب العود من قوادم النسر معتاضاً به من مُرهَف الخشب . وكملت شخصية زرياب بأنه لم يكن مغنياً فحسب ، بل كان نديماً من الدرجة الاولى ، وكان عالماً بالنجوم وقسمة الاقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها [2] ، إلى جانب علمه في الموسيقى وحفظه عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بألحانها – كما ينقل المقري – وحمل زرياب مع ما حمل من المشرق نماذج وعادات وطرائق في آداب السلوك والمآكل ومعاشرة الملوك وأصول المنادمة وأنواع اللباس وأشياء كثيرة تدخل في باب الحضارة وزيادة التأنق في أسلوب التمدن ؛ فقد ورثت بغداد حضارة بني أمية وأضافت اليها ما استنبطته استناداً إلى ما صاقبها من حضارات الفرس وغيرهم. وان الناظر في قائمة بأسماء اقتباسات الاندلسيين مما أحدثه زرياب ليعجب من كثرتها وتنوعها ، ولعل الأهم من ذلك أنها استمرت زماناً طويلاً مُسَلَّماً بها ، مقصوداً اتباعها والاخذ بها ، وصار كل ما جاء به مستمراً ، إلى آخر أيام أهل الاندلس ، منسوباً اليه [3] .

اتخذ الاندلسيون (زرياب) ومن معه من أسرته وحاشيته قدوة ، وقلدوهم في كل ما أحدثوه لديهم مثل قص الشعر وتطييب الاجسام وتنويع المآكل والمشارب . وقد أشاع فيهم تفضيل آنية الزجاج على آنية الذهب والفضة ، ولبس كل صنف من الثياب في الزمان الذي يليق به . وأحدث في مراسم (طرائق) الغناء أنماطاً بقيت مقلدة ومتبعة طوال عهد الاندلس . واستمر بالاندلس أن كل من افتتح الغناء ، فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأي نقر ويأتي إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والاهزاج تبعاً لمراسم زرياب . وقد أسلفت الحديث عن أغاني زرياب (المقطعات الملحنة) وشيوعها وحفظها .

---

١) نفح الطيب ٤ : ١٢٢ .
٢) نفح الطيب : ٤ : ١٢٣ .
٣) نفح الطيب : ١٣٣ .

مَثَلٌ من الوافدين :

وقبل أن نعرض للتراث المشرقي في انتقاله إلى الاندلس أحب أن أقف وقفة أخرى عند شخصية هامة ذات أثر واسع مثل أثر زرياب في الأهمية ، تلك هي شخصية أبي علي البغدادي [١] . قدم أبو علي على الاندلس في خلافة الامير عبد الرحمن الناصر ، وتلقاه الحكم ولي العهد بما هو معروف عنه من قبول أهل العلم والفكر ، فاستوطن قرطبة ونشر علمه بها ، واستفاد الناس منه وعوّلوا عليه عليه ، واتخذوه حجة فيما نقله . وألف في الاندلس كتباً كثيرة أملى بعضها على حلقات المتأدبين والمتعلمين ؛ ومال اليه متعلموهم ، وعلماؤهم كالزبيدي مثلاً . فمن كتبه الأمالي والنوادر والمقصور والممدود ، وكتاب البارع الذي كاد يضم لغة العرب [٢] . وكان للقالي أثر في تعضيد المدرسة الشعرية القائمة على اتبّاع (مذهب العرب) الذي يقابل مذهب المحدثين وهذا كان شائعاً سائداً . ويظهر هذا الأثر من عرض الكتب والدواوين التي أدخلها إلى الأندلس وفي فهرسة ابن خير الأشبيلي الأندلسي تثبت بها قال « تسمية كتب الشعر وأسماء الشعراء الذي وصل بها أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي رحمه الله إلى الأندلس ، سوى ما تزايل عنه وأخذ بالقيروان منه : والكتب هي : شعر ذي الرمة ، وشعر عمرو بن قميئة ، وشعر الحطيئة ، وشعر جميل ، وشعر أبي النجم العجلي ، وشعر معن بن أوس المزني ، والمفضليات ، وشعر النابغة الذبياني ، وشعر علقمة بن عبدة التميمي ، وشعر الشماخ بن ضرار الثعلبي ، ونقائض جرير والفرزدق ، وشعر الأعشى ميمون بن قيس ، وشعر عروة بن الورد ، وشعر المثقب العبدي ، وشعر مالك بن الريب المازني ، وشعر النابغة الجعدي ، وشعر كثيّر عزة ، وشعر أوس بن حجر التميمي وشعر القطامي ، وشعر الأخطل ، وجزء من شعر عمرو بن شاس ، وشعر عدي بن زيد العبادي ، وشعر عبدة بن الطبيب ،

---

١) انظر جذوة المقتبس : ١٥٤ . ونفح الطيب ٤ : ٧٠ - ٧٠ ، وفهرسة ابن خير ٣٢٣ ، ٣٩٥ - ٤٠٠ .

٢) جذوة المقتبس : ١٥٩ .

وشعر تميم بن أبي مقبل ، وشعر الأفوه الأودي ، وشعر زهير بن أبي سلمى ، وشعر عَبيد بن الأبرص، وشعر المرقش الاكبر والاصغر ، وشعر سلامة بن جندل ، وشعر قيس بن الخطيم ، وشعر الطرماح بن حكيم الطائي ، وشعر امرىء القيس ، وشعر دريد بن الصمة ، وشعر أبي خلدة ، وخمسة أجزاء من شعر رؤبة ، وأربعة عشر جزءاً من شعر الهذليين ، وشعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، وشعر أبي نواس، وشعر جرير ، وشعر طرفة بن العبد ، وشعر طفيل الغنوي ، وجزء من شعر أبي تمام حبيب بن أوس[1]. وحمل القالي عدداً من كتب الأخبار مثل أخبار نفطويه (٢٨ جزءاً) وخمسة أجزاء من أخبار ابن الأنباري، وسبعة أجزاء عن ابن أبي الأزهر ، وثمانية وخمسون جزءاً من أخبار ابن دريد ، وجزآن من أخبار وإنشادات عن الأخفش ، والمدخل للمبرد ، والمهذب للدينوري ، وكتاب الأحباس لأبي نصر، وجزء فيه عدة من أيام العرب ومعاني الشعر للباهلي ، وكتاب البهي للفرّاء ... والضيفان لثعلب ، والعروض لابن درستويه [2] ...

كتب سائرة :

بدأت الحياة الفكرية في الاندلس في حين كانت الدولة العباسية في المشرق مستقرة ، والأمصار فيها زاخرة مزدهرة وبغداد تبدأ ألقها ونجومها . وفتح الأندلسيون عيونهم على الشعر الحديث الذي اتضحت خصائصه مع أعلام كبار من شعراء العباسيين واستقدموا ما كان شائعاً من شعر المشارقة في الوقت نفسه الذي استقدموا فيه دواوين الجاهليين والإسلاميين ، والكتب المؤلفة في أخبار العرب وأيامهم وبلادهم ، وما يتعلق بهم من خيلهم ونباتهم وأنوائهم .. ومن هنا كان هذا الازدواج في التذوق الشعري .. أو لنقل إنه (تواجد) المصدرين المتكافئين من مصادر الثقافة : القديم الذي يعتمد بخاصة على دواوين الجاهليين

---

١) فهرسة ابن خير : ٣٩٥ - ٣٩٧ .

٢) فهرسة ابن خير : ٣٩٨ - ٣٩٩ .

والإسلاميين وشعرهم ، والحديث القائم على شعر المدرسة الجديدة كشعر أبي نواس وأبي تمام ومسلم بن الوليد .

ان استقصاء كتب الآداب ودواوين الشعر بترتيب دخولها الاندلس أمر عسير ، وخصوصاً إذا اعتبرنا ضياع بعض المصادر المساعدة ؛ ولكننا نستطيع أن نقارب في ذلك لنتبين تطور مصادر الثقافة الأندلسية وحركة قدوم الكتب المشرقية ، يساعدنا في ذلك النقول المبثوثة في كتب التراجم ، وكتب الأدب العامة ، والنصوص الهامة في كتب برامج العلماء التي يروي فيها مؤلفوها ما رووه عن شيوخهم بالتلقي المباشر أو السماع أو الإجازة المباشرة أو المكتوبة أو غير ذلك من الطرق . وسواء أكانت مرتّبة على الشيوخ أو على أسماء الكتب ، فان غرضنا منها سهل التناول . ولا بد من أن نلاحظ ابتداء (مادة) الثقافة الاندلسية . والمقصود بذلك العلوم والموضوعات التي كانت شائعة في حلقات التدريس أو كانت لها أهمية كبرى في تكوين عقلية المتعلم الدارس . والمشاركة هي صفة غالبة على معظم الدارسين ، فقد كانت العلوم الإسلامية مختلطة بالعلوم العربية – المعتبرة أصلاً من علوم الآلة – وتكون دراسات الآداب الذوقية المحض رديفاً وتابعاً للدراسات الاساسية : الإسلامية والعربية [١] . ولا يهمنا هنا إلا ما يتعلق بالدراسات الأدبية بالدرجة الاولى – فهي موضوع تعلّقنا – فما هي كتبهم المعتمدة في هذا ، وكيف تطورت الكتب المختارة مع تطور الزمن ، وما هو نصيب الكتاب الاندلسي نفسه في حلقات المدرسين واعتماد المؤدبين .

تحدث ابن خلدون عن المقصود بعلم الادب ، والاسباب المؤدية اليه . وهو

---

١) قال ابن خلدون : ان أركان علوم اللسان أربعة : اللغة والنحو والبيان والأدب ، وعقب على ذلك بأن « معرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ... فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة : ٥٤٢ – ٥٤٣ . (المقدمة للعلامة ابن خلدون – الطبعة الثالثة المطبعة الأميرية ببولاق – ١٣٢٠) .

يتحدث عن المثقف العربي وشادي علم العربية بوجه عام، معللاً بذلك المواد التي كانت تدرس وفوائدها مما تعود به على الملكة الشعرية والنثرية، بمحاكمة دقيقة وأحكام استقرأها من مطالعاته، وعاد في بعض منهـا إلى تقريرات شيوخه. فالمقصود هو «الاجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم[1]» والسبيل إلى ذلك الأخذ من كلام العرب بمقدار ما يهيىء حصول الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة، ومسائل في اللغة والنحو.. مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم بها ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة. ولا بد من هـذا لفهم شعر العرب، فان الحفظ لا يتأتى إلا بعد فهم. وفسّر بَعْدُ معنى قولهم إن الادب هو الاخذ من كل علم بطرف بأنهم «يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعيـة من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث. إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب[2].»

مراحل تثقيف الدارس :

لقد سارت الدراسات العربية في معظم أقطار المسلمين مواكبة ومتلائمة مع الدراسات الإسلامية، ولا تشذ الاندلس عن ذلك، بل ربما كانت هذه الناحية أشد وضوحاً في الاندلس منها في أي بلد آخر، لظهور الناحية الدينية بعوامل مختلفة كما سبق أن بينت. ويعيننا على معرفة الكتب المعتمدة في الاندلس على تقلب الأيام، كتب برامج العلماء التي أكثر الاندلسيون من تأليفها. والبرنامج «كتاب يسجل فيه العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم، ذاكراً عنوان الكتاب واسم مؤلفه، والشيخ الذي قرأ عليه أو تحمّله عنه وسنده إلى مؤلفه الاول[3]..» واذا كنا بحاجة إلى سلسلة من كتب البرامج لا تنقطع من أول

---

١) المقدمة : ٥٥٠ . ٢) المقدمة : ٥٥٥ .

٣) كتب برامج العلماء في الأندلس مقالة الدكتور عبد العزيز الأهواني بمجلة معهـد المخطوطات – المجلد الأول – الجزء الاول والثاني : صفحة ٣ .

عهد الاندلس إلى آخره لتكون الصورة واضحة بغاية الدقة — وهذا متعذّر لفقدان الكثير من البرامج ولتأخر كتابها عن العصور الاولى — فان ما لدينا من البرامج يغني ويكفي لنا في البرامج من أسانيد الكتب المدروسة عائدة إلى ناقلها الاول عن المؤلف ، أو عن جالبهـــا من المشرق إلى الاندلس بدقة وتفصيل .

ويمكن أن نقسم حياة طالب العلم — قياساً على حياة بعض علمائها —أقساماً ثلاثة . « المرحلة الاولى : مرحلة الابتداء التي يشترك فيها الولدان جميعـاً ، فيتعلمون الخط والقراءة ، ويؤخذون بمعرفة شيء من اللغة والنحو ، وحفظ القرآن إلى غير ذلك مما كان موضوعاً لفصل في مقدمة ابن خلدون (ص ٥٣٥) والمرحلة الثانية هي : الانقطاع للعلم رغبةً في التخصص فيـــه واستعداداً لاتخاذه مهنة — وهي مرحلة طويلة — يؤخذ فيها الطالب بدراسـة كتب مقررة على شيوخ مختصين ، تقام حلقاتهم في المساجد غالباً [1] » وتكون له فيها فرصة مطالعات حرة كثيرة في مواضيع شتى من التاريخ والشعر والترسّل والاخبار . والمرحلة الثالثة يتخذ فيها مكانه من حلقة التدريس معلماً ، يأخذ فرصته في التأليف ، ومطالعة العديد من الكتب والمؤلفات .

تحدث ابن خلدون عما يدرسه الطالب المبتدىء فـيما هو المرحلة الأولى من مراحل التعليم ، وقال إن ذلك يختلف من قطر لآخر « أما أهـل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو . وهذا هو الذي يراعونه في التعليم إلا أنه لمّا كان القرآن أصل ذلك وأسّه ومنبع الدين والعـلوم جعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم الولدان روايـة الشعر في الغالب ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية وحفظهـا وتجويد الخط والكتاب . ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنـايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقــد شدا

---

١) كتب برامج العلماء : ٢٦ – ٢٧ .

بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بها ، وبرز في الخط والكتاب بأذيال العلم على الجملة [1] » .

وليس لدينا مستند معروف يحدد ما كان يدرس في هذه المرحلة بالنص ، ونتوقع أن تكون المختارات الشعرية المنتقاة من الشعر الجاهلي والإسلامي بخاصة لأنها أقدر في الإعانة على فهم القرآن ، وغريب الحديث والوصل بين المعاني فيها جملة . وأما نصوص الترسيل فبين مشرقية تمثلها نماذج من اليتيمة ومن مقامات بديع الزمان والحريري ونثر المعري وبين أندلسية لابن حزم وابن شهيد وابن برد وابن زيدون، ومن ثَمّ لأبي عبدالله بن أبي الخصال، لما اشتهر عن هؤلاء وأضرابهم من براعة وحذق وذيوع رسائل .

ما هي الأشياء المقررة في المقررة في المرحلتين الثانية والثانية والثالثة ؟ وبمعنى آخر : ما هي الكتب الأساسية التي دخلت الأندلس وكوّنت بذلك مصادر الفكر الأندلسي ؟ تسعفنا بذلك كتب برامج العلماء بالدرجة الأولى ، إضافة الى نقول كثيرة ومعلومات منشورة في كتب الأدب العامة والمختارات ، وما شاكل ذلك ، مع ملاحظة أن كتب برامج العلماء كانت في الغالب من عمل رجال الحديث أو علماء جُل همهم الرواية والحديث . فمن كتب البرامج ، فهرسة أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي المتوفى سنة ٥٤١ [2] ذكر فيه شيوخه الذين تلقى عنهم ، وفي أثناء ذلك أورد أسماء الكتب التي رواها . ونجد نصيب كتب اللغة وكتب النحو وافراً وكتب الأدب أقل وسوى ذلك نادر كالتاريخ مثلاً . فقد ذكر الكافي في النحو لابن النحاس (١١ / أ) والجمل للزجاجي (١١ / ب) والمقتضب للمبرد (١١ / ب) وكتاب سيبويه . . . عن أبي الفتوح الجرجاني (٣١ / ب) والجمع والإغفال والإيضاح

١) المقدمة : ٥٣٦ .
٢) فهرسة ابن عطية المحاربي ، مصورة - عن الأصل بالاسكوريال - بدار الكتب المصرية برقم ب ٢٦٤٩١ .

لأبي علي الفارسي (٣١/أ) وشرح الجمل لابن بابشاذ (٤٣/أ) ، ثم مشكل الحديث لابن فورك (١٢/أ) وكتاب الألفاظ وكتـاب اصلاح المنطق لابن السكيت .. عن أبي علي القالي (١٢/ب) وفصيح ثعلب .. عن الجرجاني (٣٤/ب) أمثال أبي عبيد (٢٩/أ) ومن آثار الأندلسيين : الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (٥٦/أ والدلائــل لقاسم بن ثابت (٥٥/أ) ونقـل خبر رحـلة قاسم بن ثابت ، ووالده ثابت بن حزم السرقسطي وأنهما أول من أدخل كتاب العين للخليل بن أحمد (٥٥/ب) وذكـر السيرة لابن اسحاق (٤٠/أ) ومعاني القرآن للزجاج ، ومعاني القرآن للفراء (٤٠/أ — ٤٠/ب) وفي التاريخ والتراجم : تاريخ بغداد للخطيب البغــدادي (٤٠/ب) ومن الطبقات : طبقات النحويين واللغويين للزبيـدي الأندلسي (٢٩/ب) . وفي كتب الأدب، ومجاميع الشعر : مقصورة ابن دريد.. عن أبي علي القالي (١١/أ) وحماسة أبي تمام .. عن الجرجاني (٣٥/أ) والحماسة برواية عن أبي الحسن التبريزي وهو (بغدادي) قدم الى الأندلس سنة عشرين وأربع مئة ، فروى عنه جلة من الأندلسيين (٣٩/ب) . ومن كتب الأدب العامة كتاب الأمالي لأبي علي (٢٣/أ) وكتاب الفصوص لصاعد البغدادي (٣٦/أ) وكتاب بهجـة المجالس لابن عبد البر الأندلسي (٢٣/أ) . وكثيراً ما يشير الى (ألفاظ من اللغة) أو (ابيات من الشعر) دون تعيين. وتحدث عن إجازات تلقاها من بعض شيوخه لرواية (جميع) مروياته او مؤلفاته أو مسموعاته .. ولكنه لم يثبت أسماء في ذلك ، فصغر حجم كتابه بالقيـاس الى كتب البرامج التي تدون ذلك كفهرس ابن خير الاشبيلي مثلاً .

وابن خير هو أبوبكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي (٥٠٢-٥٧٥) صاحب البرنامج المشهور [١] ، وهو برنامج واسع كبير ، ويعد « أوسع الفهارس

١) فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف الشيخ الفقيه ابن خير الأموي ، طبعة بيروت المنقولة عن طبعة سرقسطة الأولى

التي وصلتنا عن الاندلسيين من حيث ضخامتها وكثرة ما ورد فيها من اسماء الكتب [1] » . وهو لا يقتصر على ذكر الكتب التي قرأها فعلاً على شيخه أو التي قرأها شيوخه مجتمعين ، ولكنه يضيف اليه ما أجيز به من كتب ومؤلفات وهذا ضخّم الكتاب وضاعف حجمه . ولكنه على كل حال هام في تعريفنا بالكتب التي كانت تدرس والتي كانت شائعة لعصره . بدأ كتابه بذكر مروياته من الدواوين المؤلفة في علوم القرآن مثل: كتب القراءات ، والوقف والابتداء ، وناسخ القرآن ومنسوخه ، والأحكام والتفسير ، ثم أورد الحديث وما يتصل به من علوم ، ثم كتب السير والأنساب ، والفقه ، والزهد والرقائق ويصل — بعد — الى باب فيه « من كتب الأنحاء واللغات والآداب والشروحات وأشعار العرب والمحدثين ، وما يتصل بذلك من نوعه » .

فروى في كتب النحو كتاب سيبويه (٣٠٥) وكتاب المقتضب للمبرد ، والأصول في النحو لأبي بكر بن السراج (٣٠٧) (والجمل للزجاجي : ٣٠٨) والكافي في النحو والمقنع لابن النحاس ، والايضاح لأبي علي (٣٠٩) والاغفال له (٣١٠) والموجز في النحو لأبي بكر بن السراج (٣١٠) وكتاب الواضح في النحو لأبي بكر الزبيدي الأندلسي (٣١١) . وفي المرويات نِسبة حسنة من كتب الأندلسيين مؤلفة في النحو أو تشرح كتب المشارقة مثل كتب ابن السيد البطليوسي (٣١٦) وكتب أبي الحجاج الأعلم الشنتمري (٣١٤ — ٣١٥) . وكتاب المفتح في النحو لأبي الحسن بن أفلح (٣١٦) ومسائل لأبي عبدالله بن أبي العافية (٣١٦) . « ومن كتب الآداب واللغات والشروحات وما يتصل بذلك من نوعه [2] » : الكامل للمبرّد والنوادر للقالي (٣٢٣) . وذيل النوادر له (٣٢٥) والتنبيه على أوهام أبي علي ، واللآلي في شرح الأمالي للوزير الأندلسي أبي عبيد البكري (٣٢٥ — ٣٢٦) ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ والفصوص لصاعد البغدادي والعقد لابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٦)

---

١) فهرسة ابن خير : ٣٢٠ .

٢) كتب برامج العلماء : ٢٠ .

ومجالس ثعلب ، وبهجة المجالس وأنس المجالس لأبي عمر بن عبد البر الأندلسي (٣٢٧) . والألفاظ وإصلاح المنطق لابن السكيت (٣٢٩ — ٣٣٠) أدب الكتاب لابن قتيبة الدينوري (٣٣٣) فصيح ثعلب (٣٤٦) . وكتباً في الأمثال ، وكتباً في لحن العامة للزبيدي ، الأندلسي ؛ وللسجستاني ، وكتباً في اللغة ، وكتباً في العروض ، وكتب أبي زيد الأنصاري (٣٧١) .

وروى كتاب (الموفقيات في الأشعار والأخبار للزبير بن بكار (٣٧٦) وأمالي الأخفش (٣٧٦) ، ومجموعة كبيرة من كتب ابن قتيبة . ويلاحظ أن ابن قتيبة قد ناله نصيب وافر من ذيوع كتبه في الاندلس ، وأهمها كتابه في (أدب الكتاب) الذي استمر إلى عهد ابن خلدون وما بعده ، وذكر كتاب الأنواء ، وكتاب المعارف (٣٧٧) وطبقات الشعراء ومعاني الشعر والمَيْسر (٣٧٨) ، وطبقات الشعراء لابن النحاس (٣٧٩) . وروى كتاب زهر الآداب للحصري (٣٨٠) والنقائض لأبي عبيدة (٣٨٣) ؛ وكتباً لابن ولاد (٣٨٥) .

واختلط المروي من المقامات : الأندلسي بالمشرقي لولعهم بهذا الفن ومحاكاتهم إياه . فروى المقامات السبع من إنشاء الوزير الأديب أبي الحسن سلام بن عبد الله الباهلي، رواها عنه بمدينة شِلب (٣٨٦) ومقامات الحريري عن الشيخ أبي الحجاج يوسف بن علي الأسدي بدكانه بحاضرة المَرِيَّة (٣٨٧) ، والمقامات اللزومية للسرقسطي ، رواية عن المؤلف نفسه (٣٨٧) .

ومن شروح الحماسات حماسة أبي تمام بتفسير أبي الفتوح الجرجاني (٣٨٧) وشرح معاني أبيات كتاب الحماسة لأبي علي الحسن بن علي النمري ، وكتاب شرح أشعار الحماسة للأعلم الشنتمري ، وكتاب شرح أشعار الحماسة لعاصم بن أيوب البطليوسي (٣٨٨) .

وروى من الأشعار : كتاب الأشعار الستة الجاهلية شرح الأعلم الشنتمري (٣٨٨) وشرحها لأبي بكر عاصم بن أيوب (٣٨٩) وأشعار هذيل برواية

الأصمعي (٣٨٩) والمفضليات ، والاصمعيات (٣٩٠) ومجموعة من الدواوين الجاهلية والإسلامية ، وما رواه القالي ونقله إلى الاندلس — مما تقدم ذكره — .

وذكر من شعر المحدّثين : شعر أبي تمام الطائي متصلةً روايته بأبي علي القالي (٤٠٢ — ٤٠٣) وشعر أبي الطيب المتنبي متصلة روايته بابن العريف ، وكل أسانيده في روايات الدواوين تتصل بأبي القاسم بن الافليلي شارح ديوان المتنبي ، والذي أثنى عليه ابن حزم في رسالته عن فضل الاندلس . وروى شعر ابن المعتز (٤٠٤) وكتابه الآداب (٤٠٥)وشعر ابن حجاج البغدادي ، وابن سكرة الهاشمي(٤٠٩). ومن أشعار الاندلسيين يبرز ديوان أبي اسحاق بن خفاجة (٤٠٧) ومحمد بن مطرف بن شخيص ، وأبي بكر يحيى بن هذيل (٤٠٨) ، وابن دراج القسطلي (٤١٤) .

كما كان يروي ديوان الصنوبري (٤١٠) ومجموعة من آثار أبي العلاء: كتاب سقط الزند وضوؤه (٤١١) وشرح سقط الزند لابن السيد ، وترسيل أبي العلاء ولزومياته : وذكر شيئاً من ترسيل المعري مما وصل اليهم — برواية أبي بكر ابن العربي ، وهنا تلتقي رواية صاحب الفهرسة هذه مع رواية ابن عبدالغفور الكلاعي مع زيادات عند ابن عبد الغفور في كتابه « إحكام صنعة الكلام » مما سنعرض له بعد . وروى المختار من شعر أبي العتاهية وأخباره لابن العربي (٤١٤) ومن ترسيل الأندلسيين رسالة لابن أبي الخصال إلى النبي ﷺ وأخرى في الرد على ابن غرسيه (٤١٩) . وروى رسالة ابن السيد البطليوسي في الرد على ابن العربي ، وسنعرض لها مفصلاً .

وبعد ابن خير بقرن من الزمان نجد أبا الحسن علي بن محمد الرُّعيني الاشبيلي (٥٩٢ — ٦٦٦هـ) صاحب كتاب في هذه السلسلة طبع في دمشق بعنوان « برنامج شيوخ الرعيني [1] » . وسنأخذ من مروياته ما يتعلق بالأدب وما يلحق

---

١) برنامج شيوخ الرعيني - تحقيق ابراهيم شبوح - مطبوعات وزارة الثقافة السورية . دمشق : ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .

به ،وليكن ذلك أيضاً نموذجاً من أحد شيوخه ، ثم ما درسه المؤلف نفسه .
ففي ترجمة شيخه أبي العباس أحمد بن القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد اللخمي المعروف بابن أبي عزفة [١] قال إنه قرأ – على شيوخ سمّاهم – مختصر العين للزبيدي وأدب الكاتب لابن قتيبة . والجمهرة لابن دريد ، والكامل للمبرد ، ونوادر القالي ، والمقامات (الحريرية) [٢] . والنوادر ، والأشعار الستة [٣] والدلائل لقاسم بن ثابت الاندلسي [٤] .

وفي ترجمة أبي بكر محمد بن طلحة بن محمد عبد الملك بن خلف .. بن حزم الأموي [٥] قال إنه لازمه أعواماً وقرأ عليه أكثر كتب المجلس نحواً وأدباً « كالجمل ، والإيضاح والاشعار الستة ، وأدب الكتاب ، وإصلاح المنطق ، وفصيح ثعلب ، والحماسة ، والمقامات (الحريرية) والأمثال (لأبي عبيد) . وسمعت عليه كثيراً من كتاب سيبويه ، ومن الكامل وشعر حبيب ، ونوادر أبي علي ، وغير ذلك على طريقة الفقه والتعلم » . وروى بيتين بعد ذلك عن أستاذه هذا لأبي الفتح البستي ، وقد أعجب الاندلسيون زمناً بطريقته في التجنيس . ونلاحظ تمكن الكتاب الاندلسيين من كتب الرواية ومن مكتبات الدارسين ، ولكن (المقرر) منها المتلو في حلقات التعليم يقل عن كتب المشارقة ، ولئن ذاع كتاب (أندلسي الولادة) مثل الأمالي والنوادر والفصوص. فإنما هي بضاعة مشرقية صرف ، لا ينازع في ذلك أحد . وقد نقل الرعيني أنه طلب الإجازة من أبي الربيع الكلاعي فبعث بها اليه قال : « وكان يكاتبني ويبعث اليّ بتواليفه [٦]» . وأخذ إجازة أبي القاسم الملاحي صاحب تاريخ علماء إلبيرة [٧] ، ومن أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي بن مخلد الأموي وهذا تلميذ من تلاميذ أبي جعفر بن مضاء روى عنه كتباً منها : تنزيه القرآن عما لا

---

١) صفحة : ٤٢ .
٢) صفحة : ٤٤ .
٣) صفحة : ٤٥ .
٤) صفحة : ٤٤ .
٥) صفحة : ٧٩ .
٦) صفحة : ٦٧ .
٧) صفحة : ٦٤ .

يليق به من البيان (١) . ونجد رواجاً أيضاً لديوان ابن خفاجة الأندلسي (٢) . وقرأ الرعيني ديوان أبي بكر محمد ابن عبدالله اللخمي الإشبيلي على مؤلفه .

وعاصر الرُّعَيني مؤلف آخر له برنامج هو عبيد الله بن أحمد بن أبي الربيع (٣) ، ذكر فيه تلميذه ابن الشاط الأنصاري مرويات أستاذه . ويلاحظ فية قلة عدد الشيوخ وقلة الكتب ، وقلة الكتب المروية ، وهي الكتب التي كانت تدرس فعلياً في الحلقات – أو في بعض الحلقات بشكل أدق – مما حضره ابن أبي الربيع . ويَمد في كتب النحو اللغة والأدب : كتاب سيبويه ، والإيضاح للفارسي ، والجمل للزجاجي (٤٩) وإصلاح المنطق لابن السكيت ، وأدب الكاتب لابن قتيبه ، وفصيح ثعلب ، وأمثال أبي عبيد ، وكامل المبرد (٥٠) وأمالي القالي ، وأشعار الستة بترتيب الأعلم ، والحماسة بترتيبه ومقامات الحريري ، وشعر أبي تمام (٧١) وشعر المتنبي ، وسقط الزند لأبي العلاء . وتتضح هنا حقيقة الكتب المعتمدة للتدريس المباشر فإذا هي مشرقية في معظمها . وسيدخل الأندلسيون بكتب كثيرة في الحلقات ولكن على هوامش الكتب وحواشيها : في الشروح والتعليقات والتنبيهات ، كما سيمر في بحث (الشراح الأندلسيين) .

وبعد زمن يقول ابن خلدون « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (علم الأدب) وأركانه أربعة دواوين : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتَبَع لها ، وفروع عنها » . وأنسى . ذلك على كتاب الأغاني للأصفهاني (٤) .

---

١) صفحة : ٥٢ .
٢) صفحة : ٥٢ .
٣) كتب برامج العلماء في الأندلس (نص برنامج ابن ابي الربيع من ص ٣٦ – ٥٢) فصلة مجلة معهد المخطوطات – المجلد الأول – الجزآن الأول والثاني وانظر المقالة السابقة للبرنامج .
٤) مقدمة ابن خلدون : ٥٥١ .

خلاصة :

لقد أتقن الأندلسيون الشعر القديم : جاهليّه وإسلاميّه ، وعرفوا معظم الدواوين واجتلبوها وقرؤوها ووضع بعضهم عليها شروحاً وتعليقات ، وتثقفوا بكتب المشارقة في الأشعار والروايات وأخبار العرب وأيامهم وبلدانهم ، ثم مالوا الى شعر المحدَثين فتلقفوا دواوينهم كأبي نواس ، وصريع الغواني ، وأبي تمام والبحتري ، وأبي العتاهية وابن المعتز ، ثم المعري والمتنبي . وعرفوا ترسل الطبقة الأولى كابن المقفع وعبد الحميد ومن تلاهم كسهل بن هارون والجاحظ وانخرطوا في السجع والتعقيد مع الصاحب والصابي والبديع ، ثم الحريري والمعري .

كان لا بد للأندلس من أن تكون على صلة مستمرة بالمشرق ، ولم ينقطع الوافدون إليها والراحلون عنها ، وظل المشرق دائماً مطلب الأندلسيين ومحط تقليدهم . وتنكروا في البداية لعلمائهم وأدبائهم وشعرائهم ، ثم وجدوا فيهم من يناهض شعراء المشرق وكتابه وأعلامه ، وعرفوا قيمة النزعة الخفاجية في الشعر ، وحفظوا بعض رسائل مترسليهم ، فكانوا بين الانكباب على كتب الأندلسيين ، والإلتفات الى تراث المشارقة ، ولكنهم كانوا إلى المشرق أميل وبه أحفل .

الباب الأول

الشُّرّاح الأندلسيون

الشروح التعليمية العامة

الشروح الذوقية الجمالية

الشروح الخاصة

الشروح الأدبية الجامعة

في المغرب والمشرق على حد سواء نشطت منذ عهد مبكر حركة أدبيــة متصلة الحلقات، عُنيت بشرح الكتب المختلفة في فنون متنوعة، ومن أهمّها الشروح على كتاب الله العظيم، وأحـــاديث الرسول (ص)، وخطب الصحابة. وتَتَبع جمعُ الشعر العربي جاهليّه — بخاصة — وإسلاميه خطة شرح واسعة النطــاق في المشرق. وانتقلت المتون الشعريــة، وبعض الشروح الى الأندلس، فكان من الشروح مثالٌ يُحتذى، وكان من المتون مادة يَستقطب الطلبة من أجلها حول شيوخ وعلماء، أو ينفرد بها بعضهم، ليكون منها فيما بعد شروح أندلسية هامة.

ونقصد هنا بهذا الفصل أن ندرس حركة شرح الأندلسيين للشعر المشرقي — وبعض النثر كشرح المقامات — باعتبار ذلك ممّا يدخل على وجه من الوجوه في موضوعنا، لأنه يفيد في تبين معالم الذوق النقدي الأندلسي، ويكشف عن بعض اتجاهات الدارسين هناك واهتماماتهم الأدبية واللغوية، ويعرض بين الفينة والفينة إلى قضايا تمس موضوع النقــد مسّاً مبــاشراً، وهي — إلى ذلك — تكشف عن بعض مقاييس نقدية وبلاغية شاعت في فترة من الفترات لم تترك لنا كتب الأدب العامــة، ولا ما تَبَقّى من كتب النقد، عنهــا شيئاً واضحاً بارزاً.

ومما يلفت النظر أن الأندلسيين اهتموا كثيراً بكتب الشروح، ويظهر أن كلّ شيخ (مدرس) كان يعنّي نفسه بشرح ما يقرره على طلبته غير مكتف بما يصنعه غيره من الشراح، اللهم إلا إذا كان من الشروح الذائعة لشارح كبير.

ولم يقتصر الأمر على شرح الشعر المشرقي ، بل تعداه الى كتب النحو واللغة والأدب . وتركز الاهتمام على بعض الكتب تركيزاً شديداً [1] ، فكتاب الجمل للزجاجي – وهو في النّحو – لقي عناية فائقة ووضعت عليه عشرات الشروح والتنبيهات ، وتطرق بعضها إلى شرح شواهده – على طريقتهم في كتب شرح الشواهد – وكتاب الحماسة من اختيار أبي تمام الطائي ، شرحه أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني نزيل الأندلس ، وأبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي ، وأبو الحجاج الأعلم الشنتمري وغيرهم [2] ، ولقيت مقامات الحريري عناية فائقة استمرت زماناً طويلاً كما سنفصل في موضعه .

وأدرك الأندلسيون أهمية شروح بعض علمائهم فتناولوها بالرواية والدرس ، وتناقلوها كما تناقلوا أحسن الآثار المشرقية ، بل إن حماسة الأعلم الشنتمري غطّت على حماسة أبي تمام زمناً [3] ، وفي كتاب إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج إشارة واضحة الى هذا ، قال « . ولما كانت حماسة أبي تمام – الموضوعُ كتابا أبي الفتح هذان على ترتيبها – مجفوّة القدر في عصرنا ومطّرحة الاستعمال عند أبناء دهرنا حين أخنَت هذه الحماسة الأعلمية عليها باستمالة النفوس اليها [4] . . »

---

١) مثل شرح أبيات الجمل لمحمد بن هشام اللخمي (التكملة ١ : ٦٧٥) وشرح الجمل لاسحاق بن الحسين (التكملة ١ : ١٩٢) وكتاب وشي الحلل لاحمد بن يوسف اللبلي النحوي (النفح ٢ : ٤٠٧) وشرح الجمل لابن خروف الأديب (النفح ٣ : ٣٩٠) وشرح الجمل لعبد الله بن محمد العبدري (المغرب ١ : ١١٢) وشرح الجمل لمحمد بن ميمون (رايات المبرزين : ٤٦) ، وشرح الجمل لأبي بكر بن طلحة بن حزم الأموي (برنامج الرعيني : ٨) . . الخ

٢) فهرسة ابن خير : ٣٨٨ . والتكملة ١ : ١٢٨ .

٣) سنعرض لهذا ثانية في ترجمة الاعلم حين درس شرحه على الشعراء الستة .

٤) مخطوط ايضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج لأبي الفتح بن جني مما عني بجمعه الشيخ الفقيه الاستاذ النحوي اللغوي أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن منذر بن ملكون الحضرمي – مصور بالجامعة العربية (٢٤ لغة) .

وعُرفت مجموعة من الشرّاح الأندلسيين بالضبط في النقل، والدقة في الجمع، والتثبت في الرواية، والعناية في الشرح، وحفظوا لنا مجموعات شعرية ودواوين مفردة أحياناً. ومن هنا جاءت أهمية الشارح الأندلسي في تاريخ الأدب العربي. وفي هذا يقول محقق ديوان مسلم بن الوليد الذي شرحه الطبيخي الأندلسي: «وهو – الشارح الطبيخي – في هذا الشرح لا يقل عن علماء المغاربة في شرح الدواوين القديمة، ويستوي في ذلك مع مواطنيه (الأندلسيين) كالبطليوسي والشنتمري ممن أسدوا يداً كبيرة إلى العربية في الرواية والجمع والشرح [1]». وقد أتاحت ظروف الأندلس وتقلّب عدد من الأمراء من محبي العلم والأدب فرصة دخول علماء كبار من المشارقة نقلوا معهم أحاسن تراث المشرق وأعلاه رتبة في الثقة والضبط والرواية، وأحله الدارسون محله من التكريم والحفظ وعادوا عليه بالشرح والتعليق والملاحظة والتنبيه: استوى في ذلك الشعر والنثر، والشعر القديم والشعر المحدث. فهناك شروح على الكامل المبرد، وأمالي القالي، وأدب الكتاب وشرح على الشعراء الجاهليين وبخاصة (الشعراء الستة) وعلى مقصورة ابن دريـــد، وشعر حبيب وشعر المتنبي. فكانت الشروح شاملة لكثير من نواحي الثقافة والفكر ومتتبعة للنواحي الأدبية بشكل خاص.

وأثّرت هذه الشروح في تكوين جانب واضح من جوانب فكر الدارس آنذاك. فقد كان حفظ الأشعار العربية وعلم معانيها ومعرفة ما فيهـا من خبر ولغة وأغراض بلاغية وميزات فنية جزءاً هاماً يقرر على الطلبـة في حلقات الدرس، ويأخذ الدارس به نفسه من حفظ وفهم ودراية. وكان للاغراق في الاهتمام بالشعر القديم، واستطاب الدراسات والشروح حوله لدى بعضهم أثر في استمرار وجود (مذهب العرب) في الشعر، وهو يقابل (مذهب المحدثين) الذي مال اليه أكثر شعراء الأندلس وهو ما سنفصله في الفصل التالي.

---

٢) ديوان صريع الغواني: مسلم بن الوليد ـ تحقيق الدكتور سامي الدهان ـ دار المعارف بمصر ـ مقدمة المحقق صفحة (م ٦٥).

وباستطلاع كتب التراجم الأندلسية نلاحظ كثرة واضحة في كتب الشروح من أوائل عهد التأليف المعروف لدينا الى أواخر أيامهم في غرناطـة ؛ فإذا لاحظنا قلة تراث الأندلسيين في الدراسات البلاغية والنقدية، وبخاصة من الوجهة النظرية ، أمكننا تفسير هذه الكثرة ؛ فكأنهم انصرفوا إلى الشروح مكتفين بتذوقهم هذا واستخلاص القيم الجمالية من النصوص نفسها . وكأنهم أيضاً مالوا إلى سَوق الذوق والتـذوق إلى الدارس عملياً ومن خلال الجمـل والفقرات والأبيات . ونحن لانعدم ملاحظات بلاغية ونقدية أغلبها تطبيقي ؛ كما أننا نلاحظ استفادة بعض الشراح من كتب النقد والبلاغة المشرقية بإشارةٍ حيناً وبإغفال ذلك أحياناً كثيرة . وليس من الضروري أن يكون هذا سبباً وحيداً لتفسير قلة الكتب النقدية والبلاغية ، ولكنـه سبب قد يعلل كثرة كتب الشروح ، التي تدلنا كتب التراجم وكتب برامج العلماء على أنها كانت عمليـة ومتداولة وشائعة .

وقد أفاد الأندلسيون من الشراح المشارقة ، ونَصّ أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي على أن شرحه على (الأشعار الستة) إنما هو جماع مما سجله العلماء والثقات قبله ممن يعتد برأيهم في اللغة والنحو الأخبـار . فقـد عرفوا شروح الأصمعي وأبي حاتم السجستاني وابن قتيبة وابن جني وأبي علي البغدادي (القالي) والمعري والتبريزي وسواهم ممن كان لهم باع في بسط معاني الشعر ، والغـَوص على غوامضه ، وتبيان أخباره وإشاراته . فتكونت لهم ثقافـة جيدة ، وتابعوا تطور الثقافة والأدب في المشرق وضموا القرين إلى قرينه بين متقدم ومتأخر ، فبلغوا بذلك شأواً يستحق الوقوف عنده .

ومقصودنا هو تتبع حركة الشرح ، وتبين المسالك التي انتهجهـا الشارحون ، واتجاهاتهم ، ومناحي شروحهم ، ولا شك في أن عملية عرض كافة الشروح الأدبية الأندلسية عمل طويل لا يمكن أن تكون هذه الرسالة مجاله ، فهذا لاحق بدرس مفصل خالص في إطار عمل يؤرخ للأدب الأندلسي بعامة . ولكنني سأستعرض عدداً من الشراح في عدد من شروحهم ، اخترتهم

من عصور مختلفة ممتدة على مدى الفترة الفعالة أدبياً وتأليفياً ، وتوخّيت أن تمثل المختارات ما توسمت أنه يشمل كافة الاتجاهات التي ظهرت في هذا الفن . وسيكون الحكم غالباً راجحاً ، ولا يمكن أن يكون قاطعاً باتاً ، بسبب طبيعة ما نريد من مجرد العرض والدرس ، وبسبب ما نلتزم من عرض لمجموعة خاصة من تلك الكتب ، وفئة معدودة من الشراح .

فمن الشراح ، أبو العباس وليد بن عيسى الشهير بالطبيخي ، بقي لنا من آثاره شرحه على ديوان مسلم بن الوليد ، وأبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا الزهري وله شرح على ديوان المتنبي ، وأبو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيده وله شرح على ما أشكل من شعر المتنبي ، وأبو الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم الشنتمري صاحب شرح الشعراء الستة وأبو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز البكري صاحب اللآلي ، وكتب الشروح والتنبيهات . وأبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي وله شرح على الأشعار الستة أيضاً ، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي صاحب شرح سقط الزند للمعري ، وغيره من المؤلفات الهامة ، وأبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي الشريشي وله شروح على مقامات الحريري ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي الأندلسي صاحب شرح مقصورة ابن دريد ، وأبو القاسم عبد الملك بن عبد الله ابن بدرون صاحب البسامة (قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس) ، وأبو القاسم محمد بن أحمد المعروف بالشريف الغرناطي وله : رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (وهي شرح على مقصورة أبي الحسن حازم القرطاجني الأندلسي) . وكان أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني وافد الأندلس نموذجاً مشرقياً أندلسياً مبكراً في كتابه الذي شرح فيه حماسة أبي تمام باختصار .

وبعض هؤلاء المؤلفين والشراح ترك عدداً من الكتب ، لم ألتزم دراستها كلها واكتفيت بنص واحد يمثل طريقة المؤلف ومنهجه ومصادره وقيمة كتابه ، ومنزلته بين الكتب الأخرى المماثلة . وكان عليّ أن أعود إلى المخطوط من

هذه الكتب والمطبوع . وكان في هذا بعض المشقة المتوقعة ، كما أن بعض المخطوطات لم تصل إليّ بعد طلب وإلحاح ، وسيتكرر هذا في فصول أخرى من هذا البحث ، إذ سنجتزىء فيما بين أيدينا مما حصلنا عليه ، وأرجو أن يكون فيه الكفاية .

أنواعها :

إذا عدنا الى الكتب التي أردنا دراستها ، استوقفنا قليلاً موضوع تقسيمها إلى فئات لتسهيل البحث من جهة ، ولتبيّن طرائق عامة تميز بعض الشروح عن بعض ، فتقرب بعضها من بعض ، وتجعل قسماً أو أقساماً مختلفةً متباينة . ومهما كان نوع التقسيم الذي سأنتهي اليه ، فإنه تقسيم يأخذ بالصفة الغالبة المميزة ، لأن الشرح القاصر على وجه أدبي أو فني قصوراً تاماً نادر ، كما سنتبين فيما بعد . ويظهر لنا لأول نظرة أن كتب الشروح في قسمين اثنين بوجه عام : قسم تعليمي يقصد به — بحسب تأليفه واختصاره وشموله العام — إعطاء الشداة وطلبة العلم مادة جيدة طيبة في رواية الشعر — خاصة — وشرحه وتبيان ما فيه من خبر وإشارة ، والتعليق على لفظة لغوية أو اصطلاح بلاغي . والغالب في هذه الشروح عموماً الاختصار ، وتبدأ عادة بشرح الألفاظ شرحاً لغوياً ، ثم بسط المعنى المقصود من البيت أو الفقرة والإشارة أحياناً الى إعراب كلمة يترتب على توجيهها معنى أو معان ، أو تكون أثارت خلافاً قديماً ، أو حديثاً لدى الشارح نفسه ؛ وقد يتعرّض لاصطلاح عروضي إن كان في البيت شذوذ أو خلاف ، وقد يفيد من بعض الاصطلاحات البلاغية . والشروح هذه تختلف فيما بينها بحسب ثقافة المؤلف وظروف تأليف كتابه ، ومستوى من يكتب لهم كتابَه أو مؤلَّفه وسنبيّن هذه الفروق في التحليل المنفرد لكل واحد من هذه الكتب . ويمثل هذا القسم في المجموعة التي أدرسها : شرح ديوان مسلم بن الوليد للطبيخي ، وشرح ديوان المتنبي لابن الإفليلي ، شرح الأشعار الستة للأعلم الشنتمري ، وشرح الأشعار الستة للبطليوسي ، وشرح مقصورة ابن دريد لابن هشام اللخمي .

والقسم الثاني يختلف عن القسم الأول بأنه قد يكون من الشروح المطولة حتى يكاد يلحق بكتب الأدب وتاريخه لاتساعه ، وقد يكون شرحه خاصاً بموضوع بعينه لا يعدوه ، أو يكون قائماً على أساس تذوقي جمالي ؛ فيه — إلى الشرح التدريسي التعليمي — خصائص نِتاج العالم الأديب من تعمق على المعاني ، واستنباط آراء شخصية ، والوقوف موقفاً جديداً . فمن الطراز الأول القائم على التوسع ، شرح مقامات الحريري للشريشي ، ونعني (النسخة البسيطة) ومن الطراز الثاني شرح البسّامة وهو كامة الزّهر وصدفة الدُّررَ صنعه ابن بدرون على قصيدة ابن عبدون . وهو شرح تاريخي خالص لا مدخل فيه لشيء آخر . ومن الطراز الثالث شرح سقط الزند لابن السيد البطليوسي وشرح المشكل من شعر المتنبي لابن سيدة .

وهذا التقسيم كما أسلفت اعتباريّ ، أنظر فيه الى الأمر الغالب والناحية الظاهرة ، ولا أزعم أن كتاباً من هذه الكتب لا يشارك الفئات الأخرى بعض المشاركة ، ولكن هذا أقرب الى طبيعة تلك الشروح ، وأدنى متناولاً من حيث الدرس والمعالجة . وعلى هذا فإن هذا الفصل سيكون في أقسام أربعة :

١ — الشروح التعليمية العامة .
٢ — الشروح الذوقية الجمالية .
٣ — الشروح الخاصة (ابن بدرون) .
٤ — الشروح الأدبية الجامعة اللاحقة بكتب تاريخ الأدب .

الشروح التعليمية العامة

ذكرت في الحديث عن الثقافة الأندلسية مدى اهتمامهم بالآثار المشرقية ، وكان من مكمّلات الثقافة دراسة مختارات من الشعر الجاهلي والإسلامي وهو ما يعبرون عنه باسم الشعر القديم ، ومختارات من الشعر المحدث الذي يشمل طبقة مسلم وبشار وأبي نواس ومَن بعدهم . وإذا كانت شروح شعر المحدثين داخلة في التعمق الأدبي ، فإن شروح الشعر القديم أولى وأشد ضرورة . ومن هنا تصدت جماعات لاختيار مجموعات من دواوين الجاهليين وشرحها والتعليق عليها ومعظم ذلك بقصد إلقائه في أيدي الطلبة وبين يدي الدارسين . ولعل ذلك اتصل — كما ألمحت قبل — بكثير ممن لا يصلح أن يتصدوا للخوض في الشعر الجاهلي — وربما ما تلاه — بآرائهم الشخصية على حين نزرت معلوماتهم العامة عن حياة العرب وطرائق معايشهم ومقاصد شعرهم بعامة ، وقلّت معلوماتهم في اللغة وعلوم العربية . ولدينا كتاب ، يشير الى هذه الناحية ، بل هو يقوم أساساً للرد على أوهام مدرّس ٍ تَشرّحَ« بعض أشعار شعراء الجاهلية » وهو كتاب (التنبيه على المغالطة والتمويه وإقامة المثال عن طريق الإعتدال بالبرهان الكافي والبيان الشافي) [1] لمؤلف مجهول كنيته ابو حاتم ، يرجح ان يكون من أعلام القرن الخامس [2] ،

---

١) مخطوط في الاسكوريال برقم ٢٩٦ ، مصور .

٢) أبو المطرف بن عميرة المخزومي - محمد بن شريفة - منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس - الرباط (١٤٨٥ هـ - ١٩٦٦ م) - صفحة ٢٧٦ .

وهو يرد على معلمٍ كنيته أبو المطرف ويفنّد أخطاءه وأوهامه . وقال فيه .. « .. وقُرئت عليّ كتب فيها بعض أشعار شعراء الجاهلية قد جُردت من شرح المتقدمين أعني العلماء باللغة ، وعلى كل غريب وحشي شرحٌ بلفظه العامي مثل أن يشرح جزّعنا بتخلفنا وحَثّ بكد ، فتأملت ذلك كله فرأيته قد أخطأ في كثير من تفسير المواضع التي أغفلها العلماء لاشتهارها واستعمال الناس المنطق بأكثرها [1] » . والمؤلف يشير أحياناً إلى بعض المعلمين في معرض تخطئتهم في بعض معاني شروحهم [2] ، وقد قال في موضع آخر : « فالمتسوّرون في الصناعة كثير — أعني صناعة التفسير — فمنهم مؤدبون للأطفال في المكاتب ، ومنهم مؤدبون بالعربية ضعفاء في الأدب ، يؤدبون في البوادي قد خلا لهم الجو هنالك. ومنهم ورّاقون لا علم عندهم يزيدون في التفسير من تلقاء أنفسهم وينسبون ذلك إلى الأسانيد والعلماء ، يريدون بذلك استجزال الثمن في ذلك الكتاب ، ومنهم شداة شيء من اللغة إذا أرادوا كلمة تشبه كلمة أخرى ظنوا أنها منها فوضعوها مكانها [3] » . وهذا نص هام لأن كتب التراجم وكتب البرامج لا تُعنى عادة إلا بالمعروف من الأعلام والمألوف من الكتب ، وضياع الكثير من التراث الأندلسي حجب عنا أموراً كثيرة ، ونستخلص منه إقبال الناس على شراء كتب الشروح واهتمامهم بذلك الى درجة سوّلت للوراقين التزيد في رقاقهم لإغراء المشتري إيهاماً وتدليساً. ويمكن أن نَرُدّ كثرة كتب الشروح التي تذكرها كتب التراجم لعدد ضخم من المؤلفين إلى استمرار الثقافة الأندلسية على رأي صالح في الشعر القديم ، وإعجابٍ متواتر بما يجدُّ في المشرق من شعرٍ وفنونِ نثر ، وسنفصل فيما التزمنا الحديث عنه إن شاء الله .

---

١) التنبيه صفحة ٣ .

٢) التنبيه صفحة ٥ .

٣) التنبيه صفحة : ١٤٥ .

شرح ديوان صريع الغواني

للطبيخي

(... — ٣٥٢)

هو أبو العباس وليد بن عيسى بن حارث بن سالم بن موسى ، من ولد رشيد مولى الوليد بن عبد الملك ، يعرف بالطبيخي . ترجم له الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين [١] ترجمة قصيرة ، ولكنها غنية وهامة ، لأنها صادرة عن مؤلف ثقة في بابه ، معاصر لصاحب الترجمة [٢] . وذكره أيضاً ابن الفرضي في كتابه تاريخ العلماء والرواة [٣] . ولا تكاد تزيدنا ترجمته هذه شيئاً كثيراً عما في الطبقات . قال الزبيدي « وكان ذا علم باللغة والشعر ، وكان له حظ من علم العربية ، وكان بصيراً بمعاني الشعر ، حسن التلقين لمن تبلَّد فهمُه عنها . وكان يقرّبها ويضرب الأمثال فيها حتى عُرف بذلك ، وتنافسه الملوك فلم يؤدب إلا عند الجلة » . وفي هذه الجمل القليلة أوصاف دقيقة وأخبار عن الطبيخي واضحة . فقد عرف أنه عالم باللغة وعالم بالشعر . وأن مهنته كانت التعليم ، وأنه تميز بطريقة حُمدت له في تعليم الطلبة وتقريب معاني الشعر إلى أذهانهم ، وأنه زاد على ذلك في قدرته على تفهيم الطلبة ذوي الذهن المتبلد . وكل هذه خصائص رَغّبته إلى ذوي الجاه والسلطان . فأدب أولادهم ، واستغنى بتعليم أبناء السَراة عمن سواهم . ونقل الزبيدي عنه أنه كان « خيّراً ديّناً [٤] » .

---

١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم – ط الخانجي بمصر – صفحة : ٣٢٦ .

٢) توفي الزبيدي سنة ٣٧٩ .

٣) تاريخ علماء الأندلس – ابن الفرضي – ط الدار القومية ١٩٦٦ – القسم الثاني . صفحة ١٦٢ – ١٦٣ .

٤) الطبقات : ٣٢٩ .

وذكر ابن الفرضي أنه كان « رجلا طاهراً [1] ». ولعل هذه الصفات الشخصية من خلق عال ودين قويم ، مما زاد في شهرته وفي تقريبه إلى بيوت ذوي الجاه والسلطان .

أخباره :

لا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن دقائق ثقافة الطبيخي ، ولا عن شيوخه أو تلامذته ، وقد نقل الزبيدي في ترجمة أبي عبدالله الغابي [2] ، أن الطبيخي أخذ عنه . وجاء في ترجمته أنه « كان من أحفظ الناس لأخبار أهل الأندلس وأشعار شعرائهم وأنه كان ذا فهم بارع وخلق نبيل » ثم قال : « وكان يُقرأ عليه شعر حبيب ، وعنه أخذ أبو العباس الطبيخي ». [3] . وقال ابن الفرضي في ترجمته إنه نقل بعض خبر الطبيخي عن عبد الرحمن بن سعد [4] ، ولم يفصح عن هذا الرجل بشيء . وفيما سوى ذلك لا نجد له أخباراً أخرى . ونستطيع أن نتوقع أنه درس ثقافة عصره على شيوخ ذوي عناية مثل شيخه السالف ، ولعله أفاد من قدوم أبي علي البغدادي إلى الأندلس ، وأخذ عنه بعض ما حمله من شعر ورواية .

أما مؤلفاته فقد ذكر الزبيدي أن له « شروحاً في شعر حبيب وصريع[5]» وصفها بأنها « قريبة مبسوطة [6] » وقال ابن الفرضي « شرح شعر أبي تمام الطائي ، وشعر مسلم بن الوليد ، فأخذ عنه الناس هذه المشروحات ، وكان مؤدباً بعيد الاسم في التأديب [7] » ؛ ولا نقع على ذكر غير هذين الكتابين .

---

١) تاريخ علماء الأندلس ٢ : ١٦٢ .
٢) الطبقات : ٣١٥ .
٣) طبقات الزبيدي : ٣١٥ .
٤) ابن الفرضي : ٢ : ٢٦٢ .
٥) طبقات الزبيدي : ٣٢٩ .
٦) ابن الفرضي : ٢ : ١٦٢ .
٧) في التكملة ١ : ٤١٧ في ترجمة محمد بن رزق الله بن مطرف ، وهو ممن رووا عن أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي ، أن له «في شعر حبيب بن أوس للطبيخي اختصاراً أفاد به ، وأضاف اليه من غيره ما دل على مكانه من النباهة » . والإشارة إلى شرح الطبيخي على ديوان أبي تمام . انظر التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ــ طبعة عزة العطار ــ نشر الخانجي ــ مصر .

ولعله انشغل بالتدريس والتعليم الذي كان يدر عليه ربحاً وفيراً ، وأكبَّ على شاعرين يفضلهما ويتذوق شعرهما ، بالشرح والتحليل ، بما يلائم غرضه من التعليم أيضاً .

ديوان مسلم : في سنة ١٨٧٥ نشر المستشرق الهولندي ميخائيل ده خويه ديوان مسلم بن الوليد بشرح أبي العباس الطبيخي لأول مرة عن « نسخة مغربية سافرت معه إلى خزانة ليدن من أعمال هولندة [١] » ، وطُبع بعد ذلك عدة مرات ، إلى أن حققه الدكتور سامي الدهان تحقيقاً علمياً ونشره في دار المعارف بمصر ؛ وقدم له بدراسة وافية [٢] » . ومخطوطة الديوان — وهي فريدة — لا تضم كل شعر مسلم ، ولا ما شرحه منه الطبيخي ، بفعل عوادي الزمن التي أتت على بعض أوراق النسخة ، « فهذه المخطوطة في أغلب الظن تحوي مختارات من شعر مسلم بن الوليد ، وتروي عيون شعره [٣] » . وأثنى المحقق على عمل الشارح في كتابه وألحقه بالمشهورين من الأندلسيين من الشراح الكبار كابن أيوب البطليوسي والأعلم الشنتمري [٤] .

والموجود من الديوان كما حقق ذلك الدكتور الدهان قسمان من ثلاثة ، هما الثاني والثالث ، ويقع هذا من طبعتة ما بين صفحة ١ و ٢٩٨ . ويضم ٧٥ خمساً وسبعين قصيدة ومقطوعة. ويلاحظ أن القسم الضائع أخفى مصدر رواية الطبيخي : أهي عن القالي أم عن غيره ؟. والموجود من شعر مسلم في شرح الطبيخي نحو ١٨٠٠ بيت ، في حين ان القرائن تدل على ان نسخة الطبيخي لو كانت كاملة لما زاد ما فيها عن نصف شعر مسلم الأصلي [٥] ولا نزيد في تفصيل أمر الديوان عن هذا ، وهو متوفر بين أيدي الدارسين .

---

١) صفحة م ٥٤ من ديوان مسلم .
٢) شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨هـ — عني بتحقيقه والتعليق عليه الدكتور سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق — نشر دار المعارف بمصر — ١٣٧٦ — ١٩٥٧ . وهي الطبعة المعتمدة لدينا في الهوامش كافة .
٣) صفحة م ٦١ . ٤) صفحة م ٦٥ . ٥) صفحة م ٦٠.

شرح الطبيخي : ذكرت أن الشارح لم يبيِّن لنا مصدر روايته ، لفقدان القسم الأول من الديوان على ما يظهر ، ولكننا نلاحظ أنه يشير في بعض المواضع إلى روايات أخرى ينبه عليها . ففي القصيدة الأولى أورد البيت الرابع والستين ، وهو :

وقمتَ بالدين يوم الرسّ فاعتدلت   منه قوائمُ قد أوفت على مَيَل

وقال فيه : ويروى : منه دعائم قد أوفت على زلل ، ويروى وقمت بالملك[1] ». ويذكر الروايتين ويرجح في شرحه إحداهما ، وأورد البيت الثاني من القصيدة السادسة وهو :

لله واشٍ رعى زوراً ألمّ بنا   لو كان يمنعنا في النوم أحلامَا

ثم علق في ذيل الشرح بقوله « والرواية بلو أحسن من الرواية « بإن كان[2] » . وقد يردُّ الرواية نهائياً[3] ، كما سنفصل بعدُ .

وهو لا يقدم للقصائد بمقدمات طويلة، وحسبه في ذلك ذكر غرض القصيدة العام ، أو فيمن قيلت إن كانت مدحاً أو هجاء أو ما شابه ذلك . ويبدأ الموجود من شرحه بقصيدة قال فيها ، مفتتحاً القسم الثاني : « قال صريع الغواني — واسمه مسلم بن الوليد الأنصاري — يمدح يزيد بن مزيد الشيباني[4] » . وفي القصيدة الثانية « وقال أيضاً يمدح سهلا[5] » . وفي الثالثة « وقال أيضاً يتغزل ويصف الخمر[6] » ، وهكذا .

وفي شرحه ما يدل على أنه اطلع على عدد من كتب الأدب المشرقية ، وكتب اللغة . فهو ينقل عن أبي عمرو بن العلاء[7] ، والخليل بن أحمد[8] وأبي العباس المبرد[9] . وينقل عن ابن قتيبة سبب تسميته صريع الغواني[10] ،

١) صفحة : ٢٠ .
٢) صفحة : ٦١ .
٣) صفحة : ٥١ .
٤) صفحة : ١ .
٥) صفحة : ٢٤ .
٦) صفحة : ٣٣ .
٧) صفحة : ٣٨ .
٨) صفحة : ٥٠ .
٩) صفحة : ٣ ، ٩١ .
١٠) صفحة : ٤٣ .

ورواية أخرى لبيت من الشعر ، توجّه معناه بتغير روايتــه [1] . وهو يبرهن على اطلاعه الواسع باحتجاجه بالقرآن الكريم ، وأمثـال العرب ، ومناقشاته للروايات ، وتقليبه المعاني على وجوههـا المحتملة . ولكن خروج الشارح عن شرح الألفاظ وتبيان المعـــاني إلى ما سوى ذلـك كان قليلاً ، يكتفي منه باللمحـة والإشارة والاختصار . فمن ذلـك إشارته الى انتصار صريع الغواني للطرمـاح – بعد موته بزمان – ويعلل ذلك بجامـــع أنهما من طيء قال صريع :

أحمي أبا نَـفَـرٍ عظام حَفيرة   دَرست وباقي عزها لم يَدْرُسِ

وقال في الشرح « .. وأبو نفر هو الطـِّرمـّاح الشاعر ، وكان يهجو قوم الفرزدق ، وقد قال :

تميمٌ بطرق اللؤم أهدى من القـَطا   ولو سلكت سبل المكارم ضلـّت

وكان شاعرٌ عارض شعر الطرماح بعد موته ، ونقض عليه في أيام (صريع) فاحتمى عنه صريع لطيىء إذ هي من اليمن فردٌ على الطرماح ، فأراد أن يشكر طيئاً على ذلك [2] » .

ولا يخلو شرحه من إشارات تاريخية لا بد منها كحديثــه عن الوليد بن طريف الشاري [3] لأن الممدوح حاربه وقتله ، ومن أمثلة إشاراته التاريخيـة السريعة هذه ، ما جاء في مطلع القصيدة العاشرة من ديوان صريع [4] وفيها : « وقال يمدح يزيد بن مزيد الشيباني :

لولا سيوفُ « أبي الزبـير » وخيله   نشرَ « الوليدُ » بسيفه الضحّاكا

يقول : لولا سيوف أبي الزبير ، نشر الوليـد أي ابن طريف الخـــارجي الضحاك الخارجي ، أي قام مقامه في الشر . وقال : أحيى فلان أيام جده في

١) صفحة : ٣٥ .
٢) الديوان : ١٣٨ .
٣) انظر مثلاً صفحة ٦٧ .
٤) الديوان صفحة ٩٧ .

الشرف إذا قام في الشرف مقامه. والضحاك هذا خارجي قتله مروان بن محمد. والوليد بن طريف خارجي خرج على هرون الرشيد، فأخرج إليه يزيد فقتله. وكان يزيد بن مزيد له كنيتـــان. كان يكنى في الحرب أبا الزبير، وفي غير الحرب أبا خالد». فهو أجمَل في هذه السطور شرح معنى البيت وبعض لفظه، وعرّف بإيجاز شديد بالأعلام الواردة فيه، ومناسبة ذكرها في مطلع القصيدة، وربط ذلك بالمعنى العام.

ويتضح لنا من النتف المبعثرة من الإشارات أنه كان على ثقافة واسعة، اختصر منها الكثير جهدَه، وأضرب عن كثير، مكتفياً بما يوضح المعنى، ولعله أراد ألا يصرف قارئه – أو تلميذه – عن المعنى، بالدرجة الأولى. قال صريع من أبيات تعرّض فيها لوصف جارية تضرب بعودها:

تُضاحكه طوراً وتُبكيه تارة خَدلَّجة هيفاء ذاتُ شَوى عبل

«يقول: تضحك العود مرة وتبكيه تارة. بإضحاكها له أنها تلح على الزير والمثنى. فكان العود يضحك عند ذلك، وتلح على المثلث، والبم، فكان العود يبكي عند ذلك لأن البم غليظ الصوت، وهو إذا قرن بالزير كمثل النجاة مع القلمية، والخدلجة الحسنة الخلق[1]».

وإذا عدنا الى الزبيدي في ترجمته وجدنا قوله «وكان يقرّبها (معاني الشعر) ويضرب الأمثال فيها». وسنكتفي هنا بمثالين، سنفيد منهما من جانب آخر. فهو يشير إلى إعراب كلمة أو جملة حين يرى ضرورة ذلك لإيضاح المعنى لا تفضلاً أو تزيُّداً»، قال صريع[2]:

أما كفى البين أن أُرمى بأسهُمِه حتى رماني بلحظ الأعين النُّجُل
مما جنى لي وإن كانت مُنى صدقت صبابةً خُلَّس التسليم بالمُقَل

يقول: «مما جنى لي صبابةً خلس التسليم بالمقل» كأنه قال: خلس التسليم

---

١) الديوان صفحة: ٤٠ – ٤١.
٢) الديوان صفحة: ٣.

بالمقل مما جنى لي صبابة . أي من الأمر الذي جنى لي صبـابة . و « خلس » رفع بالابتداء . و « مما جنى لي صبابة » خبر الابتـداء . ونصب صبابة بجني ، وفي « جنى » ضمير ما مرفوع بفعله . وفعله جنى . ومثله « من الذين جنوا لى صبابة زيد » . وقال قوم : إن صبابة مفعول لخلس التسليم ، وان خلس التسليم رفع بجنى . وإنمّا دخل عليه في ذلك الغلط من طريق قولك : « من الدار جنى لي صبابة زيد » . فقولـك من الدار ظرف لا ضمير له في جنى . وجنى فعل فارغ من الضمير ، وزيد فاعله كأنك قلت : جنى لي زيـد صبابة من الدار . وقوله : « وإن كانت منى صدقت » أي وإن كانت منـاي التي كنت أتمنى فيها برؤية أحبتي قد صدقت فرأيتهم كما تمنيت غير أن البين نغـّص عليّ رؤيتهم . والخلس جمع خلسة ، وهي استراق اللحظ مخافة الرقباء . هذا الذي أراده » .

وهو يحتج في مواضع مختلفة بالشواهد الشعرية لتأييد شرحه لمعنى كلمة من الكلمات « ٤ ، ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٢ .. الخ » . واحتج لمعنى من المعاني بشطر من أبي تمـام (٧٠ — ٧١) وأشار مرتين الى الأمثال (٣٧ ، ٩٢) . وأشار مرة واحدة الى ضرورة من الضرائر الشعرية دون ذكر كلمة الضرورة [١] . قال صريع :

سلِ الناس إني سائلُ الله وحدَه   وصائنُ عِرضي عن فلان وعن فُلِ

الشرح : « أي وأصون عرضي — يعني نفسه — عن فـلان وعن فلان وحذف من فلان الثاني الألف والنون استخفافاً وللقافية كما ترى [٢] » .

السرقات : ويعرض بـين الفترة والأخرى الى سرقات صريع الغـواني أو السرقات منه . وهو أشار الى نحو خمسة عشر مثلا . ويعبر عن السرقة بـ الأخذ حيناً ، وأن « مثله » لفلان ، و « هذا كقول القائل » . وعبر بالأخذ صراحة

---

١) نقل ابن عبد ربه في العقد أن (فل) تستعمل ضرورة بدلاً من فلان ٤ : ٥٤ .
٢) الديوان صفحة : ٢٦ .

أربع مرات فقط ، ذكر بيت صريع :

تالله ما جهل السرور ولا الكرى   أن الفراق من اللقاء أديلا

وقال : أخذه حبيب فقال :

أترى الفراقَ يظن أني غافلٌ   عنه ، وقد لمَست يداه لمَيسا [1]

هذا عن سرقة ابي تمام من صريع . وفي موضع آخر [2] ، قال صريع :

فإن تبقني الأيام تجنبني العصا   وإن تفنني فكل حيٍّ لها أكل

... وأخذ هذا المعنى من قول لبيد بن ربيعة حيث يقول :

أليس ورائي إن تراخت منيتي   لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وأشار الى أخذ العباس بن الأحنف أحد معاني صريع [3] . ووصف مواطنه ابن عبد ربه بالأخذ من صريع ، مع انه اعترف بأن ابن عبد ربه نقل المعنى من شيء الى شيء آخر ، قال صريع :

لطف المزاج لها فزيّن كأسها   بقلادة جُعلت لها إكليلا

... وإنما يريد أن الماء أحدث لها (للخمر) عند المزاج زَبداً كالدر أحدق بحيطان كأسها . وأخذ ابن عبد ربه هذا المعنى وجعله في وصف الدمع :

وكأنما غاض الأسى بجفونها   حتى أتاك بلؤلؤ منثور[4] » .

هذا عن تعبيره بالأخذ . وهذه نماذج من رأيه في مماثلة الشعر بعضه لبعض .

قال صريع في الخمر :

ومائحة شُرّابها الملكَ ، قهوة   مجوسية الأنسابِ ، مُسلمة البعل

« ... ومثله للأخطل :

إذا ما نديمي علّني ثم علّني   ثلاثَ زجاجات لهنّ هدير

خرجت أجر الذيل خلفي كأنني   عليك أميرَ المؤمنين أمير[5] » .

---

١) الديوان : ٥٤ .

٢) الديوان : ٨٠ — ٨١

٣) الديوان : ١٠٣ .

٤) الديوان : ٥٧ .

٥) الديوان : ٣٥ .

ولم يعلق بأكثر من ذلك ، ولعله رأى أن مسلماً اختصر معنى البيتين في فقرة واحدة وزاد في بيته معاني أخرى فسكت عن أن يسمي ذلك أخذاً أي سرقة مباشرة ، ولكننا نقر بأنه لم يشر مرة واحدة صراحة إلى شيء يشبه هذا الكلام . وقد يكون رأيه في المماثلة لسبب وجيه ، فأبو نواس معاصر لمسلم ابن الوليد ولا يملك أن ينسب المعنى الى واحد قبل الآخر. « قال صريع :

تصد بنفس المرء عما يغمُّه　　　وتنطق بالمعروف ألسنة البخل

... كما قال أبو نواس :　　　« وتنزل درة اللحن الشحيح[1] » .

وإن كانت الصيغة التي أورد بها الشارح حديثه توحي بسبق أبي نواس . وقد يعني بالمماثلة أن الشاعر أخذ بعض المعنى ، دون تمامه . « قال صريع :

ورُحنَ والعينُ للتوديع واكفة　　　إنسانُها من مَسيل الدمع في صعد

... ومثله لذي الرمة :

وإنسانُ عيني يحسر الدمع تارة　　　فيبدو ، وتارةً يجم فيغرق[2] » .

ولا شك في أن الدراسات النقدية الخاصة بالسرقات في المشرق لم تكن قد اكتملت وانتهت [3] ، ولا ندري أيضاً ماذا كان بين يدي الشارح من كتب عالجت هذا الموضوع على وجه من الوجوه . ويظهر من قلة ما تحدث عن السرقات في شرحه دون ذكر كلمة السرقة أنه كان يزين شرحه بذلك ، ولا يعنّي نفسه بتحقيق سرقات صريع ، ولا السرقات منه ، وإلا لكان اتخذ موقفاً أكثر وضوحاً وأدق اصطلاحاً .

البديع : ثارت حول طريقة مسلم بن الوليد مناقشات كثيرة في المشرق ، فقد قال فيه الجاحظ عند حديثه عن البديع [4] : ومن الخطباء ممن كان يجمع

---

١) الديوان : ٣٦ .　　　٢) الديوان : ٨٦ .

٣) مشكلة السرقات في النقد العربي – محمد مصطفى هدارة – نشر مكتبة الأنجلو المصرية – سنة : ١٩٥٨ .

٤) البيان والتبيين للجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – الطبعة الثانية – ١ : ص ٥١ .

الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديـع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين. كنحو منصور النمري ، ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما » . وافتتح ابن المعتز كتـابه (البديع) بالحديث عن طرائق المحدَثين ومنهم مسلم بن الوليد فقال : « قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المُحدَثون البديع ، ليُعلَم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلـك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كَثُر في أشعارهم فعرف في زمانهم[1] » . ولكن الشارح لم يشر إلى شيء من ذلك ، ولا أثار له جدالاً . وهو مع إشاراته القليلة التي سنتحدث عنها فيما يتعلق ببعض أغراض البديع ، لا ينبه على أي مصدر يدلنا من أين استقى ولا من أين نقل. وهو اكتفى بعرض بعض المعلومات القليلة الساذجة عن التشبيه ، والاستعارة ، ولم يزد على ذلك . وكان كثيراً ما يشرح المعنى المقصود بالتشبيه أو الاستعارة دون الإشارة الى اسميهما ، وحين يذكر ذلك فنادراً ما ينبه على طرف من أطراف الاصطلاح الى وقته .

كان الشارح يميز كل تشبيه ويشرح المعنى المقصود بكل وضوح ودقة ، ولكنه لم يكن يلتزم القول : شبه كذا بكذا ، ولا تبيان أركان التشبيه ، إلا ما جاء من إيضاح بغير كلمات الاصطلاح الذي صار معروفاً فيما بعد . وسنقف على بعض تشبيهات صريع ، ونقتبس معالجة الشارح للتشبيه فحسب .

قال صريع :

كأن حبابَ الماء حين يَشجُّـهـا لآلىءُ عقد في دماليج أو حِجْلِ

قال الشارح « شبه الزبد باللؤلؤ[2] » ، وخرج إلى شرح المفردات وجملة المعنى . وهنا أورد كلمة (شـبه) .

---

1) البديع لابن المعتز ـ نشر عبد المنعم خفاجي ـ مطبعـة مصطفى الحلبي : ١٣٦٤ ـ ١٩٤٥ . ص : ١٥ ـ ١٦ .

2) الديوان : ٣٩ .

قال صريع :

كأن فنيقاً بازلاً شُكَّ نحره إذا ما استدرت كالشماع على البَزل

قال الشارح : « يقول كأن صبيبها إذا ثقبت هذه الخابية كصبيب دم انبعث من نحر جمل فنيق أي أبيض حين نحر . والنحر أن يطعن في ثغرتـه ، وهي النقيرة في أصل حلقه ، فتبلغ الحديدة إلى داخل صدره . وجعله فنيقاً أي أبيض ليستبين مع ذلك حمرة الدم [1] » . فهو هنا شـرح معنى الاستعارة وجاء بالكاف بين طرفي الكلام إشارة إلى مشبه ومشبه به ، ولم يستعمل كلمة (شبه) التي كان استعملها في البيت السابق ، لفكرة لم يُفض في شرحها .

وهو يدرك معنى الاستعارة ، كما شرحها وبيّن أمثلتها ابن المعتز في (البديع) [2] فيقول إن الشاعر أجرى كلامه عـلى الاستعارة أو عـلى سبيل الاستعـارة أو استعار كذا . ويشرح المعنى بعـد ذلك بمـا يتلاءم مع فهمه للاستعارة . قال صريـع [3] :

« وقمتَ بالدين يوم الرس فاعتدلت منه قوائم قد أوفت على ميل

... وجعل للدين دعائم على الاستعارة . يقول ليزيد بن مزيد : نصرت الدين وكاد أهله يغلبون . هذا الذي أراد » . ونجد إشاراته للاستعارة صريحة في مواضع أخرى مختلفة [4] . ولكنه لا يلتزم ذلك ، بل قـد يشير إلى جانب التشبيه من الاستعارة صراحة ، دون التصريـح بالاستعارة نفسها .

قال صريـع عن الخمر :

« أماتت نفوساً من حياة قريبة وفاتت فلم تطلب بتَبل ولا ذَحل

... يريد أنها أسكرتهم ، فشبّه سكرهم بالموت... » [5] وإذا كنا لا نطالب الشارح بإيضاح كل ملاحظة بلاغية أو التنبيه عليهـا ، فان ما ذكره الشارح وأورده لا يتناسب مع مكانة صريـع الغواني من (البديع) ولا مع ما ملأ به

---

١) الديوان : ٣٩ .

٢) البديع : ١٩ وما بعدها .

٣) الديوان : ٢٠ .

٤) ٨١ ، ١٦٣ .

٥) الديوان : ٣٨ .

ديوانه من تشبيهات واستعـارات وكنايات ، وفنون أخرى بديعيـة كانت لا شك معروفة زمن الشارح ، شائعة .

ملاحظات ذوقية نقدية : انصب اهتمام الشارح على المعاني وإيضاحهـا ، وجعل من اهتمامه الدقيق باللغة واسطة أمينة لذلك . وبهذه الحاسة كان يميز بين الروايات المختلفة ويرجّح . وكان يعضد آراءه بما يلائم من شاهـد لغوي أو مأثور شعري أو قول عالم مشرقي مشهور . قال صريع في الخمر :

« شققنا لها في الدنّ عيناً فأسبلت كما أسبلت عينُ الخريد بلا كُحل

يقول : شققنا لها في الدن عينا أي ثقباً فأسبلت أي ففاضت كما فاضت عين الخريد بدمعها بلا كحل . قال أبو عمرو بن العلاء : يقال امرأة خريد وخريدة وهي الحييّة أي المحتشمة . وقـد وقع في بعض الروايات : (عـين الخريدة بالكحل) واعتلّ له بعض الناس بأن قال : إنما أراد بذكر الكحـل الزفت الذي يكون حوله ثقب الخابية محدقاً لها كإحداق الكحل بالمقلة والأول أجود ، لقول الحسن بن هانيء البصري :

فضت خواتمها في مثل واصفها عن مثل رقرقة في جفن مرهاء[1] » .

وردّ رواية أحد الأبيات لمخالفتها أصلاً في اللغة ، قال صريع :

« والناس كلهم لصِنْوي واحد ثم اختلاف طبائع في أنفس

. . ووقع في بعض الروايات : والناس كلهم لصنو واحد « وكيف يكون هـذا صواباً ، والصنو ليس يكون صنواً حتى يكون له صاحب مثله . وأصله النخلتان تنبتان في أصل واحد وجذوعهما مختلفة[2] . . » ، فرجح هناك رواية ، وردّ هنا أخرى . ويصل به حسه إلى التشكيك في رواية بيت — لم يشر إلى غيرها — ويكاد ينفي نسبته الى صريع ، وهو :

« ظللنا نشوف الجلد بالجلد لا نرى له ولها في طيب مجلسنا قدرا

وقع في الرواية : «نشوف الجلد بالجلد» وليس هذا الكلام يشبه كلام صريع

---

١) الديوان : ١٣٣ .

٢) الديوان : ٣٨ - ٣٩ .

لأنه معقد في شعره وصف العفاف « لا نرى لها – يعني الخمر – في طيب مجلسنا قدرا . ولو روى « نشوف اللهو بالراح لا نرى له ولها في طيب مجلسنا قدرا لكان حسنا [1] » .

وهو في ذلك كله يصدر عن ثقافة عربية ، وعن تقدير للقيم الشعرية العربية تذكرنا بآراء ابن قتيبة « وليس لِمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين [2] » . فهو يعرض بعض شعر صريع الغواني على تلك القيم ، ويرجّح مذهب المتقدمين . قال صريع :

« وتجنّبى الخفراء إن سيوفهم   حدث وإن قناتهم لم تضرس

يقول للسحابة أمطري الأنصار « وتجنبى الخفراء إن سيوفهم حدث » أي جمع حديث ، وإن قناتهم لم تضرس . ولو قال : (إن قنيهم حدث وإن سيوفهم لم تضرس) لكان أجود لأن الشعراء إنما تصف بالفلول السيوف ، وتصف الرماح بالانقصاف . والخفراء قوم بأعيانهم [3] » . وناقش مسألة أخرى بالطريقة نفسها [4] . وعلق على قول صريع :

إذا ما بدا رُفع الأستار عن ملك   تُكسى الشهود به نوراً وإظلاماً

بقوله : « وهذا من بديع الكلام [5] » . وأغلب الظن أنه استحسن المعنى العام للبيت ، لأنه لم يشر قط إلى الطباق في شرحه لتوجه الكلام إليه .

ولا نعدم بعض الإشارات الأندلسية وهي قليلة جداً ، ولا دخل لها بجوهر شرحه الذي قال قال فيه محقق الديوان إنه شرح مشرقي الروح . فقد رأينا ملاحظته الفريدة عن سرقة ابن عبه ربه من شعر صريع الغواني . وشرح كلمة المهامه بالفُحوص [6] . وشرح قول صريع [7] .

حتى إذا الفجرُ استضاءَ أُنختُها   لأذوق نوماً أو أُصيبَ مَليلا

---

١) الديوان : ٥١ .
٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ : ٦٦ .
٣) الديوان : ١٣٦ .
٤) الديوان : ٤٥ .
٥) الديوان : ٦٦ .
٦) الديوان : ٥٩ .
٧) الديوان : ٥٩ .

« يقول : مشيت طول الليل حتى إذا الفجر استضاء أنختها لأذوق نوماً أو أصيب مليلا ، أي خبزاً مملولا وهو المطبوخ في الملة . وذكر أبو حاتم أن الملة : الموضع الذي يطبخ فيه الخبز . وأهل الأندلس لا يعرفون الملة إلا التي يطبخ الخبز في قوش منها [١] ، مستعل من الأرض قد صار موسطها بين أرضها وسقفها » . فهو ينبه قارئه إلى خلاف في استعمال الكلمة بين ما ورد في الشعر المشرقي ، وبين ما آل اليه استعمالها في الأندلس .

وفي موضع آخر قال صريع [٢] :

«أطلَّت بمجدافَين يعتَوِرانها وَقوَّمها كبحُ اللجام من الدبر

يقول : (أطلت السفينة بمجدافين يعتورانها أي مقدافين يتداولانها . وقومها كبح اللجام من الدبر) أراد باللجام ههنا الرجل رجل المركب ، وهو الذي يقول له أهل البحر في الأندلس الأشباطة [٣] وبه يقوم المركب كما يقوم الفرس باللجام . » وهذه الاشارات على قلتها أثر أندلسي طريف في هذا الشرح المبكر من الشروح الأندلسية . وما ندري فلعل المؤلف ضمّن أول كتابه وقسمه المفقود معلومات كثيرة وملاحظات هامة .

وخلاصة ما نقول في طريقة شرحه إن الشارح كان يشرح كل بيت بمفرده في أغلب الأحيان ، ويكون شرحه الكلمة الغريبة بكلمة مرادفة أو جملة ،

---

١) الديوان : ٥٩ وانظر دوزي ٢ : ٤٩٩ ونقل عبارة الطبيخي .

٢) الديوان : ١٠٩ .

٣) في كتاب (لحن العامة) لابن هشام اللخمي مقتطفات نشرها الدكتور عبد العزيز الأهواني في مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث ١٩٥٧ ـ فصلة صفحة : ١٦ ما نصه : يقولون للتي يمسكها الملاح الإسباطة ، والصواب الخيزرانة . وقيل إن الخيزرانة السكان . قال النابغة :

يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد

وقيل الخيزرانة المردى ، وكل خشبة ناعمة لينة فهي عند العرب خيزرانة » . وانظر دوزي : ١ : ٧٢١ قال في إشباطة : وتفسيره بالسريانية عصا الراعي .

ويستعين على ذلك حين يرى حاجة ماسة بالشواهد الشعرية أو الآية من القرآن الكريم . ثم يشرح معنى البيت ، شرحاً مبسوطاً وبخاصة المعاني الخفية أو الدقيقة ، ويستخرج معاني الشاعر المستترة وراء الاستعارات والكنايات والتلميحات . ويستعين كثيراً بألفاظ الشاعر نفسه مضمناً إياها في شرحه . وكان يشير بعض الإشارات القليلة في التاريخ أو الاعلام ، وتركز اهتمامه على شرح المعاني بالدرجة الأولى مستعيناً بثقافة لغوية جيدة ، وثقافة عربية عميقة تدل على اطلاعه على كثير من التراث المشرقي .



شرح ديوان المتنبي

لابن الافليلي *

٣٥٢ – ٤٤١

عدّد ابن حزم فضائل بلده الأندلس وذكر من رجالاتها مَن شهد له بالبروز والنبوغ منذ بدايتها إلى عصره ، وكان ممن نال ثناءه نحوي أديب من قرطبة ، فقال في حديثه عن تآليف الأندلسيين في الشعر « وممّا يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن الافليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً » . وهي شهادة ذات مغزى كبير ، لأنها صدرت عن رجل خبير عالم بالأندلس وأهلها ، وشارك في علوم شتى[1] .

---

*) ترجمته في الذخيرة لابن بسام – القسم الأول – المجلد الاول ٢٤٠ – ٢٤٢ ، وانظر تعريض ابن شهيد بابن الافليلي ٢٣٣ – ٢٣٥ . وذكره في الصلة لابن بشكوال ١ : ٩٣ – ٩٤ وجذوة المقتبس للحميدي : ١٤٢ – ١٤٣ ، ونقل ثناء ابن حزم عليــه . وفي بغية الملتمس للضبي صفحة١٩٩ ، الترجمة رقم ٤٨٥ واعتمد في معظمه على الحميدي ، وفي إرشاد الأريب لياقوت ٢ : ٤ (طبعة مصر) ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان – طبعة الشيخ محي الدين عبد الحميــد الأولى ١٣٦٧ – ١٩٤٨ ١ : ٣٣ – ٣٤ وفي بغية الوعاة للسيوطي – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم – الطبعة الأولى ١ : ٤٢٦ ، ومعظمها من ياقوت وفي إنباه الرواة على أنباه الرواة للقفطي – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار الكتب المصريــة ١٣٦٩ – ١٩٥٠ – الجزء الأول ١٨٣ – ١٨٤ . وشذرات الذهب ٣ : ٢٦٦ ، ومعجم البلدان ياقوت (ليبزيــغ ١٨٦٦) ١ : ٣٣٢ ، ونقل عن ابن بشكوال . وله ترجمة في المغرب ١ : ٧٢ – ٧٣ ، ونقل ما قاله ابن شهيد ، عن ذخيرة ابن بسام . وشذرات الذهب للذهبي – ط القدسي ١٣٥٠ مصر – ج ٣ : ص ٢٦٦ .

د : Brock . G 1 . 88, s . 1 . 142 .

١) نفح الطيب ٢ : ١٦٦ .

ترجمته :

ابن الافليلي هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا .. بن سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري المعروف بابن الافليلي ، وهو من أهل قرطبة . وحدّث أحد الذين رووا عنه وهو أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني قال « أخبرني أن إفليلا [1] قرية من قرى الشام ، كأنّ هذا النسب اليها [2] » . ولد في شوال سنة ٣٥٢ وتوفي في ذي القعدة سنة ٤٤١ ، فهو عُمر طويلاً وأدرك زمناً من الدولة المروانية ، وعاصر الفتنة التي زعزعت هيبة الخلافة ثم أدرك زمناً يسيراً من عصر ملوك الطوائف . ويلقب في بعض المصادر بالوزير ، لأنه كتب لأحد خلفاء بني أمية زمناً يسيراً ، ونقل ابن بسام قصته عن ابن حيان المؤرخ الاندلسي فقال : « واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكفي بعد ابن برد فوقع كلامه جانباً من البلاغة ، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلفين ، فلم يَجْرِ في أساليب الكتاب المطبوعين ، فزُهد فيه » [3] . وقد حكم المستكفي الاندلسي في ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربع مئة ، وخُلع في أوائل سنة ست عشرة وأربع مئة ، فكانت دولته سبعة عشر شهراً صعاباً نكدات ، سوداً مشوّهات

---

١) قال ابن بشكوال في الصلة ١ : ٩٣ ان نسبته الى افليلا . وضبطها محقق كتاب إنباه الرواة ١ : ١٨٣ بكسر الهمزة ومد الألف بلا همزة (إفليلا) . وابن خلكان في وفيات الأعيان ١ : ٣٤ ينقل ترجمته – دون أن يمين صراحة – عن ابن بشكوال نقلا شبه حرفي ، ولما انتهى من ترجمته قال « والإفليلي بكسر الهمزة وسكون الفاء وكسر اللام ، وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام ثانية ، هذه النسبة الى الإفليل وهي قرية بالشام كان أصله منها » . والعبارة الأخيرة من ابن بشكوال أيضاً . وينفرد ابن خلكان ويتابعه الذهبي في شذرات الذهب بتعريف المدينة وضبط لفظها . وفي ياقوت (البلدان) ١ : ٣٣٢ . « أفليلاء » بفتح الهمزة ، ثم نقل ترجمته عن ابن بشكوال . فكل المآخذ عن ابن بشكوال . ويزيد ياقوت همزة متطرفة في آخر الكلمة ، يمكن أن يكون طابع الصلة الأول سها عنها لاحتمال رسمها مدة فوق الألف الأخيرة (إفليلا) أما ابن خلكان فلا ندري من أين أخذ الا أن يكون اجتهد ، قياساً على حذف ياء النسب . ويظل ياقوت أرجح الآراء .

٢) الصلة ١ : ٩٣ ، ونقله القفطي ١ : ١٨٣ .

٣) الذخيرة ١ – ١ : ٢٤١ .

مشؤومات (١) ، وأنحى ابن حيان على المستكفي وهجّن سلوكه وخطته فوصفه بالغفلة والانقطاع إلى البطالة ، والجهالة ، ووصفه بسوء التدبير وأنه قد « تسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومثناة أراذلُ الدائرة ، وأخابث النظار فضلاً عن زعانف الكتاب والخَدَمة (٢) » وان المستكفي ارتقى بكثير من ضعاف الفقهاء وأصاغرهم إلى منزلة الشورى وسِمة الفتوى . وصب المؤرخ غضبه ، وصور البلاد بأنها كانت في أسوأ حال . وهو عالم نحوي أديب ، تصدر للاقراء فدرس الناس عليه ، وتلقوا اللغة والادب والنحو. وقال فيه معاصره الحُمَيدي إنه « كان متصدراً في علم الادب ، يُقرأ عليه ويُختلف فيه اليه » (٣). ويظهر أن أيامه القليلة التي قضاها وزيراً لم تؤثر في مجرى حياته ، فسرعان ما عاد إلى عمله الاصلي ، في حلقة العلم والرواية .

ثقافته :

وقد روى عن أبيه (٤) ، وعن أبي عيسى الليثي (٥) ، وأبي أحمد القلعي (٦) وأبي زكريا بن عائذ (٧) وأبي عمر بن أبي الحباب ، (٨) وأبي القاسم أحمد بن أبي أبان بن سعيد (٩) وأبي محمد ثابت بن أبي ثابت (١٠) وأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (١١) وغيرهم . وأخذ عنه جماعة منهم الأعلم الشنتمري (١٢) وأبو مروان عبد الملك بن سراج (١٣) وأبو مروان عبد الملك بن زيادة الله التميمي الطبني (١٤)

١) الذخيرة ١ — ١ : ٣٧٣ .
٢) الذخيرة ١ — ١ : ٢٨٣ .
٣) جذوة المقتبس : ١٤٢ .
٤) الصلة ١ : ٩٣ .
٥) فهرسة ابن خير : ٣٩٩ .
٦ : ٧) الصلة ١ : ٩٣ .
٨) الصلة ١ : ٩٣ ، ابن خير ٣٠٤ ، ٢٦٤ .
٩) الصلة ١ : ٩٣ ، ابن خير وفيه ابن سيد بدلاً من سعيد : ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٦٤ .
١٠) ابن خير : ٣٨٣ .
١١) الصلة ١ : ٩٣ . وابن خير ٣٤٥ - ٣٤٧ ، ٣٢٣ ، ٣٧ ، ٣٨٧ الجذوة: ٤٣.
١٢) ابن خير : ٣٣٤ .
١٣) ابن خير ٣١٧ ، ٣٢٨ ، ٤٥ — ٣٤٧ ، ٤٥ — ٣٤٧ ، ٣٣٩ .
١٤) الصلة ١ : ٩٣ ، وابن خير ٣٢٢ .

وغيرهم . وقد أكثر الأخذ عن أبي بكر الزبيدي الذي اتصل بأبي علي القالي ، وأخذ تراث القالي عن الكاتب صاحب الشرطة أبي القاسم أحمد بن أبان . وفي مواضع متفرقة من فهرسة ابن خير أسماء لبعض الكتب التي رواها ابن الإفليلي عمن ذكرت آنفاً . فمن كتب الأنحاء واللغات : فعلت وأفعلت للزجاج (١) وكتاب أبنية سيبويه(٢) واختيار فصيح الكلام لأبي العباس ثعلب ، وفائت الفصيح (٣) وكتاب أدب الكتاب لابن قتيبة (٤) والغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (٥) وكتاب الألفاظ لابن السكيت (٦) . ومن كتب الامثال ، كتاب الأمثال لابي عبيد (٧) . وروى أيضاً كتاب خلق الانسان لأبي محمد ثابت بن أبي ثابت(٨) ، والميسر لابن قتيبة (٩) ونوادر ابن الاعرابي (١٠) . ومن كتب الادب : البيان والتبيين للجاحظ(١١) أخذه عنه ابن سراج ، ولم تكن لابن الافليلي فيه رواية ، واخذ النوادر وذيل النوادر ، من تصنيف أبي علي البغدادي ، عن ابي بكر الزبيدي(١٢) ، وروى المفضليات(١٣) وشعر ذي الرمة وأعشى بكر (١٤) وشعر حبيب بن أوس الطائي(١٥) . وروى عن شيخه الزبيدي كتابيه : لحن العامة ، ومختصر لحن العامة – مما يلحق بكتب اللغة(١٦) وروى ديوان المتنبي كما سنذكر .

وما من شك في أن هذه ليست كل مروياته ، ولكنها تبيّن نموذج ثقافته ، فهي من النحو ، وكتب اللغات المختلفة ، ومن الشعر القديم ، والمحدث أيضاً ، فهو يروي ديوان أبي تمام . وينصّ ابن خير – ونقل القفطي – أن ابن الإفليلي أقرأ كتاب النوادر لأبي علي (١٧) ، وذكر أيضاً أنه أقرأ شعر حبيب بن أوس

---

١) ابن خير : ٣٥٢ . ٢) ابن خير : ٣٥٢ . ٣) ابن خير : ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
٤) ابن خير : ٣٣٤ . ٥) ابن خير : ٣٢٧ ، ٣٢٨ . ٦) ابن خير : ٣٢٨ .
٧) ابن خير : ٣٣٩ . ٨) ابن خير : ٣٧٤ . ٩) ابن خير : ٣٧٨ .
١٠) ابن خير : ٣٧٢ . ١١) ابن خير : ٣٢٦ . ١٢) ابن خير : ٢٣-٢٤-٣٢٥ .
١٣) ابن خير : ٣٩٠ . ١٤) ابن خير : ٣٩١ . ١٥) ابن خير : ٤٠٢ .
١٦) ابن خير ٣٤٦ – ٣٤٧ . ١٧) فهرسة ابن خير : ٣٢٣ .

الطائي [1] وقال في الصلة : إنه « عظيم السلطـان على شعر حبيب الطائي ، وأبي الطيب المتنبي ، كثير العنـاية بهما خاصة ، على عنايتـه الأكيدة بسائر كتبه [2] » وهو أفاد من شيوخه الذين ذكرنا ، ومن غيرهم ، و « لقي جماعـة أهل العلم والأدب ، وجماعة من مشاهير المحدثين . وعاش في فترة ازدهر فيهـا الأدب وتألق المشاهير من الشعراء والكتاب والمؤلفين ، وعرف عنه اهتمامـه بأشعار أهل بلده ، وجمعه مجموعة جيدة منه ، على علم بانتقاء الكلام ومعرفـة رائعة . وقد أثنى عليه الحميدي في الجذوة ، وأطنب في الثناء عليه ابن بشكوال في الصلة ، وترددت أصداء ذلك في كتب التراجم الأخرى . وأكثر الثناء عليه بحفظ اللغة ومعرفة الأشعار والعناية بالنحو ، وحسن الانتقاد .

شخصيته :

ونقل ابن بشكوال عنه صفات شخصية من حسن الخلق وطيب الأحدوثة « وكان صادق اللهجة حسن الغيب ، صافي الضمير ، حسن المحاضرة ، مكرماً لجليسه » . إلا أن ابن حيـان الذي كان ناقماً عـلى مستكتِب ابن الأفليلي — وأعني الخليفة المستكفي — كما تقـدم ، يصور ابن الافليلي من ناحيتين : فهو يثني عليه بالعلم والضبط ومعرفة اللغة ، ويتحرج في اطلاق الثناء بمعرفة معاني الشعر قال « وكان أبو القاسم .. قد بذّ أهل زمـــانه بقرطبة في علم اللسان العربي ، والضبط لغريب اللغـة في ألفاظ الأشعار الجاهليـة والإسلامية ، والمشاركة في بعض معانيها [3] » ويدخل الى الناحية الأخرى بتمهيـد يوطىء « وكان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفن ، كثير الحسد فيه » ثم يخرج الى نواقص ابن الافليلي كما يرويها هو من أنه « عدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه اليه وإكمال صناعته به ، فلم يكن له شروع فيه » .

هذا مؤرخ ينقل الصالح والطالح، ويحكم لابن الافليلي كما يحكم عليه . ولكننا

---

١) ابن خير : ٤٠٢ .　　٢) الصلة : ١ : ٩٣ .

٣) الذخيرة : ١ — ١ : ٣٤٠ .

نقف أمام ناقد آخر له لا يورد إلا المثالب ، ويهاجمه من طرف جلي وطرف خفي ، وسياق كلام ابن شهيد — في مقتطفات ابن بسام من رسالته : التوابع والزوابع — يدل على أن الخلاف : لما وُصِف من غيرة ابن الافليلي على صناعته ، وعجبه بما عنده ، ولعله أيضاً انتقد طريقة ابن شهيد في شعر ونثر . وقد جعل ابن شهيد شيطان ابن الإفليلي على صورة بشعة قبيحة ، باسم أنف الناقة فلم يكترث لما تفاخر من رواياتـه وحفظه . « قال — أنف الناقة — : فطارحني كتاب الخليل قلت هو عندي في زنبيل. قال فناظرني كتاب سيبويه قلت : خريت الهرة عندي عليه وعلى شرح ابن درستويه . فقال لي دع عنك ! أنا ابو البيان . قلت لا ها الله ! إنما أنت كمغنٍّ وسط لا يحسن فيطرب ، ولا يسيء فيلهي . . ليس البيان من شعر يفسر ، ولا أرض تكسر ، هيهات ... حتى تتناول الوضيع فترفعه ، والرفيع فتضعه ، والقبيح فتحسنه[1] » والخلاف الأساسي هو ما ذكره ابن حيان من لجوء ابن الافليلي في كتاباته الديوانية الى ما سماه « طريقة المعلمين المتكلفين » في حين شيوع طريقة الكتاب المطبوعين .

أما عن مؤلفاته فقد اشتهر الخبر بأنه لم يؤلف غير شرحه على ديوان المتنبي [2] في حين أن كافة المصادر لم تذكر غير مؤلفه هذا . ولا يمكن أن نفهم من عبارة ابن بشكوال « وكان عنده قطعة صالحة من أشعار أهل بلده » أكثر من وجود مجموعة أندلسية شعرية في متناول يده. ونقل في المغرب عن الحِجاري أن ابن الافليلي « كان بارد النظم والنثر ، ولم يندر له من شعره إلا قوله :

صحبتُ القطيعَ ونادمتُه وأصبحتُ في سربه ذا انقطاع
وأبصرت أنسي به وحده كأنس الرضيع بثدي الرضاع[3] »

كما قيل في ابن الأفليلي شعر (هجاء) لمناسبة ذكرها ابن حيان . قال

١) الذخيرة ١ — ١ : ٢٣٤ . وانظر (٢٣٣ — ٢٣٥) .
٢) الذخيرة ١ - ١ : ٢٤١ ، المغرب ١ : ٧٣ . السيوطي : بغية الوعاة ١ : ٤٢٦ .
٣) المغرب ١ : ٧٣ .

« ولحقته تهمة في دينه أيام هشام المرواني في جملة من تُتُبِّعَ من الأطبـاء في وقته كابن عاصم والبسباسي والحمّـار وغيرهم . وطُلب ابن الافليلي وسجن بالمطبق ، ثم اطلق . وفيه يقول موسى بن الطائف من قصيدة :

يا مبصراً عميت نواظر فهمه عن كنه عرضي في البديع وطولي
لو كنت تعقلُ ما جهلتَ مَقاومي من ضاق فرسخه بخطوة ميل
ولئن ثلبتُ الشعرَ وهو أباطل فلقد ثلبتَ حقائق التنزيل..[1] »

ولا نكاد نسمع صدى لهـذا الخبر فيما تلا من كتب التراجم ، ولا عند ابن بشكوال الذي أجمل معظم خبر أبي القاسم .

اثر هذا الشرح : في ترجمة ابن حزم أنه ألّف كتابـاً في (التعقيب على ابن الافليلي في شرحه لديوان المتنبي) وهذا يعني ان ابن حزم بالرغم من ثنائه على الكتاب – كما صدّرت أول الحديث – استدرك عليه بعض الأمور وتعقبه في بعض الشروح والآراء ، ولا نعرف عن الكتاب غير اسمه . وانتقل الكِتاب إلى المشرق ، وأفاد منه العكبري في شرحه عن المتنبي إفادة كبيرة ، ونبه في مقدمته على أنه اعتمد على ابن الافليلي في جملة مصادره[2] . ولم يكن العكبري يشير حين ينقل من ابن الافليلي إلى اسمه ؛ على حين يـذكر ابن جني وابن فورجه وابن وكيع وسواهم . ولاختصار شرح ابن الافليلي – نسبياً – فإن العكبري كان يضم إلى شرحه إضافات أخرى ، فتندرج عبارته ، وكأنها من إنشائه . كما كان يفرق الشرح على منهجـه الى قسمين : شرح الغريب ، وشرح المعنى ، والحق ان إفادة العكبري من ابن الافليلي كبيرة جداً على الرغم من اغفاله إسمه إلا في مقدمة الكتاب تقريباً . وألح على النقل منه في المواضع التي أشار فيها ابو القاسم إلى بعض الفنون البلاغية . قال أبو القاسم في شرح مطلع قصيدة لأبي الطيب :

---

١) الذخيرة ١ – ١ : ٢٤١ .
٢) شرح التبيان للعكبري – المطبعة الشرقية بمصر ١٣٠٨ هـ – ٢ : ٢٤١ – ٢٤٢ .

أين أزمعت أيهذا الهُمامُ   نحن نبت الربى وأنت الغمام

« المزمع : المعتزم ، والرُّبا جمع ربوة وهي الأكمة . يقول : أين أزمعت الرحيل عنا أيها الملك ونحن الذين أظهرتهم نعمك إظهار الغمام لنبت الربا ؛ وهو من آنق النبت ، ولذلك ضرب الله تعالى المثل به فقال (كمثل جنة بربوة أصابها وابل) وهو مع ذلك أقرب النبت موضعاً من الغمام وأشده افتقاراً اليه لأنه لا يقيم فيه ويسرع الانسياب عنه ، ولهذا ما تشبه المتنبي به في حالته » اه .

وقال العكبري :

« (الغريب) الإزماع : العزم على الرحيل . والهمام الملك العظيم الهمة . والرباب جمع ربوة ، وخص الربا دون غيرها لأن الروضة إذا كانت على يفاع من الأرض كانت أحسن . (المعنى) يقول أين ، وهو سؤال عن مكان أي مكان عزمت عليه أيها الملك . قال الواحدي ونحن لاعيش لنا إلا بك فإذا فارقتنا لم نعش كنبات الربا لا يبقى إلا بالغمام لأنه لا شرب له إلا من مائه . وغير نبات الربا يمكن أن يجري اليه الماء ، وهو من قول الآخر :

نحن زهر الرُّبا وجودك غيثٌ   هل بغير الغيوث يونِق زَهر

هذا كلامه وهو كلام أبي الفتح نقلا . والمعنى [يقول أين أزمعت أيها الملك عنا ونحن الذين أظهرتهم نعمتك إظهار الغمام لنبت الربا وهو من آنق النبت ، ولهذا ضرب الله تعالى به المثل في قوله (كمثل جنة بربوة أصابها وابل) وهو مع ذلك أقرب النبت موضعاً من الغمام وأشده افتقاراً اليه لأنه لا يقيم فيه ويسرع الانسكاب عنه ولهذا شبه أبو الطيب حاله به] قال ابن وكيع أول هذه القصيدة سوء أدب لسؤاله ملكاً جليلا بأين ... » .

والكلام الذي بين معقوفتين هو كلام أبي القاسم بن الافليلي بالحرف الواحد والعجيب أن العكبري انتقد الواحدي لنقله كلام ابن جني دون إشارة ، ثم أخذ كلام غيره حرفاً حرفاً وسكت عن ذلك ، وهذا من غريب ما يكون ! وسأشير في بعض نقولي عن شرح ابن الافليلي الى مواضعها من شرح العكبري

لتكون نماذج ، ولو اكتمل شرح أبي القاسم في يدي لكان حديث آخر . وذكره ابن خلكان في ترجمة ابن الافليلي فقال : « شَرَحَ ديوان المتنبي شرحاً جيداً وهو مشهور [1] » وأشار في ترجمة المتنبي الى شرح أبي القاسم أيضاً ، وفحواها تدل على اطلاع ابن خلكان المباشر على الكتاب [2] .

نسخ الكتاب : ذكر بروكلمان [3] في تاريخه أن لشرح ابن الافليلي على ديوان المتنبي خمس مخطوطات . منها واحدة في القرويين (رقم ١٣٤٣) وأخرى في الرباط (٣٢٤) ، والمتحف البريطاني (الملحق : ١٠٤١) ومنه مقتطفات في الموصل (داود جلبي صفحة ٢٣) وقد حصلت على اثنتين منها : نسخة الرباط ، ونسخة المتحف البريطاني [4] والحق أن النسختين مقتطفات من شرح ابن الافليلي . فنسخة الرباط تحوي تقريباً معظم سيفيات المتنبي . بينما تحوي نسخة المتحف البريطاني على مئة ورقة من السيفيات أيضاً . وستقوم الدراسة على هاتين النسختين ، لعلنا ندرك فيما بعد بقية الكتاب ، ونتم صورة الرأي فيه .

النسختان : نسخة المتحف البريطاني نفيسة ، ولو كانت كاملة لكانت قيمتها عظيمة جداً . وهي بخط مشرقي نسخي جميل واضح مشكول متقن . نسق فيه في الغالب كل بيتين معاً يتلوهما الشرح . وهي مبتورة الأول ، وتبدأ بقوله :

« وقال يمدحه وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية :

أينَ أزمعتَ أيهذا الهُمام   نحن نبتُ الربى وأنت الغَمامُ .. »

وتقع هذه القصيدة في الصفحة التاسعة من مخطوطة الرباط ، وهي الثانية من قصائدها . ويتخلل النسخة بعض الخروم . أما نسخة الرباط ففي ٢٧٢ صفحة ، بخط مغربي ، كتبت في القرن العاشر ، فرغ منها ناسخها سنة خمس وسبعين وتسعمئة . جمل فيها كل بيت وشرحه على حدة . وسقطت من الشرح الورقة

---

١) وفيات الأعيان ١ : ٣٣ .   ٢) وفيات الأعيان ١ : ١٠٦ .

٣) Brock . S . 1 . 142.

٤) ذكر الخامسة (رأنها في برلين برقم ٧٠٦٩) في Brock . G . 1 . 88 .

اولأَلى فأتمها شخص آخر بنسخ بديل عنهــا بخط مُغايــر . والناظر لأول وهلة يظن الكتابين مختلفين . فنسخة المتحف البريطاني جملت كل بيتين معـــاً ، وشرحهما معاً في أغلب الأحيان ، على حين أن نسخـة الرباط نسقت كل بيت وحده مع شرحه . وشيء آخر، هو أن صاحب نسخة الرباط لعب قليلاً بالنص. فقد كان المؤلف يبدأ بشرح بعض الـكلمات شرحاً لغوياً مفرداً ثم يثنّي بشرح المعاني مع شيء من الملاحظات الاخرى كما هي . وقد تطابقت لديّ الشروح في كل ما ورد من قصائد النسختين . وهناك دليل قائم على ان ناسخ الرباط اجترأ على النص بحذف شرح الألفاظ . ففي الصفحة ١٥١ في شرح بعض أبيات المتنبي اضطر الناسخ إلى الاحتفاظ بشرح الالفاظ للضرورة الملحة . وفيها : « وأنشد أبو الطيب هذه القصيدة سيف الدولة بحضرة جماعة ، فلما بلغ إلى قوله : (أقل أنل .. البيت) رأى من حضر يعدُّ حروفه ويستكثرها فأنشد :

أقِل أنِل أنْ صُنْ احمِلْ عَلّ سَلّ أعِدِ
زِدْ هَشّ بَشّ هَب اغفر أدْنِ سَرّ صِلِ

فرآهم يستكثرون الحروف ويستعظمون سرعة خاطره ، فقال :

عِش ابقَ اسمُ سدْ قُدْ جُدْ مُرِ انه رَهْ فِهِ اسرِ نَلِ
غِظ ارمِ صِبِ احمِ اغزُ اسبُ رُع زَع دِهِ لِهِ اثنِ بِلِ[1]

ورَيتَ الرجل إذا أصبت رئته . وصب بمعنى أصب يقال صــاب وأصاب بمعنى . ورع بمعنى أخف . يقال راع يروع . وزع بمعنى كف ، وبل بمعنى أمطر وأن بمعنى ارفق فيما تبدر إليه من فضلك ، وظن بكرمك من يقصدك من فضل غيرك . ثم يقول لسيف الدولة ..» وهذا كله مطابق في نسخة المتحف البريطاني لما في الورقة رقم ٤٣ .

١) ديوان أبي الطيب المتنبي — تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام مطبعة لجنـــة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٣٦٣ — ١٩٤٤ . ص ٣٣٢ .

رواية ابن الأفليلي للديوان : ذكر ابن خير في فهرسته أنه يروي شعر أبي الطيب المتنبي عن شيخه أبي عبد الله جعفر بن محمد بن مكي ، عن الوزير أبي مروان ابن سراج ، عن الوزير أبي القاسم بن الافليلى ، وأيضاً عن أبي بكر بن فندلة ، عن الأعلم الشنتمري عن ابن الافليلي ، ومن طريق ثالثة عن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن أبي الخصال عن أبي تميم بن بقنة عن ابن الافليلي . أما أبو القاسم هذا فيرويه بسنده ، قال ابن خير : « قال ابو القاسم . قرأته على ابي القاسم الحسين بن الوليد ويعرف بابن العريف عن ابي بكر الطائي وإبراهيم المغربي كلاهما عن ابي الطيب المتنبي [1] » فقد كان ابن الافليلي راوية مشهوراً لشعر المتنبي خاصة كما تبين من سند ابن خير .

منهج الشرح وطريقته : اتبع الشارح في ترتيب قصائد الديوان ، الترتيب الذي وصلت إليه روايته . والمقدمات التي يثبتها في أوائل القصائد وذكر مناسباتها قريبة في اللفظ من كثير من المقدمات — كما يتوقع من صنع المتنبي نفسه [2] واتبع ابن الافليلي الترتيب التاريخي شأن معظم النسخ [3] ويظهر أنه شرح الديوان على النسق الذي وصلته روايته دون تغيير .

وهو يقدم لشرح معاني الأبيات بإيضاح بعض الكلمات وشرحها شرحاً لغوياً سريعاً ، مثل شرحه :

« أعلى الممالك ما يُبنى على الأَسَل   والطعن عند محبيهن كالقبل
وما تقر سيوف في ممالكها   حتى تقلقل دهراً قبل في القلل

الممالك جمع مملكة ، وهي سلطان الملك في رعيته ، والأسل الرماح ، والقبل جمع قبلة . والتقلقل دوام الحركة ، والقلل الرؤوس واحدتها قلة . وقلة

---

١) فهرسة ابن خير ٤٠٣ .
٢) ديوان المتنبي — تحقيق عزام — المقدمة — صفحة : ل .
٣) المصدر نفسه ، صفحة : كح .

كل شيء أعلاه . فيقول.». (١) ويمزج بين الشرح السريع لبعض الكلمات ، وبين المعنى العام ، مستخلصاً منه دقائق المعاني مستفيداً من ثروته اللغوية الغنية .

وقليلا ما يعقب على معنى من المعاني برأي يستقيه من وحي الكلام أو من ملازمته ومشابهته ، كتعقيبه على شرح البيت التالي :

« إذا ما تأملتَ الزمان وصرفه   تيقنت أن الموت ضرب من القتـل

ثم قال : إذا تأملت الزمان وصروفه وتدبرت الدهر وخطوبه تيقّنت أن ما حتم على الانسان من الموت كالذي يتوقعه من القتل لأن الأمرين متساويان في مكروهها ، متماثلان فيما يشاهد من عدم الحياة بها ، فما ظنك بشيء يكون آخر مصيره الى أكره ما يكون من أموره ، وهذا يوجب الزهد في الدنيـا ويدعو الى الإعراض عنها ، وقلة الأسف عليها (٢) » فهـذا التعقيب الأخير من الشارح ، وهذا التوجيه ممكن ، ولكن إيجابه إنما هو من رأي الشارح ، وهو نادراً ما يقع منه في تعليقاته .

ومعالجة الشارح لمعاني المتنبي تنم عن أسلوب سهل،وحسن تأتٍّ ، وبساطة عرض . وهو يعلل المعاني ويدلل على مقاصد الشاعر المكنونـة وراء لفظة أو خلف عبارة ، ويأتلف لديه في هذا تبين دلالات العبارات بذاتها مع تبين الغرض البعيد من ورائها ، قال المتنبي في سيف الدولة :

« فالعُرب منه مع الكُدْري طائرةٌ   والروم طائرةٌ منـه مع الحجَل

ثم يقول : ان عُصاة الاعراب يفـرّقهم من سيف الدولة يعتصمون منه بمـا غمض من الرمال وبَعُد من المهامه والقفار — وهناك تستقر القطا وتأمن وتفرخ وتسكن — وكذلك الروم تعتصم منه بالأوعار وقُنن الجبال ، وتلك مواضع الحجل ومساكنها . فأشار بجمعه بين الروم والحجل الى مستقر الطائفتين ومـا

---

١) شرح ابن الافليلي (المتحف البريطاني) ورقة ١٢ (الرباط صفحة ٣٢) .
٢) نسخة الرباط : ٤٦ .

إليه غاية قرار الصنفين ، ودل على أن سيف الدولة لا يتعرض الاعداء لحربه ولا يقاومون شدة بأسه ، وإنما يفزعون الى الاعتصام منه بالفلوات النائية ورؤوس الجبال الشامخة [١] » وهذا شرح في غاية من السهولة والبساطة والنفاذ .

شواهد : وهو يتوسل إلى إيضاح شروحه اللغوية وشروح المعاني ، على قلة وبقدر ، بالآيات القرآنية أو الشواهد الشعرية . كاحتجاجه بشعر للفرزدق (ص ٥) والجعفري (ص ٥٥) وزهير (ص ٩٥) ونادراً ما يشير الى حادثة تاريخية مثل إشارته الى ما صنعه الحجاج من وسم عجم السواد (ص ٥) قال : والوسم في الأعناق والأيدي غاية استدلال المالك لمن ملّكه وقد فعل ذلك الحجاج بقوم من عجم السواد [٢] » . أو اشارة جغرافية كشرحه عن مدينة ميافارقين [٣] . وكل هذا نادر معدود ولا يكاد يدخل في حسبان طريقته الأساسية في الشرح .

ملاحظات نحوية : وللشارح وقفات سريعة تتردد بين الفينة والفينة عند بعض القضايا النحوية ، وهو يستشهد أحياناً بكتاب سيبويه ، وبأقوال الفراء[٤] ومن وقفاته ؛ ما ذكره عن الضمير المتصل موضع الضمير المنفصل [٥] و : ما الاستفهامية بعد إلى الجارة [٦] وذي اسم الإشارة للمؤنث والمذكر [٧] وحذف أن قبل المضارع وتقديرها [٨] وإسقاط حرض الجر مع ورث واثباته في النية[٩] والاخبار عن التثنية بالجمع [١٠] وتثنية أب دون رد الكلمة الى أصلها [١١] . وحذف ياء المنادى حين يضيف المنادي الى نفسه ، وحذف عائد ما التي للتعجب[١٢] وناقش النداء في واحر قلباه[١٣] ، » وفي فواعجباه[١٤]» . ويظهر

١) نسخة الرباط : ١٤٧ .
٢) نسخة الرباط . ٥ .
٣) نسخة الرباط : ٨١ .
٤) صفحة : ١٧ .
٥) صفحة : ١٨ .
٦) صفحة ٢٣ .
٧) صفحة : ٣٢ .
٨) صفحة : ٤٧ .
٩) صفحة : ٥٥ .
١٠) صفحة : ١١١ .
١١) صفحة : ١١٧ .
١٢) صفحة : ١٢٢ .
١٣) صفحة : ١٣٢ .
١٤) صفحة : ٢٠٢ .

من استعراض هذه الأمثلة أن ابن الافليلي مطلع على أمور النحو متمكن منها منها كما ذكروا في ترجمته ، وهو هنا يتسقط اللغات المختلفة ليجد سبلا تسوّغ « شوارد » المتنبي في استعمالاته ، ووجوه عباراته . وكثيراً ما يشير الى أن لغة المتنبي أو استعماله النحوي مما استعمله العرب أو وردت فيه لغة أو له شاهد ، أو سُمح به في الشعر .

قال المتنبي :

إلى مَ طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

إلى م هي : إلى التي للخفض دخلت على ما التي للاستفهام فبنيت معها بناء كلمة واحدة ، وسقطت الألف من (ما) استخفافاً ، واعتدوا بالى في الكلمة الموصولة بها . وكذلك يفعلون بما التي للاستفهام إذا اتصل بها سائرحروف الجر، ولا يفعلون ذلك بـ (ما) في الخبر . وأخرجهم إلى ذلك كثرة الاستعمال ، فيقول .. »[1] وفي موضع آخر :

« تسل بفكرٍ في أبَيك فانما بكيتَ فكان الضحك بعد قريب .

وقوله في أبيك يريد في أبويك فثنى الأب على لفظه ، ولم يرده إلى أصله . وقد روى الفراء ذلك ، وذكر أن من العرب من يقول إذا ثنى الأب والأخ في الرفع أبان وأخان ، وفي النصب أبين وأخين ، والجمع على ذلك . وأنشد سيبويه :

فلما تبيّنّ أصواتنا بكين وفديننا بالأبينا

وليست تثنية أب على لفظه بأعجب من جمعه جمع سلامة على ذلك . فهو استخدم ما رواه عن الفراء من جواز تثنية أب دون ردها إلى الأصل ، واحتج من وجه آخر بما قاس على جواز الجمع ، فجوّز التثنية . ونكتفي بهذا ، بما يدل ويمثّل .

---

١) شرح ابن الافليلي (الرباط) ٢٣ .

في السرقات : في ثنايا الشرح ملاحظات قليلة عابرة فيما نسميه السرقات ، لأن الشارح لم يكلف نفسه هذا ، وإنما هي ملاحظات نادرة معدودة، وهو ينتبه إلى المعاني المشتركة التي يطرقها الشعراء بحكم ما هو مألوف من معاني العرب ، ولا يكون ذلك أخذاً ولا سرقة ، قال المتنبي :

« أيدري الربع أي دم أراقا   وأي قلوب هذا الركب شاقا

الشعراء تذكر أن الحزن إذا أفرط والبكاء إذا اتصل امتزج الدم بالدمع فتلاه في جريه ، وانحدر في أثره ، فيقول .. [1] » .

وعلق على قوله :

« فجاز له حتى على الشمس حكمه   وبان له حتى على البدر ميسم

فقال بعد شرح البيت : « والعرب تفعل ذلك ، نصف الممدوح بالقدرة على ما لا يقدر أحد عليه في الحقيقة لتوجب له بذلك غاية القوة وابعد نهايات القدرة » [2] وقال انه قول المتنبي :

« له عسكرا خيل وطير إذا رمى   بها عسكراً لم تبق إلا جماجمه

... على نحو قول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدي بعصائب [3] »

وفي موضع آخر قال المتنبي :

« هو الشجاع يعد البخل من جبن   هو الجواد يعد الجبن من بخل

... وأجمَل ما فسره أبو تمام بقوله :

وإذا رأيت أبا يزيد في وغى   وندى ومبدىء غارة ومعيدا
يقري مرجّيه حشاشة ماله   وشبا الأسنة ثغرة ووريدا
أيقنت أن من السماح شجاعة   تدمي وأن من الشجاعة جودا

---

١) صفحة : ٥٨ .   ٢) صفحة : ٧٦ .   ٣) صفحة : ٦

فبيَّن أبو تمام وفسَّر ، وجمع أبو الطيب ، واختصر »[1]. وأشار مرةأخرى إلى بيت للمتنبي على نحو بيت للنابغة .[2]

ملاحظات بلاغية : كل الأحكام التي نصدرها قابلة للزيادة والنقصان ، على مخطوط ناقص ، لا نستبين فيه كل معالم شرح الشارح وآرائه ، ولكن ما نحصل عليه يعطي صورة أولية ، ولن نعمم الاحكام أو نقطع بها ، فقد يكون الاحتراس في مثل هذه الدراسات أصدق وأدق من التصميم والقطع . أقول هذا في سياق حديثي عن ملاحظات بلاغية تتخلّلها من أثناء ما لديّ من شرح ابن الإفليلي . ونستطيع أن نقول إن ملاحظاته البلاغية هذه ، وشروحه للألفاظ والمعاني ، هي التي تكوّن صلب شرحه ، وتميزه عن سواه من الشروح؛ لأن ما سوى ذلك ملاحظات عابرة تتخلل أي عمل ولا تسمه بميسمها أو تلحقه بها .

في فصل لاحق سأتحدث عن البلاغة في الأندلس بنظرة عامة .ولكني استبق الحديث لأذكر أن الأندلسيين لم يعنوا بالدراسات البلاغية النظرية عناية أهل المشرق . وعلل ابن خلدون فيما بعد بتعليل خاص سنتعرض له . ولكن لم يكونوا معزولين عما يدور من بعيد ، وكانوا يستفيدون من ذلك ، كما سنلحظ من الدراسات التطبيقية .

تحدث الشارح عن بعض المصطلحات البيانية والبديعية والبديعية في أثناء شرحه ، وهو لم يلتزم الإشارة الى كل ناحية فيها نوع بلاغي أو بديعي ، بل كان يراوح بين ذلك . فنبّه على التشبيه ، والإستعارة ، والكناية . وذكر عشرة من أنواع البديع ، وهي مقتبسة من بديع ابن المعتز ، ونقد الشعر لقدامة ، والصناعتين لأبي هلال العسكري كما سأبين ، وهو لم يذكر أسماء هذه الكتب ، وعيَّنتُ ذلك بالمصطلحات نفسها مقارنة بما في تلك الكتب .

---

١) صفحة : ٣٨ .

٢) صفحة : ٧٩ .

قال المتنبي :

كأن خلاصَ أبي وائلٍ معاودةُ القمرِ الآفلِ

ثم شبّه خلاص أبي وائل من إساره بخروج القمر من سراره ، ومعاودته للإنارة ، وما كان عليه من السيادة بمعاودة القمر الآفل لضيائه ومراجعته لبهائه [1] ». وهو يرى أن تشبيه شيئين بشيئين أجود من تشبيه شيء بشيء ، قال المتنبي :

« لأكبتَ حاسداً وأرى عدواً كأنّهما وداعُك والرحيلُ

.. فشبّه شيئين بشيئين أصح تشبيه ، وهذا أرفع وجوه البديع [2] ». وهذا قريب من قول قدامة « وقد يقع في التشبيه تصرف الى وجوه تستحسن ، فمنها أن تجمع تشبيهات كثيرة في بيت واحد وألفاظ يسيرة... [3] » . وهو ما عبر عنه ابن الأفليلي بقول (أصح تشبيه) .

ونبّه كثيراً على الاستعارة ، وفي أبيات يصعب احصاؤها ، وعدّها في فنون البديع كما فعل ابن المعتز [4] ، وصاحب الصناعتين [5] على حين أغفلها قدامة [6] . فمن ذلك :

« وأنبتَّ فيهم ربيعَ السباع فأثنَتْ بإحسانك الشاملِ

ثم قال : وأنبت من أجسادهم ربيع السباع فأخصبت في نجومها إخصاب السائمة في ربيعها فأثنت بما عمّها من فضلك وشملها من إحسانك ، وأجرى أكثر

١) شرح الديوان (الرباط) : ٢٥ .
٢) صفحة ١٢ ونقل العكبري الوجه البلاغي : ١٨ .
٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر – طبعة الخانجي ١٩٦٣ – ص ١٢٦ ، والصناعتين لأبي هلال العسكري المتوفى ٣٩٥ – الطبعة بالآستانة ١٣٢٠ ﻫ ، ص ١٨٩ .
٤) البديع : ١٩ .
٥) الصناعتين : ٢٠٥ .
٦) البلاغة تطور وتاريخ – الدكتور شوقي ضيف – دار المعارف بمصر ١٩٦٥ – ص : ٩١ – ٩٢ .

لفظ البيت على الاستعارة [١] ، وقال بعد شرح البيت التالي :

ويوم شرابُ بنيه الردى   بغيض الحضور إلى الواغل

.. وجرى هذا الكلام على مثل ما تقدم من الاستعارة ، وهي من أبواب البديع » ، وقال في موضع آخر « وجرى في هذا على الاستعارة من بديع الكلام [٢] » فلم يكن تقسيم الفنون البلاغية قد تم بعد [٣] .

وأشار إلى الكناية [٤] في مواطن مختلفة ، وفضّل لفظة الكناية ، على (الإرداف) التي اصطلحها قدامة ، و (المماثلة) التي اصطلحها أبو هلال ، فمن ذلك ، شرحه قول المتنبي :

« فصرتُ إذا أصابتني سهام   تكسرت النصّال على النصال

قال : فهو إذا أصابه الدهر بخطب من خطوبه ، وصرف من صروفه فإن ذلك إنما يوافق مثله ، ويقرع شكله ، وكنى بنصال السهام عن اشتداد الخطوب ، وقال : ان بعضها يكسر بعضاً في فؤاده لتزاحمها فيه ، وتكاثرها عليه[٥] وقد يلحق كلمة أشار بعد كلمة كنىّ لإيضاح المعنى ، ولكنه قد يقتصر بها عن (كنى) ، مثل شرحه :

ولم يَخل من أسمائه عود منبر   ولم يخل دينارٌ ولم يَخل درهَم

قال : ولم يخل من أسمائه منبر يريد أن بلاد الأرض مضافة إلى ولايته مُختَطب على منابرها له بلزوم طاعته ، ولم يخل دينار ولم يخل درهم يريد الآفاق ودراهمها مطبوعة باسمه مُستَكّة بذكره ، يشير إلى عظم شأنه واتساع أعمال سلطانه [٦] » ، وهو يستعملها هنا بمعنى الدلالة اللغوية فحسب لأن

١) شرح الديوان (الرباط) : ٣١ العكبري ٢ : ٢٧ .
٢) شرح ابن الافليلي (الرباط) ٦١ .
٣) البلاغة تطور وتاريخ : ١٦٠ .
٤) ص : ١٦ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٢١٣ .
٥) نقله العكبري : في ٢ : ٢١ ، وفيه (اشتداد الخطوب) .
٦) شرح ابن الإفليلي : ٧٩ ، والعكبري : ٢ : ٢٤٨ .

للاشارة معنى آخر عند قدامة وأبي هلال [1] وباقي الفنون البديعيـة التي أشار اليها هي : ١) **التتميم** ، في شرحه قول المتنبي .

فلما نَشفن لقين السِّياط ... بمثل صَفا البلد الماحِلِ

يقول : فلما نشف عرق هذه الخيل على ما التبس به من الغبـار لقيته سياط الفرسان من جلودها بمثل الحجر الأملس الذي يكون في البـلد المُمحل ، وهو البعيد العهد بالمطر ، وذلك أبلغ في يبسه وجفوفه . وهذه الزيادة التي تطلب بها الغاية وقد كان يتم الكلام دونها باب من البديـع يعرف بـ **التتميم** [2] ، كما انتبـه إلى الصنف الآخر الذي أدخله قدامـة في التتميم ثم صار من **الاحتراس** [3] .

٢) **الاستطراد** وهو من الفنون التي وردت في الصناعتين، وقد ورد ذكرها في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني أيضاً . ولكن ما ندري أوَصل كتاب الباقلاني إلى ابن الافليلي أم لا ، وعلى كل حال فكلا الكتابين لم يرد في فهرسة ابن خير ولا فيما بين أيدينا من برامج العلماء . ويظل الرأي الغالب أن ابن الأفليلي عرف كتاب ابن المعتز، وكتاب قدامة — وقد أثنى ابن حزم (المتوفى ٤٥٦) عليه — وعرف كتاب الصناعتين لِما نرى صراحة من تطابق الاصطلاحات وتطبيقاتها بكل دقة . قال في شرح قول المتنبي :

« فلا تعجبا أن السيوف كثيرة ... ولكن سيف الدولة اليوم واحدُ

قال .. وهذا الخروج باب من البديع يعرف بالاستطراد » [4] .

٣) **الطباق** . ورد عنده بعبارة (الطباق) و (المطابقـة) ؛ شرح قول المتنبي :

---

١) نقد الشعر ١٧٤ ، الصناعتين : ٢٧٣ .
٢) ص : ١٣ ، ١٤ ، ، والعكبري : ٢ : ٣١ .
٣) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع .
تحقيق د — حنفي محمد شرف ١٢٨٣ — ١٩٦٣ ص ٢٤٥ .
٤) شرح الديوان (الرباط) ١٠٦ .

« تولّيه أوساطَ البلاد رماحُه   وتمنعه أطرافهنّ من العَزل

ثم قال : توليه قواعدَ البلاد وأوساط الأرض رماحُه بتغلبه عليها ، وتمنعه أطراف تلك الرماح برهبة الأعداء لها من أن يُعزل عنها ، وطابق بين الولاية والعزل ، والأوساط والأطراف ، وذلك من البديع » [1] . وعلق بعد شرح بيت المتنبي :

له من كريم الطبع في الحرب مُنتَضٍ

ومن عادة الإحسان والصفح غامِدُ

قال « .. وأبدع بالمطابقة بين منتض وغامد ، والمطابقة أن يقترن الشيء بضده على انتظام من الكلام » [2] .

٤) **التجنيس** : ورد عنده بلفظ التجنيس والمجانسة . قال في بيت المتنبي :

« تلقى الوجوهُ بها الوجوه وبينها   ضرب يجول الموتُ في أجواله

... وجانس بقوله : يجول الموت في أجواله لأن حروف الأصل في يجول والأجوال واحدة ، والمراد بالكلمتين مختلف ، واتفاق هذا في الكلام هو التجنيس » [3]. وقال في موضع آخر : « والمجانسة اتفاق اللفظ مع اختلاف المعنى ، وذلك من أبواب البديع ، وقد بيناه فيما تقدم » [4].

٥) **الاستثناء** : وهو من أبواب (الصناعتين) [5]، وورد في إعجاز القرآن للباقلاني [6] . وورد عند ابن الافليلي في شاهدين ، قال بعد شرح بيت المتنبي :

لم يتركوا أثراً عليه من الوغى   إلا دماءهم على سرباله

« وهذا من البديع يعرف بالاستثناء [7]وعلق بالعبارة نفسها على قوله :

---

١) شرح الديوان : ٤٥ .

٢) صفحة ١٠٧ . وهو عند ابن المعتز في ص ٧٤ باسم المطابقة بينما سماه قدامة التكافؤ ص : ١٦٣ . وهو في الصناعتين : ٢٣٨ . وانظر البلاغة تطور وتاريخ :٨٨ — ٧٩ والباقلاني ٨٠ – ٨٣ .

٣) صفحة : ٥١ .

٤) صفحة : ١٤٥ . وهو تحت اسم التجنيس في ابن المعتز ٥٥ ، والصناعتين : ٢٤٩ والمجانسة في قدامة ١٨٦ — ١٨٧ وباللقبين في الباقلاني: ٨٣ — ٨٧ .

٥) صفحة : ٢٣٤ .

٦) صفحة : ١٠٦—١٠٧ .

٧) صفحة : ٥٤ .

ولم يكفها تصويرها الخيل وَحْدها فصوّرت الأشياء إلا زمانها

٦) **الهزل يُراد به الجد** : لم يسمه صراحة بأنه من البديع ، ولكن سياق كلامه يدل على ذلك ، شرح بيت المتنبي :

خذوا ما أتاكم به واعذروا فإنّ الغنيمـة في العاجـل

ثم قال هازئاً بهم : خذوا ما أتاكم من هذه الوقعة متجوزين وتصيّروا لذلك عاذرين فان الغنيمة فيما استعجل ، والغبطة فيما اقتضى ، وهذا على طريق الهزل بهم ، والتوبيـخ بالوقيعة التي عجلها سيف الدولة لهم[١] » .

٧) **التقسيم** : وَرد عند قدامة ، وعند أبي هلال باسم (صحة التقسيم) ، وشاهده من شعر المتنبي :

للسبي ما نكحوا ، والقتل ما ولدوا

والنهب ما جمعوا ، والنار ما زرعوا

وقال بعد شرحه «ومثل هذا التصنيف باب من البديع يعرف بالتقسيم»[٢] .

٨) **المَثَل** . أورد قدامة هذا الباب باسم التمثيل ،وصاحب الصناعتين باسم المماثلة ، وفرّعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى[٣] ، وهو يشمـل الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية[٤] . ويلحق بهذا الباب ما يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر[٥]. وهذا المعنى الاخير هو الذي انتبه إليـه ابن الافليلي في القسم الموجود لدي من شرحه . قال المتنبي :

كلّ يريـد رجاله لحيـاته يا من يريد حياتـه لرجاله

دون الحلاوة في الزمان مرارة لا تُختطى إلا على أهواله

١) صفحة : ٢٨ . وهذا الباب عند ابن المعتز صفحة ١١٢ .

٢) صفحة : ٩٣ .وهذا الباب باسم صحـة التقسيم في نقد الشعر: ١٤٩ .وفي الصناعتين ٢٦٧ .

٣) نقد الشعر لقدامة : ١٨١ .

٤) البلاغة تطور وتاريخ : ٢١٧ .

٥) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع : ٢١٧ .

وعلق على البيت الثاني بعد الشرح « وضرب هذا مثلا فيما قدمه ، والمثل أرفع وجوه البديع » [1] ، وعلق على قوله :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائد

فقال « وهذا مثل سائر ، والمثل من البديع قد تقدم تنبيهنا عليه » [2] .

٩) **حسن الخروج** : وهذا الباب عند ابن المعتز : ١٠٩ ، وفي الصناعتين : الخروج من النسيب الى المدح وغيره : ٣٦١. وليس فيما بين يدي ما ينص صراحة كعادته على أنه باب من أبواب البديع ولكنه قال في شرح المتنبي :

... وهبت السلو لمن لامني وبتُّ من الشوق في شاغل
كأنَّ الجفون على مقلتي ثيابٌ شُققن على ثاكل
ولو كنت في أسْرِ غيرِ الهوى ضمنتُ ضمانَ أبي وائل

... ثم خرج إلى وصف أمن أبي وائل أحسن خروج فقال: ولو كنت أسير غير الحب ومغلوباً في غير العشق [لاحتلت] بحيلة أبي وائل ، وضمنت لآسري ضمانه وسلكت في الاحتيال عليه سبيله » [3] .

١٠) **الاشارة والايماء** : قرن اللقبين معاً في أحد تعليقاته ، وأفرده باسم الإيماء مرة . وعرف قدامة الاشارة بقوله :«وهي أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها .. » [4] قال المتنبي :

قد بلوت الخطوب مراً وحلواً وسلكتُ الايام حَزناً وسهلا
وقتلت الزمان علماً فما يعـرف قولاً ولا يجدّد فعلا

قال ابن الافليلي بعد شرح البيت الاول « ثم قال وقد قتلت الزمان علماً بأمره وإحاطة بوجود تصرفه فما يسمعك قولاً تستغربه ، ولا يجدّد لك فعلا تتهيَّبُه ، ولا يطرفك إلا بما قد أتت عليه معرفتك وأحاطت بأمثاله تجربتك . وأجرى جملة لفظه في البيتين على سبيل الاستعارة ، والإيماء والاشارة ، وذلك من بديع

١) صفحة : ٥٦ . ٢) صفحة : ١٠٩ .
٣) ص ٢٤ ، وما بين معقوفتين من العُكبرى : ٨ : ٣٠ .
٤) ص ١٧٤ . ووردت الاشارة في الباقلاني : ٩٠ — ٩١ .

الكلام » . وعلق على قول المتنبي :

عليها رياض لم تحكها سحابة وأغصان دَوح لم تغنّ حمائمه

بقوله .. وهذا من البديع يعرف بالإيماء [1] . »

(١١) المبالغة : لم ينص ابن الإفليلي صراحة على أنها من أبواب البديع ، وسأورد المعرض الذي سوغ لي اعتباره في أنواع البديع عنده . وقال في الصناعتين : المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته . وضرب الأمثال على ذلك [2] .وأورد ابن الأفليلي أبيات المتنبي الثلاثة :

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه

الشمس من حساده ، والنصر من قُرَنائه والسيف من أسمائه

أين الثلاثة من ثلاث خصاله من حسنه ، وإبائه ، ومضائه

ثم علق بعد الشرح : « وهذه طريقة من المجاز يحسنها للشعراء ما يحاولونه من بلوغ غايات المدح ، وما يتعارف من مثلها في اللغة » .

وبعد فالشارح منقاد في هوى المتنبي معجب به ، لم نجد له نقداً فيه ولا قدحاً في معنى من معانيه أو إشارة لمقالة يقولها هو فيه أو ينقلها . بل كان كما بينت يلتمس لشوارد المتنبي واستعماله الضعيف من وجوه اللغة والنحو ما يسوّغ ذلك ، ولا يعنى بترجيح الذي تركه المتنبي وهو راجح ، ويصدر عن إعجاب به ، وتمثل لمعانيه ، وحفظ لخبره ، وهو نموذج من نماذج « الشراح التّعليميين » كما قدّمنا لذلك ، ولولا ما التقطناه من بعض الملاحظات عن (البديع) لما كان في الشرح إلا تبيان بعض الألفاظ لغوياً ، وشرح معاني الأبيات .



١) ص ٢٦٦ .

٢) ص ٤ : ٤

شرح الأعلم الشنتمري

على الشعراء الستة

٤١٠ – ٤٧٦ *

من الآثار الأندلسية الهامة التي تختلط أهميتها بعوامل مشرقية وعوامل أندلسية كتاب « شرح الأشعار الستة » للأعلم الشنتمري . وهو « أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري الأندلسي، من شنتمرية الغرب[1] ». ولقب بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا[2]. رحل إلى قرطبة وأقام بها زماناً، وبها تلقى عن شيوخ جلة . وفي مقدمة تأليفه لشرح الاشعار الستة نرى أنه قدم كتابه هذا إلى المعتمد بن عباد ، كما أن وفاته كانت في إشبيلية. فهو تنقّل إن في طلب العلم ، أو في بث العلم ، واستيفاء مطالب الحياة . وولد الأعلم سنة عشر وأربع مئة ، وتوفي سنة ست وسبعين وأربع مئة ، فمعظم حياته أوكلها كانت في ظل دول الطوائف ، التي سبق أن ألمعتُ إلى شيء من خصائصها . ولا شك في أن تقريب المعتمد إياه كان لما عرف عن دولة المعتمد من انتعاش الحركة الادبية ، وما وصف به المعتمد نفسه من أنه « يمثل خير ممثّل للشاعر

* ترجمته في الصلة لابن بشكوال ٢ : ٦٨١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٦ : ٧٩ – ٨٠ وبغية الوعاة للسيوطي ٢ : ٣٥٦ ، ونفح الطيب ٥ : ٢١٤ . وذكره في المطمح (الطبعة الأولى – الآستانة – ١٣٠٢) ص ٦٤ في ترجمة حفيده أبي الفضل جعفر بن محمد بن الأعلم . وانظر : إرشاد الأريب ٢٠ : ٦٠ – ٦١ ، ونكت الهميان : ٣١٣ وذكره في الروض المعطار للحميري (مصر ١٩٣٧) : ١١٥ في « شنتمرية » و :
Brock, G, I, 309, S, I, 542.

١) حصن من أعمال شنتبرية (ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٢٨) وفي المغرب ١ : ٣٩٥ « مدينة مشهورة تعرف بشنتمرية الغرب ، لأن هنالك شنتمرية الشرق » .

٢) ابن خلكان ٦ : ٨٠

الأندلسي ، ولحماة الأدب المهذبين »[1] وهو يقول في تقديم كتابه إليه « ولما صح لي من ذلك ما أمّلته ، وظفرت منه بما رجوته وتمنيته، سميته باسم من شهد أهل العصر بسموه وتقديمه وأجمعت الجماعة على تعظيمه وتكريمه .. الظافر أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله ، أدام الله علاءهما ، وفي درج العز ارتقاءهما [2] » . والنص يدل على أن الأعلم قدم كتابه إلى المعتمد في حياة والده المعتضد . وبالرغم من أنه لم يزد عمره حين وفاته عن ست وستين سنة هجرية ، الا أنه كف بصره في أخريات أيامه [3] .

من شيوخ الأعلم أبو سهل يونس بن أحمد الحراني ، وفي فهرسة ابن خير أن الأعلم روى عنه الألفاظ لابن السكّيت وغيره [4] ، وأبو القاسم ابراهيم بن محمد الإفليلي وروى عنه كتباً عديدة في اللغة والشعر ، وفي ياقوت وابن خلكان أن الأعلم « ساعد شيخه ابن الافليلي المذكور على شرح ديوان المتنبي » [5] ولا ندري ممنى هذه المساعدة ولا مقدارها ، إلا أن ابن خير نص على أن الاعلم قرأ على ابن الافليلي ديوان المتنبي ، وعبارة ابن خير في روايته الديوان هي « وحدثني به ـ يعني ديوان المتنبي ـ أبو بكر محمد بن عبد الغني بن عمر بن فندلة رحمه الله ، قال : حدثني به أبو الحجاج يوسف بن سليمان النحوي الأعلم رحمه الله قراءة عليه ، قال حدثني به أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن الإفليلي قراءة مني عليه . » ولعل ما بينهما في أمر الديوان مثل ما يكون بين الأستاذ وتلميذه النجيب من مباسطة ومشاورة ، وقد يكون الأعلم دوّن شرح استاذه . ومن شيوخه : أبو بكر مسلم بن أحمد الأديب.[6] وممن أخذ عنه أبو بكر محمد بن عبد الغني بن عمر

١) أدب الأندلس وتاريخها (سلسلة محاضرات) ليفي بروفنسال ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة وعبد الحميد العبادي ـ القاهرة ١٩٥١ ـ ص ١٤ .
٢) ديوان امرىء القيس بشرح الأعلم الشنتمري ، دار المعارف بمصر ، ط الثانية . ص ٥ .
٣) الصلة ٢ : ٦٨١ . ٤) ابن خير : ٣٣٠ ، ٣٩٩ .
٥) ٦ : ٨٩ . ٦) الصلة ٢ : ٦٨١ ، وفيات الأعيان ٦ : ٧١ .

ابن فندلة [١] وأبو علي الغساني [٢] والوزير أبو الوليد اسماعيل بن عيسى بن حجاج اللخمي ، وأبو بكر محمد بن غالب القرشي العامري [٣] ، وغيرهم .

ثقافته :

ومن سرد اسماء الكتب التي تلقاها أو رواها ونقل روايتها عنه مَن بعده حتى وصلت إلى ابن خير ، نرى أن اهتمام الأعلم كان موزعاً بين النحو واللغة والأدب : الشعر منه بخاصة . ومعظم تراجمه تذيَّل عادة بعبارة (النحوي) لمكانته من علم النحو ، ومؤلفاته فيه كما سنبين . ولكن شهرته أديباً وشارحاً ، وقيمته في ذلك ، لا تقل عن شأوه نحوياً فذاً متقدماً . فقد قرأ الكامل لأبي العباس المبرد على ابن الإفليلي [٤] ، وقرأ عليه أيضاً نوادر أبي علي [٥] وذيل النوادر [٦]. وقرأ عليه من كتب اللغة كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد [٧] ، وقرأ كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت على أبي سهل يونس بن أحمد الحراني [٨] وقرأ عليه أيضاً: اختيار الفصيح لثعلب [٩] والأمثال لأبي عبيدة [١٠] وقرأ على ابن الافليلي شعر أبي تمام [١١] وشعر أبي الطيب المتنبي [١٢]. كما ذكر ابن خير في فهرسته رواية الأعلم الشنتمري لكتاب سيبويه عن ابن الافليلي [١٣] وشعر طفيل الغنوي [١٤] وشعر الحطيئة [١٥] وشعر عمرو بن أحمد الباهلي [١٦] وقرأ لحن العامة ومختصر لحن العامة ، وكتاب أبنية كتاب سيبويه ، وثلاثة الكتب هذه للزبيدي [١٧] كما ذكر أنه أقرأ أدب الكتاب [١٨] لابن قتيبة . وله رواية وثّقها ابن خير تتصل بأبي علي البغدادي ، بعد سرد الكتب التي نقلها أبو علي إلى الاندلس [١٩] . واذا كان

---

١) فهرسة ابن خير : ٣٠٥ .

٢) كذا أسماه في الصلة ، وهو في وفيات الاعيان: أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد النسائي: تصحيف من الناشر لكلمة الغساني .

٣) فهرسة ابن خير : ٣٢١ .

٤) ابن خير : ٣٢١ . ٥) ابن خير : ٣٢٣ . ٦) ابن خير : ٣٢٥ .

٧) ابن خير : ٣٢٨ . ٨) ابن خير : ٣٣٣ . ٩) ابن خير : ٣٣٨ .

١٠) ابن خير : ٣٤٠ . ١١) ابن خير : ٤٠٢ . ١٢) ابن خير : ٣٤٣ .

١٣) ابن خير : ٣٠٥ . ١٤) ابن خير : ٣٩٣ . ١٥) ابن خير : ٣٩٢ .

١٦) ابن خير : ٣٤٦ - ٣٤٨ ١٧) ابن خير : ٣٣٣ .

١٨) ابن خير : ٣٩٩ . ١٩) ابن خير : ٣٩٩ .

هذا ما وصلنا خبره عن ثقافة الرجل ومركزه من الدراسات العربيـــة في تلك الحقبة من التاريخ الفكري، فإن ما يمكن أن نتوقعه من تمام ثقافته يؤهله للثناء الذي نجده في الكتب ، وللاحترام الذي جعله موئلاً للفتوى في اللغة والادب والنحو على السواء . وحفظ لنـا المقري في نفح الطيب ، قصة لطيفة وأثراً صغيراً طريفاً من آثار الأعلم . فقد استفتى المعتمد بن عباد [1] الأعلم الشنتمري في ضبط كلمة المسهب ، أهي بفتح الهاء أم كسرها ؟ وطلب إليه تعيين مرجعه الذي به يرجّح . قال المقري إنه ظل زماناً يستشكل ضبط هـذه الكلمة إلى أن قال : « ولم يزل ذلك يتردد في خاطري إلى أن وقفت على سؤال في ذلك رفعه المعتمد بن عباد سلطان الأندلس إلى الفقيه الأستاذ أبي الحجاج يوسف ابن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري المشهور بالأعلم ، « سألك ابقـــاه الله الوزير الكاتب أبو عمرو بن غطمش سلمـه الله عن المسهب ، وزعم انك تقول بالفتح والكسر . والذي ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب ، والزبيدي في مختصر العين : أسهب الرجـل فهو مسهَب إذا أكثر الكلام ، بالفتح خاصة ، فبيِّنْ لي أبقاك الله تعالى ما تعتقد فيه ، وإلى أي كتاب تسند القولين، لأقف على صحة من ذلك[2]»ونقل المقري ما قاله الأعلم وهو الرسالة التي وردت في فهرسة ابن خير (صفحة ٣١٥) . وأورد – بعدُ المسألةَ نظماً ، نظمهـا الأعلم نفسه[3]. وفي المقري أيضاً [4] ،مناقشه الأعلم المسألة الزنبورية التي ذكرها ابن خير (ص ٣١٥) في مؤلفات الأعلم ، وهي جواب الأعلم على سؤال أحد الأدباء عن المسألة ، وعن مسائل تتعلق بسيبويه وسيرتـه ، والرسالة في نفح الطيب كاملة . وهذا يعلل ما تصفه به كتب التراجم ، فقد قال في الصلة : « وكان عالماً باللغات والعربية ، ومعاني الأشعار ، حافظاً لجميعها ، كثير العناية

---

١)ونقل ابن بسام في الذخيرة في ترجمة ابن وهبون المرسي : « وكان الأستاذ أبو الحجاج الأعلم يومئذ زعيم البلد ، وأستاذ ولد المعتمد . الذخيرة القسم الثاني المخطوط –(نسخة دار الكتب المصرية – رقم ٣٦٧٢ أدب) ص ٢٢ .

٢) نفح الطيب : ٥ : ٢١٧ . ٣) نفح الطيب : ٥ : ٢١٨ .

٤) نفح الطيب : ٥ : ٢١٩ .

بها ، حسن الضبط لها ، مشهوراً بمعرفتها وإتقانها (١)»وقال بعدها « اخذ الناس عنه كثيراً ، وكانت الرحلة في وقته إليه (١) »وقال المقري « والأستاذ الأعلم هو إمام نحاة زمانه ، .. من رجال الصلة والمسهب والسمط ، وهو شارح الاشعار الستة (٢) » .

وفي فهرسة ابن خير أكبر ثبت لما عُرِف عن تواليف الأعلم الشنتمري. وهي كتاب الأشعار الستة، وشرح أشعار الحماسة (٣) ، والنكت في كتاب سيبويه (٤) وعيون الذهب في شرح أبيات كتاب سيبويه (٥) ، والمخترع في النحو (٦) ، وفهرسته(٧) وجزء فيه معرفة حروف المعجم(٨)وجزء فيه مختصر الأنواء(٢)، أو معرفة الأنواء ، والمسأله الزنبورية (٣) والمسألة الرشيدية (٩) ، والفرق بين المسهِب والمسهَب (٦) ونقل ابن خلكان أن للاعلم شرحاً على الجمل في النحو للزجاجي ، وشرح أبيات الجمل في كتاب مفرد (١٠) . ولا نعرف كثيراً عن علاقاته بأهل عصره ، ولكننا نتوقعها كما تكون علاقات العلماء المشهورين بمعاصريهم من علماء وحكام وطلاب علم ، وعبارة ابن بشكوال من أن « الرحلة كانت في وقته إليه » كثيرة الإيحاءات والدلالات ، ولعله شارك في شيء من هذا الشعر على عادة ما يتملَّح به النحاة ، واللغويون ، والفقهاء أيضاً ، ومن ذلك ما خاطب به المعتمد بن عباد، وهي أبيات توضّحُ إلى حد غير قليل مكانة كل واحد من الآخر ، بالإضافة الى ما أشرنا إليه قبل . قال :

---

١) الصلة لابن بشكوال : ٢ : ٦٨١ .

٢) نفح الطيب ٥ : ٢١٤ . ٣) فهرسة ابن خير : ٣٨٨ . ٤) ابن خير : ٣١٤ .

٥) ابن خير : ٣١٤ ، والكتاب مطبوع ، واسمه تحصيل عين الذهب .

٦) ابن خير : ٣١٥ . ٧) ابن خير : ٤٣٢ . ٨) ابن خير : ٢ . ٤٢٢ .

٩) ابن خير : ٣١٥ . وذكر ابن عبد الغفور الكلاعي هذا النص باسم : الرسالة الرشيدية ، وذكر حادثة حول الكتاب (إحكام صنعة الكلام – الكلاعي : صفحة ٦٨) .

١٠) ابن خلكان ٦ : ٧٩.والموجود من كتب الأعلم ١) شرح الاشعار الستة ٢) تحصيل عين الذهب ٣) شرح الحماسة (ذكره الزركلي في الاعلام ٩ : ٣٠٨) وفي دار الكتب المصرية نسخة من حماسة أبي تمام برواية الأعلم ٤ ونقل في نفح الطيب المسألة الزنبورية . والفرق بين المسهب والمسهب (٥ : ٢١٥ – ٢٢٦) .

يا مَن تملّكني بالقول والعمل ومُبلغي في الذي أملته أملي
كيف الثناء وقد أعجزتني نِعَماً مالي بشكري عليها الدهر، من قبل
رفعت للجود أعلاماً مشهرة فبابك الدهرَ منها عابر السبل[1]»

وأعقب الأعلم الشنتمري وأنجب، فابنه الوزير أبو بكر محمد، وحفيده أبو الفضل جعفر، وكان قاضي شنتمريه في وقته.[2]

شرح الأشعار الستة: سنقتصر في هذا البحث على دراسة كتاب الأعلم الشهير، الذى شرح فيه دووابن ستة من كبار شعراء الجاهلية، وهم: امرؤ القيس، والنابغة، وعلقمة، وزهير، وطرفة، وعنترة، بحسب ترتيب شرحهم في الكتاب. وفي دار الكتب المصرية نسختان من الكتاب، واحدة في المكتبة الشنقيطية برقم (٨١ أدب ش) وتحت عنوان: «شرح الأشعار الستة» وثانية في المكتبة التيمورية برقم (٤٥٠ شعر تيمور) وعنوانها: «شرح الدواوين الستة». وفي فهرست ابن خير أن اسم الكتاب «الأشعار الستة» وورد في المقرى أن الأعلم «شارح الأشعار الست» كذا. وقد طبع منه شرح شعر زهير مرات[3]، وشرح شعر علقمة[4]، وشرح شعر طرفة[5]، وطبع ديوان امرىء القيس بشرح الأعلم مرات آخرها طبعة محققة عن دار المعارف بمصر[1].

وقد يتبادر الى الذهن السؤال عن معنى اختيار الشعراء الستة هؤلاء، وأجاب بروكلمان عن مثل هذا في تاريخه بقوله «اختار قدامى الأدباء ستة من شعراء الجاهلية جعلوهم في المرتبة الأولى من التفوق والشهرة، ولعلهم فضلوهم

١) نفح الطيب: ٥: ٢١٤. ٢) نفح الطيب ٥: ٢١٤، ٢٢٦.
٣) تاريخ الادب العربي: بروكلمان (الترجمة) ١: ٩٥، ونشر الديوان في دار الكتب المصرية ١٩٩٣ – ١٩٤٤، بشرح ثعلب، وأفاد الناشرون في الحواشي من شرح الأعلم الشنتمري: المقدمة: ص ٧.
٤) المصدر نفسه: ٩٦. ٥) المصدر نفسه: ٩٢.
١) مقدمة طبعة دار المعارف ٧ – ٨. وهي طبعة حققها الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم، اعتمد فيها أساساً على شرح الأعلم وهو صاب الكتاب، وأتبع ذلك زيادات النسخ الاخرى – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٦٤.

على غيرهم لأنهم هم الذين أمكنهم أن يجمعوا لهم دواوين أطول وأكمل . . » [1] وللأعلم تعليل في مقدمته سنورده بعد قليل . وترجع أهمية شرح الأعلم إلى أنه أثر أندلسي لعالم مشهور وإلى أن روايته للدواوين معروفة النسب فهي متصلة السند إلى الأصمعي نفسه وقد ذكر ابن خير الأموي هذه الرواية في فهرسته فقال : « كتاب الأشعار الستة الجاهلية شرح الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان النحوي الأعلم رحمه الله» . حدثني بها أيضاً قراءة مني عليه لها ولشرحها: الوزير أبو بكر محمد بن عبد الغني بن عمر بن فندلة رحمه الله عن الأستاذ أبي الحجاج الأعلم مؤلفه رحمه الله ، يرويها الأستاذ أبو الحجاج الأعلم المذكور عن الوزير أبي سهيل يونس بن أحمد الحراني ، عن شيوخه أبي مروان عبيد الله بن فرج الطوطالقي ، وأبي الحجاج يوسف بن فضالة ، وأبي عمر بن أبي الحباب ، كلهم يرويها عن أبي علي القالي ، عن أبي بكر بن دريد ، عن أبي حاتم ، عن الأصمعي ، رحمه الله [2] ، وكان الأعلم يضيف بعض القصائد زيادة على رواية الأصمعي ناصاً على ذلك في مواضعه من ملحقات رواية الأصمعي في دواوينه التي شرحها [3] . ومن هنا ، نقول كما قال الدكتور شوقي ضيف : « ولا نزال بحاجة إلى نشر شرح الشنتمري [4] » . وستكون إحالتي في شراح الأعلم على ديوان امرىء القيس المطبوع ، وعلى نسختي دار الكتب من مخطوطة الشرح ، فقد راوحت العودة إليهما على فترات ، ولم أقصر القراءة على نسخة واحدة . وبين النسختين فروق طفيفة ، تلاحظ في الديوان المطبوع .

دراسة مقدمة الشارح : قدم الأعلم بين يدى كتابه بمقدمة قصيرة هامة ، بيّن فيها روايته ومنهجه ، وسمّى الشعراء الذين اختارهم ، وبيّن طريقته التي ارتضاها في الشرح ثم ختم بتقديم الكتاب إلى الظافر (المعتمد) بن عباد .

---

١) تاريخ الادب العربي - بروكلمان (الترجمة) ١ : ٨٧ .

٢) فهرسة ابن خير : ٣٨٨ - ٣٨٩ ، وانظر في تفصيل رواية الأعلم المتصلة بالاصمعي ، وسوى ذلك مما يتعلق بقيمة الكتاب : مصادر الشعر الجاهلي - الدكتور ناصر الدين الاسد دار المعارف بمصر - ١٩٥٦ - ص ٥٥ وما بعدها .

٣) المصدر السابق .

٤) العصر الجاهلي - الدكتور شوقي ضيف - الطبعة الثانية : ١٩٦٥ - ص ١٨٠ .

بدأ بذكر أن لسان العرب خير الألسنة ، ولغتها أحسن اللغات ، فهي لغة القرآن ، وبيّن أهمية الشعر العربي في ثقافة العرب ، وأن أهل الشعر أقدر على تأليف الكلام . وعلل اختياره بأنه أراد أن يجمع « من أشعار العرب ديواناً يعين على التصرف في جملة المنظوم والمنثور » فهدفه من البداية تعليمي ، يقصد به إلى تربية الناشئة على طريقة تعينهم على الإجادة في التعبير وفهم تراث العرب . ثم علل اقتصاره على ما شرح « وأن أقتصر منها على القليل . إذ كان شعر العرب كله متشابه الأغراض متجانس المعاني والألفاظ » . ولكنه أضاف إلى ذلك أنه ماز وانتقى : « وأن أؤثر بذلك من الشعر ما أجمع الرواة على تفضيله، وآثر الناس استعماله على غيره ، فجعلت الديوان متضمناً لشعر امرىء القيس .. [1] » فهو شَرَح دواوين شائعة وأشعاراً مشهورة ولكنه رسم لنفسه طريقة يؤدي بها معاني تلك الأشعار ، وملاحظاته عليها ، وأضاف أنه اختار أصح الروايات وهي رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي ، لتواطؤ الناس عليها واعتيادهم لها ، واتفاق الجمهور على تفضيلها ، وأتبعت ما صح من رواياته قصائد متخيرة من رواية غيره [2] » . ثم بيّن طريقته في الشرح منتقداً شروحاً اطّلع عليها وعاب عليها تشاغل أصحابها بجلب الروايات دون الاهتمام بشرح المعاني والألفاظ، وقال إن فائدة الشعر معرفة لغته ومعناه ، وهو لا يزال يرسم في ذهنه أحسن ما يقدم للطالب وأنجع ما يفيده ، قال : « وشرحت جميع ذلك شرحاً يقتضي تفسير جميع غريبه ، وتبين معانيه وما غمض من إعرابه « ولم أطل في ذلك إطالة تخل بالفائدة ، وتمل الطالب الملتمس للحقيقة ، فإني رأيت أكثر من ألّف في شروح هذه الأشعار قد تشاغلوا عن كشف المعاني وتبيين الأغراض بجلب الروايات ، والتوقيف على الاختلافات ، والتقصي لجميع ما حوته اللفظة الغريبة من المعاني المختلفة ، حتى إنّ كتبهم خالية من أكثر المعاني المحتاج اليها ، ومشتملة على الألفاظ والرواية المستغنى عنها ، وفائدة الشعر معرفة لغته ومعناه ، وإلا فالراوي له كالناطق بما لا يفهم ، والعامل بما لا يعلم ، وهذه صنعة

١) ديوان امرىء القيس : ٣ .

٢) ديوان امرىء القيس : ٤ .

البهائم ولذلك قال أحد الشعراء يذكر قوماً بكثرة الرواية ، وقلة التمييز والدراية :

زواملُ للأشعار لا علمَ عندهم بجيّدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وقد فسرت جميع ما تضمنه هذا الكتاب تفسيراً لا يسع الطالب جهله ، ويتبيّن للناظر المنصف فضله .»[1] . وختم برفع الكتاب وإهدائه . والفقرة السابقة المقتبسة من مقدمة الأعلم تبين طريقة الرجل ومنهجه بدقة وعناية .

دراسة الشرح : طريقة الأعلم في شرحه على الدواوين الستة واحدة تقريباً. فهو يبدأ القصيدة بموجز لمناسبتها في بعض الاحيان ، وبدون مناسبة أحياناً وهو يبدأ الشرح بإيضاح لغوي لعدد من المفردات الغريبة ، ويتبعه بشرح المعنى العام. وهو دقيق في شرحه الغريب من الألفاظ ، ويتوخى أن يكون ذلك ملائماً لمعنى البيت ، بمعنى أنه لا يورد من معاني الكلمة إلا ما يتسق مع الموضوع المطروح . ومن أمثلته قوله في شرح قول امرىء القيس :

سما لك شوق بعدما كان أقصرا وحلت سُليمى بطن قوٍّ فعرعرا

«يقول : سما لك الشوق أي ارتفع وذهب بك كل مذهب ، لبعد الأحبة عنك بعد ما كان أقصر عنك وكف بقرب من تحب دنوه منك . وقوّ وعرعر موضعان . يقول : حل قومها بهذين الموضعين المتباعدين عن ديارك ، واشتد لذلك شوقك وتضاعف حزنك ».[2] فهذا مثال لشرح الغريب ، وشرح المعاني. فهو يوجز ويؤدى المعنى ويكتفي عن فضول الكلام .

ويلاحظ في شرحه أنه يقف عند الكلمة ليحدد دقائق معانيها ، فيكون شرحه بالتالي أكثر دقة ، وهو بهذا يكثر التعليل ، وتطلّب ورود كلمة دون أخرى ، ومثله :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

السّقط والسّقط ، والسُّقط : منقطع الرمل. واللوى حيث يلتوي ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض،

---

١) الديوان — ص : ٤ . ٢) ديوان امرىء القيس : ٥٦ .

ليكون ذلك أثبت لأوتاد الأبنية وأمكن لحفر النؤي ، وإنما تكون الصلابة حيث ينقطع الرمل ، ويلتوي ، ويرق »[1] . وقال بعد أبيات :

كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمُرات الحي ناقف حنظل

... وإنما خص ناقف الحنظل لأنه لا يملك سيلان دمعه ، كما لا يملكه من اشتدّ شوقه وحزنه[2] » وقال في شرح البيت :

« ويا رب يوم قد لهوت وليلة بآنسة كأنها خطّ تمثال

... وقوله خط تمثال أي نقش صورة ، والتمثال والمثال : كل ما مثلته بشيء . وإنما شبهها بالتمثال لأن الصانع له يتأنق في تحسينه ويمثله على أحسن حال[3] » . وقال في شرح بيت امرىء القيس يصف الناقة :

بعيدة بين المنكبين كأنها ترى عند مجرى الضّفر هِراً مُشجراً

... وإنما خص الهر لأنهم كانوا لا يتخذونها في البوادي حيث تكون إلا قليلا ، فكانت إبلهم لا تعرفها. فذلك أشد لنفارها وجزعها[4] ».وظاهرة تعليل الشارح لبعض الكلمات أو العبارات ظاهرة مطردة في سائر أنحاء الكتاب على هذا النحو . وهذا يقرب إلى الذهن كثيراً من التعبيرات التي يحار القارىء في تعليل إصرار الشاعر عليها دون سواها . وهو ثمرة من ثمرات ثقافة الشارح اللغوية ، بالإضافة إلى ما نلمسه من ذوق أدبي وتذوق لدقائق المعاني .

وهو كثيراً ما يحيل استعمالات شاعر ما على ما دأب عليه **«استعمال العرب»** من أساليب وطرائق في التعبير عن المعاني ، أو في التصوير . قال في شرح النابغة :

« يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت فيها أُصيلانا أسائلها عيّت جواباً وما في الربع من أحد

إنما قال يا دار مية توجعاً منه لانه كان معها مقيماً بها في سرور ونعمة زمن مرتعهم ، ثم انقضى ذلك ، فجعل يخاطبها توجعاً منه لِما رأى وتذكراً لما

---

١) ديوان امرىء القيس ص : ٨ . ٢) ديوان امرىء القيس ص : ٩
٣) ديوان امرىء القيس ص : ٢٩ ٤) ديوان امرىء القيس ص : ٦٣

عهده منها . والعلياء ما ارتفع من الأرض . والسند : سند الجبل وهو ارتفاعه حيث يسند فيه أي يصعد ، وإنما جعل الدار بالعلياء والسند لأنها إذا كانت في موضع مرتفع لم يضرها السيل ، ولا انهال عليها الرمل . وقوله أقوت أي خلت من الناس وأقفرت ، ولم يقل أقويت ، لأن من كلامهم أن يخاطبوا الشيء ثم يتركوا خطابه ويكنوا عنه كقوله عز وجل: « حتى إذا كنتم في الفلك وجَرَيْنَ بهم [1] » وقال في موضع آخر من شرح امرىء القيس :

« كأن دمى سقف على ظهر مرمر   كسا مزبد الساجوم وشياً مصوّرا

... والعرب ربما شبهت الشيء بالشيء فجعلت في المشبه به بعض صفات المشبه اتساعاً ومجازاً ، [2]. » . وقال في موضع آخر في ديوان امرىء القيس : « وإنما يشبهون الرسوم بالكتاب لأنها تدل على مواضع الديار وتبينها كما يدل الكتاب على المعنى المراد،ويعبر عنه مع دقته وحَقَشْرة حروفه [3] ». ونقع على مثل هذا في مواضع المعاني التي طرقها العرب وتعارفوا على رسوم واضحة مطردة لها . وهو يستخدم النحو في شروحه ، وتسنح منه بوادر يُدل فيها بعلمه ، ومعرفته بأطراف النحو ، ومَيّزه لمدارسه بين كوفة وبصرة ، ويفيد من هذه المعلومات في تبين اختلاف المعنى بحسب توجيه الإعراب. فمن ذلك شرحه .

« أبى الله إلا عدله ووفاءه   فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

... وقوله : أبى الله إلا عدله ووفاءه يحتمل أن تكون الهاء في قوله « عدله ووفاءه » عائدة على (الله) عز وجل . أي أبى الله إلا أن يعدل بين عباده ويفي لهم بما وعدهم به وأوعدهم من الخير والشر ، وهما الثواب والعقاب . ويحتمل أن تكون الهاء عائدة على النعمان أي أبى الله إلا أن يعدل [النعمان]

---

١) شرح الأشعار الستة – ٨١ أدب ش بدار الكتب – شرح ديوان النابغة : ٢٨ / ط.
٢) ديوان امرىء القيس : ٥٩ .
٣) ديوان امرىء القيس : ٨٩ ، وحقرة الحروف : صغرها .

ويفي . أي قد جعله كذلك ، وخلقه للعدل والوفاء[١]. ونلمح طريقته في طلب التعليل ، في تفسير الامور المتصلة بالنحو ، مثل شرحه :

« لعمري وما عمري على بهين لقد نطقت بُطلا عليّ الأقارع

قال بعضهم : معناه لديني . والمعروف أن معناه البقاء . وإنما حلف بها لأنها يمين كثرت في الاستعمال ، فحلف بها ، ولم يكن قصده أن يقسم ببقائه[٢] » وهو تعليل جيد، ونفوذ إلى حقائق ما تقصد إليه العرب من بعض استعمالاتها. وقد تكون الملاحظات النحوية عامة أي لا تتصل بالشرح مباشرة ، مثل شرحه :

« على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألمّا أصح والشيب وازع

... ويجوز نصب حين وخفضها ، وكذلك أسماء الزمان إذا أضيفت إلى الأفعال فالنصب على البناء لإضافتها إلى غير متمكن ، والخفض على تقدير إضافتها إلى المصدر ، لأن الفعل دال عليه[٣]» . ويشير إلى لغتي الحجاز وتميم مثل شرحه :

« بمصطحبات من لِصاف وثَبْرة يزرن إلالاً سيرهن التدافع

... ولصاف وثبرة موضعان . ولصاف مبنية على الكسر . وهي معدولة في لغة أهل الحجاز ، ومعربة غير مصروفة في لغة بني تميم » .[٤] كما يشير إلى بعض الخلاف بين الكوفيين والبصريين مثل شرحه :

« فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل

... والواو في وانتحى زائدة عند الكوفيين ، وهي عند البصريين للعطف ، وجواب لما محذوف لعلم السامع[٥] » . وإذا كان في شرح الأعلم شيء يزيد على شرح الغريب وشرح المعاني فهو تلك الملاحظات النحوية المبثوثة في أثناء الشرح والتي يقدم لها الأعلم بعبارة لطيفة ، ويقرب بها المادة النحوية ويعللها .

أما ملاحظاته الأخرى فأشياء ثانوية لا تعتبر من معالم شرح الأعلم الشنتمري المباشرة ، وإنما هي أمور تتخلل الحديث بما يسوقه من اتفاقات ، وضرورات تتعلق بإيضاح المعنى أحياناً . مثل تنبيهه على ذي المجاز ومواسم العرب تنبيهاً

---

١) شرح الأعلم (تيمور) : ٩٤ . ٢) المصدر نفسه : ٩٢

٣) شرح الأعلم (تيمور) : ٩٢ . ٤) المصدر نفسه : ٩١ . ٥) المصدر نفسه : ٩٣ .

سريعاً »[1] . أو إشارة إلى ضرورة شعرية ارتكبها النابغة في قوله :

« ردّت عليه أقاصيه ولبّده   ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد »

قال وسكّن الياء من أقاصيه ضرورة، وذلك تشبيهاً بالألف لأنها لا تكون إلا ساكنة . والياء أختها في المد واللين فحملت عند الضرورة عليها »[2] . أما استشهاده بالقرآن الكريم والشعر العربي فقليل ، على عادته في ارتياد موضوعه مباشرة وبأقل ما يمكن من الاعتراضات . وقد يقف عند مواضع لم يتفق عليها الرواة أو الشراح قبله ، ويعرض وجوه المسألة ، مثل وقفته عند قول النابغة :

« لكلفتني ذنب امرىء وتركته   كذي العرّ يُكوى غيره وهو راتع

قوله لكلفتني جواب لقوله حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . والعر داء يصيب الإبل . وقيل قرح بمشفر البعير فاذا أرادوا أن يعالجوه كووا بعيراً آخر صحيحاً فيبرأ ذلك البعير . كذا حُكي عن فصحاء العرب ، ممن حمل عنهم الروايات . وكان أبو عبيدة يقول : هذا لا يكون ، وإنما هو مَثَل ، أي أخذتني بذنب غيري ، وكذا قال الناس : يشرب عجلان ويسكر ميسرة . وكذا قول أبي عبيدة في قوله : (كالثور يضرب لما عافت البقر) قال وإنما هذا مثل ، وهذا لا يكون . وحكى غيره أنه يضرب ليتقدم إلى الماء ، فإذا رأته البقر تقدمت فشربت . وقيل إن الثور ها هنا مصدر ثار الماء يثور ثوراً. وإنما يضرب باليد للبقر وغيرها إذا عافت الشرب علاجاً ومداراة لتشرب[3] » فنحن نرى كيف انساق به الحديث من رأي إلى آخر ومن تعليل إلى تعليل ، وهو في ذلك كله يعتّني بالاسماء ، وينقل عن الرواة ، ويبسط المسألة غاية البسط . وقد يورد في البيت رواية أو أكثر ، ويرجح بين الروايات معتمداً على حسه الذوقي أو ما بلغه من طرائق العرب واستعمالاتهم . قال في شرح النابغة :

« تجلو بقادمتي حمامة أيكة   برداً أسفّ لثاته بالإثمد

---

١) شرح الأعلم (ش) : ٣٢ / ظ .

٢) شرح ديوان النابغة (نسخة ٨١ أدب ش) : ٢٩ / و .

٣) شرح ديوان النابغة (نسخة تيمور : شعر ٤٥٠) : ٩٣ / ظ – ٩٤ / و .

... وأراد بالحمامة القُمرية ، وخص القادمتين لأنها أشد سواداً من سائر الريش وقيل : أراد بالقادمتين إصبعيها يعني أنها تجلو أسنانها بالسواك . وشبهها بالقادمتين لطولها ولطافتها . والقول الأول أصح [١] » .

ولا تخطئنا ترجيحاته ومقارناته ، وهو كثيراً ما يشير إلى اختلافات الروايات ، وينص على أصحابها .

وهو قليلاً ما ينبه على مواضيع بلاغية في شرحه . فقد استنفد منهجُه طاقته ، وهو تركيزه على إيضاح المعاني في المقام الاول — كما صرح في المقدمة — وما عرضه من فنون البديع مصادفة ، فإنما هو لتعلقه بإيضاح المعاني ، كقوله في التشبيه في شرح قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

« وشبه الليل بموج البحر في تراكمه وشدة ظلمته وتتابعه [٢] » . وقد يُفيض شيئاً في بيان التشبيه كما في شرح بيت النابغة :

قامت تراءى بين سِجفي كِلّة   كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

« ... وشبهها بالشمس لإشراقها وحسنها ، وجعل طلوع الشمس بالأسعد ليكون ذلك أتم للتشبيه وأبلغ في الوصف ومقام الوزن [٣] » . وأشار إلى الكناية مرات ، كقوله في شرح بيت النابغة :

« من وحش وجرة موشيّ أكارعُه   طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

وقوله طاوي المصير أي ضامر . والمصير المعي ، وكنى به عن البطن [٤] » .

وأشار إلى ضرب المثل في قول النابغة :

تبدو كواكبه والشمس طالعة   لا النُّور نورٌ ولا الإظلام إظلامُ

أو تزجروا مكفهراً لا كفاء له   كالليل يخلط إصراماً بإصرام

قوله : تبدو كواكبه : ضرب هذا مثلاً لشدة الليل وهوله ، كما يقال :

---

١) شرح ديوان النابغة (أدب ش) : ٤٠ / ظ .
٢) ديوان امرىء القيس (المطبوع) : ٢٨ .
٣) شرح ديوان النابغة (أدب ش) ٤٠ / و .
٤) من شرح ديوان النابغة (أدب ش) : ٢٩ / ظ .

أريته الكواكب نهاراً أي أدخلت عليه من الجهد والغم ما كان النهار به عليه دليلا [١] » .

وإشاراته إلى السرقات أو ما بمعناها قليل ايضاً ، مثل ذلك ما ورد في شرح قول النابغة [٢] :

أتاك بقولٍ هَلهل النسج كاذب ولم يأت بالحقّ الذي هو ناصع
أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله ولو كُبلت في ساعدي الجوامع

وقوله ولو كبلت في ساعدي الجوامع أي لو كنت مجنوناً حتى أُشد بالحديد، ما قلت ما بلغك عني . ومثله قول أوس : « وما كنت مجنوناً فأفعل ذا كم».

وقال في شرح بيت امرىء القيس [٣] :

نَمُش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شِواء مُضهَّب

ومثل هذا قول عبدة بن الطبيب يصف لحم الصيد :

ورداً وأشقر ما يؤنيه طابخه ما غَيَّر الغلي منه فهو مأكول
ثُمّت قمنا إلى جُردٍ مسوّمة أعرافهن لأيدينا مناديل

وشرح قوله :

فبعض اللوم عاذلتي فإني ستكفيني التجاربُ وانتسابي

وهذا كقول لبيد :

فإنأنت لم ينفعك علمُكَ فانتسِبْ لعلّك تهديكَ القرونُ الأوائلُ

وفي صفحة ١١٧ من الديوان نفسه : ومثل هذا قول الآخر.. فالشارح لا يعنيه أكثر من وضع المعاني المتشابهة أمام قارئه دونما عناية بالسابق والسارق، والآخذ والمأخوذ عنه ، وكل ما لاحظت من أمثلة كان بلفظة مثل أو ما يشابهها .

ونظراً لمعرفته بالروايات الشعرية ، ومَيزه بين العالي منها وما دون ذلك ، كان يرجح بين الروايات ، وينتقد الشعر من وراء رواية ليرجح أخرى . كما أن

---

١) شرح ديوان النابغة (ش) : ٢٩ / ظ.و
٢) شرح ديوان النابغة (٤٥٠ شعر تيمور ٩٣/ و .
٣) ديوان امرى القيس (المطبوع) ٥٤ .

الشارح كان أحياناً يناقش رأي الشاعر نفسه وأسلوبه ، مشيراً إلى الصواب فيما ألِفته العرب من المعاني أو الأساليب الراجحة ، أو ملاحظاته بعامة. وعلق على قول امرىء القيس :

وليس بذي رمح فيطعنني به　　　وليس بذي سيف وليس بنبّال

قوله وليس بذي رمح وليس بذي سيف أي ليس بفارس. وقوله ليس بنبال أي ليس برام . وكان حق الكلام أن يقول : وليس بنابل لأن النابل صاحب النبل الرامي بها ، والنبال : الذي يعملها [1] » . وهذه ملاحظة ترتد إلى أصل لغوي . وعلق على قوله :

وأسحم ريان العسيب كأنه　　　عثاكيل قِنو من سميحة مرطب

« وقوله: أسحم يعني ذيلاً أسود . والريان : الممتلىء الناعم ، والعسيب عظم الذنب ، ويحمد في الفرس يبس العسيب ، ومن الناقة : امتلاؤه ونعمته ، وقد غلط امرؤ القيس في هذا [2] » وذكر قول امرىء القيس من رائيته :

كأن دمى سقف على ظهر مرمر　　　كسا مزبد السّاجوم وشياً مصورا

وقال بعده: « لم يفسر الأصمعي هذا البيت. وقال أبو حاتم: الدمى: الصور. وسقف : موضع فيه صور . وأراد أن تلك الصور مزينة بالجوهر ، فشبهها بزهو هذا النخل الذي وصف. والساجوم واد بعينه ، والمزبد : ذو الزّبد. والمصور: الذي فيه تصاوير . هذا تفسير أبي حاتم ، وهو بعيد لا يتحقق ؛ والذي عندي فيه أنه متصل بقوله « فشبهتهم في الآل لما تكمشوا » فكأنه قصد به إلى تشبيه الظعائن على الإبل ، وما عليهن من الوشي [3]». وشرح قول امرىء القيس يصف فرساً :

« إذا زعته من جانبيه كليهما　　　مشى الهيدبى في دفه ثم فرفرا

.. ومعنى فرفر : حرك اللجام في فمه . وروى «قرقرا» بالقاف أي صوّت، وليس بالجيد ، لأن الخيل لا توصف بهذا [4]» فإذا توغل فيما شغل النقاد الأوائل

---

١) ديوان امرئ القيس (المطبوع ؛ ٣٣ .

٢) شرح ديوان امرىء القيس (المطبوع) ٤٩ .

٣) المصدر نفسه : ٥٨ – ٥٩ .　　　٤) شرح ديوان امرىء القيس (المطبوع) ٦٧.

في المشرق من بعض المسائل لم يجدد في ذلك . ونقل قول بعضهم في شيء كثير من التأييد والتقليد ، مثل مناقشته قول امرىء القيس :

* وحسبكَ من غنىً شبعٌ وريٌّ *

قال « ... وكان الأصمعي يقول : امرؤ القيس ملك ، ولا أراه يقول هذا ، فكأن الاصمعي أنكرها . ويقوي ذلك قولُ امرىء القيس :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال

فنفى عن نفسه طلب القليل والرضا به ، وزعم أن الذي يرضيه ويكفيه الملك والمجد المؤثل ، فكيف يقول :

فتوسع أهلها أقطاً وسمناً وحسبُكَ من غنى شبع وريُّ

ويحتمل أن يريد امرؤ القيس أن الانسان إذا لم يطلب من الدنيا إلا الحياة والعيش دون الرئاسة وعلو الذكر . فالبُلغة من العيش تكفيه إن لم يجد غنى وكثرة مال ، والمعنى أن الإنسان لا ينبغي أن يقنع بالعيش خاصة دون الرئاسة والمنزلة . ويحتمل أن يكون قال هذه الأبيات في غدر الزمان به[1] » . وكل هذا الدوران لتمحّل معنى ملكي لهذا الشعر (المتصملك – إن صح القول –) إنما مرده إلى احترام الشارح لعبارة الأصمعي من أنه لا يرى ملكاً يقول هذا الكلام. وهو كثيراً ما يشير إلى مصادره في نقوله ، وفي تقليبه الروايات وتمحيصها ، ومن تلك المصادر ما نقله عن الأصمعي ، وأبي حاتم السجستاني ، وأبي عمرو بن العلاء ، وأبي زيد الانصاري . وهو لا شك أفاد من ثقافته الواسعة ، ونُقلت إليه مشافهة روايات القالي وشروحه ، واطلع على ما نقله أبو علي أيضاً من المشرق ، كما اتضح جزئياً من عرضنا لما في فهرسة ابن خير . وتبقى – بعد هذا – ميزة خاصة لشرح الأعلم أوجزها هو في مقدمته وحاولنا بسطها ، بما يلائم المقام من شرح ومثال .

---

١) شرح ديوان امريء القيس المطبوع : ١٣٧ .

شرح الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي
على الشعراء الستة
(٠٠٠ - ٤٩٤) *

من الأدباء اللغويين الذين اهتموا بالشعراء الستة الجاهليين ، ووصل إلينا شرحهم على دواوينهم : الوزير « صاحبُ المظالم أبو بكر عاصم بن أيوب البَطَلْيَوسي[1] » . وعلى الرغم من أن الأخبار عنه قليلة ، فإننا نستطيع أن نكوّن صورة قريبة لحياته وشخصيته ، ومكانته في شراح الأدب الأندلسيين ، من التراجم التي كُتبت عنه ، ومن أثناء شرحه على الدواوين . وعبارة « الوزير صاحب المظالم » توحي بأنه تولى منصباً إدارياً ، ولكننا لا نعلم أكثر من ذلك ، وهي عبارة وردت في أول الديوان ، وقال فيه صاحب الصلة : « عاصم بن أيوب الأديب من أهل بطليوس ، يكنى أبا بكر [2] » . وقال في صفته وبيان حاله : « وكان من أهل المعرفة بالآداب واللغات ، ضابطاً لهما ، مع خير وفضل ، وثقة فيما رواه . أخبرنا عنه أبو محمد بن السيد — البطليوسي — بجميع ما

(*) ترجمته في الصلة لابن بشكوال ٢ : ٤١٥ ، وبغية الوعاة للسيوطي (بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ٢ : ٢٤ .
وانظر : Brock, G. 1. 309 S, 1, 543.
وكشف الظنون ٢ : ١٠٤١ (طبعة استانبول سنة ١٩٤٢) . ومصادر الشعر الجاهلي ٥٠٢ وما بعدها . ومقدمة ديوان امرىء القيس : ١٤ - ١٥ . والعصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ٢٤٣ (الطبعة الثانية) .

١) شرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحارث الشهير بامرىء القيس - للوزير أبي بكر عاصم ابن أيوب . مطبعة هندية — مصر ١٣٤٧ - ١٩٢٨ . ص ٢ .

٢) الصلة : ٢ ، ٤٥١ .

رواه » . وترجم له السيوطي في بغية الوعاة وقال « إمام في اللغة [١] » ، ونص على النقل من (البلغة) . روى عن أبي محمد بن الغراب ، وأبي محمد السفاقسي ، وأبي محمد مكي بن طالب المقرىء ، وغيرهم ، وروى عنه ابن السِّيد البطليوسي[٢] ، وأبو محمد عبد الملك بن محمد بن إسحاق اللخمي [٣] .

أما مؤلفاته فهي :

١ – كتاب **شرح الأشعار الستة الجاهلية** ، قال فيه ابن خير [٤] : « كتاب الأشعار الستة الجاهلية ، شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البلوي النحوي لها رحمه الله ، حدثني بها وبشرحها الوزير الأديب أبو محمد عبد الله بن محمد ابن إسحق اللخمي بن الملح رحمه الله ، عن أبي بكر عاصم ... » . والكتاب موجود بكامله في مكتبة فيض الله في تركية ، ومنه نسخة مصورة مصغرة (مكروفلم) في الجامعة العربية ، ونسخة مصورة مكبرة في مكتبة جامعة القاهرة . وطبع من هذا الكتاب : قسمان : شرح ديوان امرىء القيس، طبع عدة مرات طبعات غير محققة [٥] ، وشرح ديوان النابغة ، طُبع مع مجموعة دواوين في المطبعة الوهبية سنة ١٢٩٣ هـ . والكتاب جدير بأن ينشر ، محققاً [٦] .

٢ – كتاب «**شرح أشعار الحماسة**» ذكره ابن خير بالسند السابق إلى المؤلف[٧] .

٣ – « **شرح المعلقات** » ذكره السيوطي في البُغية [٨] .

٤ – « **كتاب الأوائل** » ذكره بروكلمان وقال : منه نسخة في (الظاهرية) بدمشق . وذكر ابن بشكوال في الصلة أن وفاته كانت سنة ٤٩٤ هـ .

أهمية الكتاب : تحدث الدكتور ناصر الدين الأسد عن أبي بكر وكتابه بعامة . ثم قال [٩] : « إن النسختين : نسخة عاصم (بن أيوب البطليوسي) ، ونسخة الأعلم (الشنتمري) قد اتخذتا من رواية الأصمعي لشعر امرىء القيس

---

١) بغية الوعاة ٢ : ٢٤ .
٢) الصلة (٢ : ٤٤١) .
٣) فهرسة ابن خير : ٣٨٨ .
٤) فهرسة ابن خير : ٣٨٩ .
٥) مصادر الشعر الجاهلي : ٣ ٤ .
٦) وقد أعددت الكتاب للطباعة .
٧) فهرسة ابن خير : ٣٨٨ .
٨) بغية الوعاة ٢ : ٢٤ .
٩) مصادر الشعر الجاهلي : ٥٠٣ .

أصلا اعتمدتاه ، وقد اتفقت النسختان في هـذا القسم من الشعر ، غير أن الأعلم اختار بعد ذلك ست قصائد (في ديوان امرىء القيس) من غير رواية الأصمعي .. » . فهذه ميزة من مميزات الكتاب ، من حيث الصنعة والرواية ، وهو – في التراث الاندلسي – كتاب ذو قيمة لأنه يصور جانباً من الحياة الأدبية في فترات معينة ، ويُعين على تبيُّن جديد من معالم تلك الحياة ، وهو إلى ذلك كله شرح من شروح الأشعار المشهورة في المشرق والمغرب على حد سواء.

مقدمة الكتاب :

يبدأ حديثه ، في مقدمة قصيرة ، بأن الشعر لا بد له من طبع ثاقب الفهم بالإضافة إلى معرفة معانيه ليكون فهمه كاملا صحيحاً ، وعبارته : « اعلم أبقاك الله أن للشعراء أغراضاً تدلُّ عليها العلماء وتعرفها لمناولة أمثالها الشعراء ، وليس هذا قدحاً في عالم ولا مدحاً لناثر وناظم ، ولكن أهـل الشعر مقصورون على معانيه ، وليس يكفي في الشعر مجرد العلم بالمعاني حتى يُضاف إلى طبع ثاقب الفهم ، فلذلك توعّر سهلُه وقل أهلُه » [1] . ونقل كلمة الجاحظ التي روى فيها تطلبه (علم الشعر) وتنقلـّه بين اللغويين والنحاة والرواة .. الخ .. ليدل على أن فهم الشعر لا بد له من ثقافة جامعة لكل ذلك مع ذوق وفهم . ورفـع عاصم كتابه الى أحد معاصريه ، قال: « وقد سُئلت شرحها وتقريبها وتخليصها وتهذيبها للحاجب مجد الدولة أبي بكر محمد بن المتوكل على الله أبي محمد عمر بن محمد ، أدام الله بهجة الدنيا بطول بقائهما [2] ... » . وأجملَ بعد ذلك طريقته

---

١) شرح ديوان امرىء القيس لعاصم بن أيوب البطليوسي : ٢ .

٢) حكم المتوكل على الله عمر بن محمد بن الأفطس بطليوس ، منفرداً بها مـا بين (٤٧٣ – ٤٨٧) حيث دخل المرابطون بطليوس . واقتيد مع ولديه الفضل وسعد (اسمه سعد في أعمال الأعلام – والعباس في المغرب) الى إشبيلية ، وقتلوا في الطريق . وكان له ولد يلقب (بالمنصور) على حصن شانجش ، فلما علم بمصير أهله ، لحـق بأذفونش – (أعمال الأعلام ـ لابن الخطيب . تحقيق ل. بروفنسال . دار المكشوف لبنان – الطبعة الثانية – ١٨٠ – ١٨٤ – ١٨٦) وظاهر أن المؤلف رفع كتابه إلى ابن الأمير في حياة أبيه . وانظر في في دولة بني الأفطس : المغرب في حلى المغرب ١ : ٣٦٣ – ٣٦٦ ، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمـة . زامبور – ترجمة د. زكي محمـد حسن وآخرين . القاهرة ، ١٩٥١ . ١ : ٨٩ .

في شرحه على الدواوين فقال « وكل ما ذكرته في هذا الشرح فمن كتب العلماء أخذته ، ومن مَكنون أقوالهم استخرجته [1] ». وسوف نرى أنه لا يعني مجرد النقل من الشراح المتقدمين ، فإنه كان يستنبط ويستخرج ، من وحي ثقافته اللغوية ويُحيل في معظم الاحيان على الأصول التي يستند إليها من لغة ونحو .

مصادر الشرح والرواية :

ذكرنا قبلُ أنه اختار رواية الاصمعي باعتبارها رواية أساسية، وكان أحياناً يضيف إليها. ولكنه كان يشير كثيراً إلى روايات أخرى مختلفة مثل روايات المفضل الضبي ، وأبي عمرو بن العلاء ، وأبي عبيدة ، والطوسي والرياشي. ونقل نقولاً كثيرة جداً ، وأثبت أسماء نحاة ولغويين وشراح متعددين . وهو يحب أن ينسب كلامه ويحيله على رجل من المتقدمين سواء في شرح المعاني أو الألفاظ أو الاحتجاج النّحوي واللّغوي . وممّن يتردّدُ ذِكرهم : الأصمعي ، والمبرد ، والقُتَبي —وهو يكثر من النقل عنه— وابن جني، وأبو عمرو بن العلاء ، والفرّاء وابن الاعرابي ، وابن سلام ، وأبو عبيدة ، وأبو علي البغدادي ، وابن دريد ، وابن السّيرافي ، وابن الكلبي ، وأبو عثمان المازني ، والخليل، وسيبويه ،ويونس النحوي ... وتصعب إحالتي على مواضعهم لكثرة ترددهم ، وهو كثيراً ما يحيل المسائل العامة أو الشهيرة على (علماء اللغة) وقد يقول : قال أهل النظر من أهل البصرة .. ، أو ما شابه هذه العبارات . فهو في رده الشروح الى أصول — معظمها كما نرى مشرقي — كالذين يفسرون بالمأثور ، لا يَعْدون . فهو إن دل بطريقته هذه على ثقافة واسعة واطلاع متشعب متعدد ، فإنه كشف لنا عن نموذج من نماذج الشرح الأندلسي يلجأ فيه صاحبه إلى (الالتزام بالنصوص) قدر الإمكان ، واحترام السّلَف . وهو قد يورد الشواهد من القرآن أو الحديث أو الشعر العربي ؛ وهو أكثر استشهاداً بالشعر من سلفه الأعلم لأن طريقته في رده كل رأي إلى صاحبه ، والتمثيل لما يقول لتأييد حججه ، تجعله أشد طلباً للشواهد من الأعلم الذي انصب اهتمامه على شرح المعاني .

---

[1]) شرح ديوان امرىء القيس لعاصم بن أيوب البطليوسي : ٢ .

شرحه :

قد جعل الشارح عمله مزجاً بين شرح اللغة ، وإيضاح المعاني ، والملاحظات النحوية واللغوية ، والإشارات الى مصطلحات العرب وعاداتهم وما تواضعوا عليه ، والاستشهاد بالمأثور والمرويّ ، وهو يمزج ذلك كله دون نظـام ، فكلما عنّ له شيء من ذلك ذكره ، وربما حشر قدراً كبيراً من كل ما سلف في شرح بيت واحد ، ولنمثل لذلك . قال في شرح بيت أمرىء القيس :

« ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي وهل يَعِمَنْ مَنْ كان في العُصُر الخالي

قوله عِمْ صباحاً : كلمة كان يتكلم بهـــا أهل الجاهلية في الغَداة ، وكانوا يقولون في المساء عِم مساء ، وبالليل عم ظلاماً . وتصريف فعله على ضربين ، وَعَم يَعِيم وعماً مثل وزن يزن وزناً . وقد قيل وَعِم يَعَم مثل ورم يَرَم . والطلل الشخص من الشيء . يقال : حيّى الله طلل فلان أي شخصه . فالطلل ما شخص من آثار الدار . والعصر فيه ثلاث لغات : عَصْر وعُصُر وعِصْر . والخالي الماضي . يقال خلا من الشهر كذا وكذا أي مَضى . ومعنى البيت أنه استفتح كلامه بألا ، ثم حيّى الطلل بأن قال عِم صباحاً . ومنهم من يرويه : ألا انعم . وأنـعم وعِم بمعنىً واحد . وفي كتاب سيبويه :

* وهل يَنْعِمن مَن كان في العُصُر الخالي *

استشـهد به على أنه مكسور العين في المستقبـل وفي الماضي كذلك ، وهو مثل : حَسِب يحسَب . وعَبَّر عن الطلل بمَن وهي لمن يعقل ، لأنه لمـّا ناداه خاطبه . والمخاطبة إنما هي لمن يعقل ، فأخرجه مُخرج من يعقل – قال يونس: قوله : وهل ينعمن من كان في العصر الخالي يقول : من خُلق في الزمان الأول وهو اليوم إن كان رجلاً وان كان طللاً فهو دارس ، وتحقيقـــه : من خلق في الزمان الماضي فأتى عليه طول الزمان وأبلاه ، كيف يكون ناعماً ؟ وإنما يريد بنعمته نعمة أهله فيه ، وأن يكون عامراً . وقد قيل فيه تقدير ثان وهو أنه قد تفرق أهله وذهبوا فكيف ينعم بعدهم [1] »

---

١) شرح ديوان امرىء القيس لعاصم : ٤٥ .

هذا شرح بيت يمثّل كثيراً من جوانب طريقة الشارح في تناوله القضـايا . فهو شرح عبارة (عِمْ صباحاً) وعالج وزن الفعل تنبيهاً لسامعه لقلة دَورانه ، وشرح بعض الكلمات ثم شرح معنى البيت الإجمالي ، وعرّج على بعض النحاة ، ونقل شرح الشطر الأخير من غيره ، ثم أدلى برأيه في الخاتمة .

الأثر النحوي واللغوي

وتنعكس على جوانب كثيرة من شرحه شخصيته النحويّة واللغوية ، فيبسط بعض البسط في قضايا نحوية ولغوية قد يكون الاجتزاء ببعضها كافيـاً . وهو لا يخرج عن منهجه في ردّ الكلام إلى مصادر قديمة من نقل أو حفظ . وهـذا مَثّلٌ من أول شرحه على النابغة :

كِلِيني لهم يا أميمـة ناصب ... وليل أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

« قوله : كليني أي دعيني وهَمّي . ونصب أميمة لأنه يرى الترخيم ، فأقحم الهاء مثل يا تيمَ تيم ، إنما أراد يا تيم عدي ، فأقحم (تيم) الثانية . قال الخليل : من عادة العرب أن تنادي المؤنث بالترخيم فتقول يا أميمَ ويا مسلمَ . فلما لم يُرَخّم لحاجته إلى الترخيم أجراها على لفظها مرخمـةً بالفتح . قال الوزير أبو بكر : والأحسن أن ينشد يا أميمةُ بالرفع[1] . » وهو يكثر من الإتيان برأيه بعد عرض بعض المسائل النحوية ، ويتبيّن من ملاحظاته أنه مُلِمٌّ بقضايا النحو ومُطّلع على المذاهب فيه ، وقال بعد شرح بيت النابغة :

إلا الأواريَّ لأياً ما أُبيّنُهـا ... والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلَدِ

« ... قال الأصمعي : كان أبو عمرو بن العلاء ينشـد إلا الأواريُّ ، فقلت عَلامَ ترفعُها ، فقال إنها بعضُ الدار ، ذهب إلى أن المعنى : وما بالربـع إلا الأواريُّ ، وذكر (من أحد) فضلة وتوكيد ، وكأنه في التقـدير : ما بالدار شيء : رجل ولا غيره إلا الأواري . قال أبو بكر : ويجوز فيه تقدير ثان على أن يكون الذي يقوم مقام (الأحد) : الأواري والنؤي على التمثيل الأول . أي كما تقول عتابُك السيف وتحيتُك الضرب فتكون حينئذ بدلاً ، وهـذا مذهب تميم . وأكثر الناس ينشدون إلا الأواريَّ بالنصب على الاستثنـاء المنقطع .

---

١) شرح ديوان النابغة لعاصم : ٢ .

والاستثناء المنقطع يكون بمعنى لكن في مذهب البَصريين ، وعلى مذهب اهل الكوفة بمعني : سوى . وقيل له منقطع لأنه ليس بعضاً من كل ، لأن حكم الاستثناء أن يكون كذلك . وهـذا قد انقطع من ذلك[1] ». فهو تخرج عن موضوعه الاصلي من الشرح إلى تفريع جانبي نحوي كان يُغني عنه بعضه . وهو يفعل ذلك كلما اتفق له موضع مُشكل أو يحتمل الإشكال ، ويقدم شيئاً من بضاعته وعلمه .

ولعله يثير المشكلات هو ليحلها ، وينبه قارئه إليها ، قال في شرح بيت امرىء القيس :

فلما تنازعنا الحديثَ وأسمَحت هَصرتُ بغصنٍ ذي شماريخَ ميّال

« ... قال الوزير أبو بكر : وفي (تنازعنا) شيء غريب يُسأل عنه ، وذلك أن سيبويه قال : وأما تفاعلنا فلا يكون إلا وأنت تريد فعل اثنين فصاعداً [2] .. » وناقش نصب (أو نموت) من قول امرىء القيس :

فقلت له لا تبكِ عَينُكَ إنّما نحاولُ مُلكاً أو نموتَ فنُعذرا

وحلل الاقوال في نصبها ، ثم قال « وجائز أن يرفع (أو نموت) على العطف على (نحاول) أو على الاستئناف ولا يفسد المعنى [3] » .

إشارات عامة

وهو يشير إلى بعض الأعلام والمواضع والبلدان والاسماء إشارات خفيفة لا تتجاوز التعريف الجزئي مما يستمر معه الشرح متسقاً جارياً ، مثل قوله : « وصيداء أرض بالشام[4] » . وقال في « الحارث الجفني » الذي ورد عند النابغة أيضاً : « هو الحارث بن أبي شمر الجفني الغساني [5] ».ونقل حديث « يوم حليمة » باختصار[6] ، وخبر « لُبَد » [7] نسر لقمان الحكيم . ومثل ذلك قصة نبي الله صالح وقومه ثمود[8] ، ومواعيد عرقوب[9] . وخبر بني غسان [10] ،

١) شرح ديوان النابغة لعاصم ١٥ - ١٧ .
٢) شرح ديوان امرىء القيس لعاصم : ٥٣ . ٣) المصدر نفسه : ٩١.
٤) شرح النابغة : ٣ . ٥) شرح النابغة : ٦ . ٦) المصدر نفسه : ١٧ .
٧) شرح الشعراء الستة – ديوان علقمة : ٦٩ / أ . ٨) المصدر نفسه : ٦٩ / أ .
٩) المصدر السابق : ٧٤ / أ . ١٠) شرح النابغة : ٦٣ .

وخبر الحية (ذات الصّفا) التي قال فيها النابغة :

كما لقيَت ذاتُ الصفا من حَليفها
وما انفكت الأمثالُ في الناس سائرهْ [١]

وليس له نِظام معين فيما يشرحه وما يوجز فيه وما يمده . وقد ترك ذلك لِما يُقدّره هو من مقتضيات الشرح والمناقشة . وقد يتطرق إلى عادات العرب وبعض أخبارهم في باديتهم وحضرهم وحروبهم وألعابهم ، كشرحه على بيت النابغة :

إذا استُنْزلوا عنهن للطّعن أرقَلُوا   إلى الموت إرقالَ الجمال المصاعبِ

« عن الأصمعي : إذا اشتدت الحرب ووقع الالتحام ربما ضاق الموضع على الدابة فينزل صاحبها . قال عنترة :

[إن يلحقوا أكْرُر وإن يستلحموا]   أشدُد وان يُلْفَوا بضَنْكٍ أنزل

وقال غيره : إذا ألح عليهم بالطعن نزلوا وأرقلوا بالسيوف ، وذلك أن أول الحرب الترامي بالسهام ، ثم التطاعن بالرماح ، ثم التضارب بالسيوف ثم الاعتناق إذا تكسرت السيوف ، قال زهير :

يطعَنُهم ما ارتَموا حتى إذا اطّعَنوا
ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا [٢] »

وتحدث في موضع آخر عن مذهب الشعراء في التَبدّي والحَضر وأنهم «على ضربين : منهم من يذم الحضر ويمدح التبدي ، ومنهم من يذم التبدي ويمدح الحضر ، فمِمَّن مدح التبدي ذو الرمة ... وممن ذم التبدي ومدح الحضر امرؤ القيس لأنه كان ملكاً .. [٣] » .

الملاحظات البلاغية

أما ملاحظات الشارح البلاغية فقليلة ، بالقياس إلى ما يستطرد إليه من لغة ونحو وخبر . وهو يذكر بعض تلك الملاحظات عَرضاً ، وهو في هذا مثل الأعلم الشنتمري ، قال في شرح امرىء القيس :

---

١) شرح النابغة : ٤٨ .

٢) شرح ديوان النابغة: ٥ .   ٣) شرح ديوان امرىء القيس : ٤٦ - ٤٧ .

وماذا عليه إن ذكرت أوانساً كغزلان رَمل في محاريب أقوال

.. فمعنى البيت أنه يقول : ماذا عليه في تشبيهي أوانساً بغزلان رمل هذا [1] ... » . وعلق على قوله :

« كأن قلوب الطير رَطباً ويابساً

لدى وكرها العُنّاب والحَشف البالي

« .. قال الوزير أبو بكر هذا أحسن بيت بإجماع الرواة في تشبيه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين .. [2] » وكان يعالج التشبيه في أحيان كثيرة دون العناية بتبيين أقسامه ، اكتفاء بما ظهر من قوله وشرحه .

وقد يتحدث عن الاستعارة على قلة ، وهذا استخراج لاستعارةٍ في بيت لامرىء القيس لم تسلم من نقده ، قال امرؤ القيس :

« وهِرٌ تصيدُ قلوبَ الرجال وأفلت منها ابنُ عمرو حجرْ

هر ابنة العامري ، وهي ابنة سلامة بن علند . وكان امرؤ القيس في كلب وطي ، أيام نفاه أبوه . وفاطمة أيضاً من كلب وبهاتين يُشَبّب . وقوله : (وأفلت منها) يقول : وأفلت أبي من صيدها ، وحذف المضاف ، والمضاف إليه أقامه مقامه ، وصادتني أنا لأنه لم يرها . قال الوزير أبو بكر استعارة الصيد مع الهر مضحكة . ولو أن حجراً أباه من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف . وهذه الاستعارة وإن لم تكن فاسدة فقد تجنّبها المحدثون ظرفاً ولطافة [3] » . فقد عالج الاستعارة بفهم ، ونقده في أنه استمد استعارة مبتذلة كان في غنى عنها .

وبعد شرح قول امرىء القيس :

إذا ركبوا الخيلَ واستلأمُوا تحرّقت الأرضُ واليومُ قُرْ

قال : « واحترس بقولة (قر) فتمّم ، وهو الذي فتح باب الاحتراس . »[4] والاحتراس باب من أبواب البديع لم يذكره ابن المعتز ولا قدامة ،[5] ولكنه

---

١) ديوان امرىء القيس : ٥٦ . ٢) المصدر نفسه ص : ٦٤ .

٣) المصدر نفسه ص : ٧ . ٤) المصدر نفسه ص : ٤ — ٥ .

٥) تحرير التحبير : ٢٤٥ ، والعمدة : ٤١ .

ورد عند الجاحظ في البيان والتبيين وذكره ابن رشيق في العمـــدة تحت اسم التتميم . وسيتضح أيضاً أن أبا بكر الشارح اطلع على عمدة ابن رشيق [1] وأفاد منها . فهو هنا يقول « واحترس بقوله قر ، فتمم » وهي عبارة ابن رشيق إذ جعل الاحتراس من التّتميم [2] .

وأشار أيضاً الى « نفي الشيء بإيجابه » ، قال في شرح قول امرىء القيس :

على لاحبٍ لا يهتـــدى بمناره إذا سافه العَوْد النباطي جَرجرا

(... قال الوزير أبو بكر : وفي هذا البيت أنه نفى الشيء بإيجابه ، وهذا من المبالغة وهو من محاسن الكلام .. ومن هــذا قول الله عز وجل « لايسألون الناسَ إلحافاً » أي ليس يقع منهم سؤال فيكون إلحافاً . وصاحب العمدة أول من استعمل هذه العبارة [3] ، وهو لا شك أخذها من ثَم .

وتحدث عن التكرار في معرض حديثه عن بيت امرىء القيس :

ليــاليَ سلمى إذ تريك مُنصّباً وجيداً كجيد الرّيم ليسَ بمعْطال

« .. فان قيل إن تكرار سلمى في الأبيات عيب ، فجوابـــه أن للتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها . فمما يحسن تكراره مثل تكرار هــذه الأسماء ، وتكرارها على جهة التشوق والاستعذاب ، لأن الموضع موضع غزل وتشبيب ، ولم يتخلص أحدٌ تخلصه ولا سلم سلامته في هــذا الباب [4] » .

وقد سبق إلى عد (التكرار) من البديع أبو أحمد العسكري ، وصرح الباقلاني بأنه من البديـع ، وجعله أبو هلال فرعاً من فروع الإطناب لتوكيد الكلام . ثم جاء صاحب العمدة ، فجعله أيضاً من البديع .

وعلق على قول زهير بن أبي سلمى :

يخرُجن من شَربات ماؤُها طَلِقٌ
على الجُذوع يخَفْنَ الغمَّ والغَرَقــا

« قال أبو بكر : هذا البيت مما غلط فيه زهير . وقد اعتُذر لزهير فقيل إنه

---

١) توفي ابن رشيق سنة ٤٦٣ .
٢) البلاغة تطور وتاريخ : ١٤٩ .
٣) البلاغة تطور وتاريخ : ١٥١ .
٤) ديوان امرىء القيس : ٤٧ – ٤٨ .

لم يرد أنها تخاف الغَرق حقيقة ، ولكنها عا ة من الحيوان في الماء ، **فكأنه أراد** المبالغة ، كما قال الله عز وجل (وإن كان مكرُهم لتزول منهُ الجبال [1]) وهذه تسمية قدامة بن جعفر الذي استمد في المبالغة والغلو – الذي سنمثل له في شرح عاصم – من كلام أرسطو في الخطابة ، ثم تابعه أبو هلال العسكري في الصناعتين ، واتصل ذلك بصاحب العمدة أيضاً [2] .

وبعد مناقشات لغوية ونحوية في بيت امرىء القيس :

تنوّرتُها من أذْرعاتَ وأهلُها   بيثربَ ، أدنى دارِها نظَرٌ عال

قال الوزير أبو بكر : قد فوصل بين غُلو امرىء القيس في هذا البيت، وغلو مُهلهل في قوله :

فلولا الريح أُسمع مَن بحجر   صليلَ البيض تُقرع بالذكور

وبين حجر ، وهي قصبة اليمامة ، وبين مكان الوقعة عشرة أيام . فقيل هو أشد غلواً من امرىء القيس في النار ، لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد ادكاراً » [3] .

وعلق تعليقاً سريعاً على بيت زهير :

وكل محب أحدث النأيُ عندَه   سلوّ فؤادٍ غيرَ حبك ما يسلو

قال : « وفي البيت **اعتراض** » ولم يزد علـى ذلك . و « **الاعتراض** » من اختراع ابن المعتز ، وذكره في الصناعتين أيضاً [4] . وفي شرح بيت زهير :

أمين شَظاه لم يُخرّق صفاقـه   بمَنقبـة ، ولم تـُقَطّـع أباجلُـه

قال « وصف الشظايا بالقوة ، وهو كناية عن قوة الذراع » .

ملاحظات :

وهو إلى هذا يجمع في كتابه كثيراً من **الآراء النقدية العامة**، أو ما شاع من استحسان بيتٍ في الوصف وآخر في المديح .. وقد سبقت الإشارة إلى قوله

١) شرح الأشعار الستة : ٤٠ . والبيت – برواية ثعلب – ماؤها طحل .
٢) البلاغة تطور وتاريخ : ٨٨ ، ١٤٨ .
٣) ديوان امرىء القيس : ٥١ ، وانظر تحرير التحبير : ٣٢٣ .
٤) البلاغة : ٧٢ ، ١٤٢ والبديع لابن المعتز : ١٠٨ والصناعتين : ٣١٢ .

في بيت امرىء القيس – الذي اجتهد بشّار في مضارعته زماناً – وقال في أبيات زهير :

وأبيضَ فياضٍ يداهُ غمامةٌ على مُعتفيه ما تُغبُّ فواضِلُه

.. إلى قوله :

تراه إذا ما جِئتَهُ مُتَهلِّلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائلُه

« قال أبو بكر : قال خلف الأحمر هذه الأبيات – من قوله : وأبيض فياض إلى هذا البيت – من أخلف ما قيل في المدح ، وأكثره خلفاً » .

وعلق على قول عنترة في وصف الذباب :

هَزِجاً يَسن ذراعه بذراعه قَدْحَ المُكب على الزّناد الأجذم

« .. وهذا التشبيه من التشبيهات العُقم . وقيل لم يدع الأول للآخر معنى شريفاً ولا لفظاً بهياً إلا أخذه عنترةُ بهذا » .

وفي شرحه على ديوان علقمة قال في موضع منه « وأول من شبّه الإبريق بالظبي عَدي بن زيد[1] » . ونقل ما روي عن أبي عمرو بن العلاء ، وأبي الطيب المتنبي في موضوع توارد الخواطر قال « وسئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ فقال : تلك عقول رجال توافت على ألسنتها . وقال أبوالطيب وقد سئل عن ذلك : الشعر ميدان والشعراء فرسان ، فربما وقع الحافر على الحافر[2] » .

وأشار إلى المعاني المشتركة بين الشعراء أو ما بمنزلتها ، في شرح قول امرىء القيس :

يضيءُ الفِراشَ وجهُها لضَجيعها كمصباح زيتٍ في قناديلَ ذُبّال

قال : « وقد تعاورت الشعراء هذا المعنى وزادت فيه ، قال أبو الطيب :

أمن ازديارِكِ في الدُّجى الرقباءُ إذ حيثُ كنتِ منَ الظلام ضياء[3]

ولم يتعقب السرقات ، وما عنده منها قليل عبر عنه بكلمة (مثل) .

ومنه تعقيبه بعد شرح بيت امرىء القيس :

فلا وأبيك ابنةَ العامريّ لا يدّعي القومُ أني أفر

---

١) الأشعار الستة : ٧٢ ب . ٢) ٧٥ أ . ٣) ١٤٦ أ .

قال « ومثل هـذا قول الطائي :

أجل أيها الربع الذي بان آهِلُه [لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله]

ومثله قول ذي الرمة :

لا غيرَ أنّا من تَذكُّرها وطول ما هَيَّجتنا نَزْع هيَّم[١]

وقال بعد شرح بيت امرىء القيس :

تنوَّرتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نَظرٌ عال

... وهذا مثل قول الحارث بن حِلِّزة :

فتنورت نارَها من بعيدٍ بخزارَ هيهاتَ منك الصلاء[٢]»

وقال بعد شرح بيتَيْ علقمة :

فإن تسألوني بالنِّساء فإنني بصيرٌ بأدواء النساء طبيبُ

إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس لهُ في وُدِّهنَّ نصيبُ

... وهو مثل قول امرىء القيس :

أراهنَّ لا يُحبِبْنَ مَنْ قلَّ مالُه ولا من رأينَ الشيب فيه وقوَّسا

ثم علق بعد ذلك « قال أبو بكر إلا أن بيت امرىء القيس أحسن لأنه جمع في بيت واحد ما فعل علقمه »[٣] . وهذا مذهبٌ في السرقات ، يرفع السرق عمن اختصر فأحسن . ونلمح عنده بعض اللمحات القليلة ، ولكنها ذات دلالة ، تبيّن رأيه في بعض الأمور النقدية والبلاغية ، وتنم عن ذوق خاص ، ومناقشة لآراء مخالفة لرأيه . ومنه تعليقه على تشبيه امرىء القيس :

أيقتُلني والمشرفي مُضاجعي ومَسنونةٌ زُرقٌ كأنيابِ أغوال

... قال الوزير أبو بكر فإن اعترض معترض في هـذا التشبيه فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ، وأنياب الأغوال لم يرها فكيف يقع التمثيل ؟ قيل له قد شنع الله صور الجن في قلوب العبـاد حتى صار ذلك التشنيع أبلغ من المُعاينة[٤] » .

وهو لا شك طالَعَ نسخاً من الدواوين ، واهتم بضبطها وإحسان روايتها ، فهو يشير إلى الزيادات على رواية الأصمعي سواء أ كان بقصائـد أو أبيات ، كما

---

١) ص : ٤ أ ٢) ص : ٥١ أ . ٣) الأشعار : ٦٧ ب . ٤) الديوان : ٥٥

أشار إلى أنه قابل نسخته على نسخة مضبوطة مقابلة بنسخة أبي علي القـالي [1] وقال في بيت علقمة الذي وجده مكسوراً ووجدته كذلك في نسخ الأعلم الذي نبّه على اختلال الوزن : وهو :

دافعتُ عنـه بشعري إذ   كان لقومي في الفِداء جَحد

«.. قال الوزير أبو بكر هذا البيت وقع في كل النّسخ مكسوراً ، وألفيته بعد البحث والتنقيب عنه صحيحاً :

دافعتُ عن شَأسٍ بشعري إذ   كان لقَومي في الفداء جحد » .

وقد يشير إشارات سريعة إلى بعض مواضع الضرورات الشعرية ، كالحيلولة بين المضاف والمضاف اليه بالمجرور في قول النابغة :

قبّ الأياطل تردى في أعنّتها   كالخاضبات من الزُّعر الظنابيب [2]

وقال في بيان الضرورة في البيت :

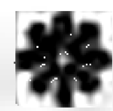
رَدت عليه أقاصيه ولبّده   ضربُ الوليدة بالمسحاة في الثأد

قال أبو بكر : يُروى بضم الراء وفتحها . ومن رواه بفتح الراء على ما سُمي فاعله ففيه ضرورتان تسكين الياء في أقاصيه في موضع النصب ، والثانية إضمار الفاعل ولم يسبق له ذكر . ومن رواه بضم الراء على ما لم يُسَم فاعله خرج من الضرورتين [3] .

وأشار إلى صرف الممنوع في ضرورة الشعر ، في قولِ — ومهدر اسم جارية — :

حانَ الرّحيلُ ولم تودّع مهـدرا   والصُّبح والإمساءُ منها موعدي

ويجري الكتاب على هذا النسق . وهو نموذج من الشروح التعليمية .



---

١) الديوان : ١٢٣ .   ٢) ديوان النابغة : ١١ .   ٣) ديوان النابغة : ١٧ .

شرح ابن هشام اللخمي الإشبيلي

على مقصورة ابن دُرَيد

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام بن إبراهيم بن خلف اللخمي ، إشبيلي سكن سبتة . وقد وهم صاحب التكملة فجعله في الغرباء – عن الأندلس – ولعل ما أدخل عليه الوهم أنه سكن سبتة ، وغاب عنـــه تحقيق ذلك . ونـبّه على خطئه هذا ابن عبد الملك في (الذيل والتكملة) قال : « وجعله ابن الأبار منها – يعني سبتة – فذكره في الغرباء غلطاً منه »[1]. روى عن أبي بكر العربي[2] ، وله إجازة من الحافظ أبي الطاهر السلفي . وروى عنـــه أبو الحسن بن أحمد الخولاني وأبو عبد الله بن عبد الله الكناني وابن العابد بن غاز السبتي وأبو علي حسن بن محمد الجذامي وأبو عمر يوسف بن عبد الله الغافقي . وهذه سلسلة من الأعلام تدل على ما كان عليه ابن هشام من مكانة ضربت حوله هذه الهـالة . وقد اشتهر بالنحو واللغة والأدب . ووصفه في الصلة بأنه « أدّب بالعربية وكان قائماً عليها وعلى اللغات والآداب [3] » وقال فيـه ابن دحية الكلبي في المطرب :

(*) انظر ترجمته في التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار طبعـة الشيخ عزة العطار – نشر الخانجي ٢ : ٦٧٥ – ٦٧٦ . والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (مخطوط) . الورقة ٢٥ – ٢٧ . والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي نشر باعتناء ديدرنغ – استانبول مطبوعات وزارة المعارف ١٩٤٩ – ج ٢ : ١٣١ . وبغية الوعاة للسيوطي ١ : ٤٨ – ٤٩ . وينقل عن ابن الابار ، وعن التجيبي في رحلته . وفي المطرب من أشعار أهل المغرب ط القاهرة سنة ١٩٥٤ : ١٨٣ إشارة إليه .

وانظر : Brock . G , I . 308. S, 1, 541.

١) الذيل والتكملة ٢٥ ب .(مصورة باريس – نسخة صديقنا الاستاذ محمد بن شريفة) .

٢) الذيل والتكملة ٢٥ ب و التكملة : ٢ : ٦٧٥ . ٣) التكملة : ٢ : ٦٧٥ .

« الفقيه الأستاذ النحوي الكبير ، المتقن الخطير » ، وذكر أنه لقيه ولقي أباه ، وذكر له أبياتاً سنشير إليها فيما بعد . وعرّفه صاحب الذيل والتكملة بأنه : كان نحوياً ، لغوياً ، أديباً ، تاريخياً ، ذاكراً أخبار الناس قديماً وحديثاً ، وأيامهم ، كما أفادنا شيئاً آخر ، وهو أن ابن هشام درّس بسبتة زماناً ، فقال « درّس ما كان ينتحله من العلوم بسبتة طويلاً » . ووصفه بحسن الخلق .

ثقافته :

وفي الذيل والتكملة خبر طريف ، عن مناظرة كانت بين ابن هشام وبين أحد معاصريه ظهر فيها ابن هشام على صاحبه وزادت فيها سمعته ، وفيها أنه « كانت بينه وبين الأستاذ أبي بكر بن طاهر الخِدَب مناظرة في مسائل من كتاب سيبويه قياسية ونقلية ، ظهر فيها شفوف أبي عبد الله بن هشام على أبي بكر بن طاهر ، واستظهر عليه في كل ما خالفه فيه ، بالنصوص الجلية والآراء المؤيدة بالحجج الواضحة ، فاشتد على ابن طاهر ظهور أبي عبد الله عليه ، وإفحامه إياه ، وانصرف عنه واجماً مُغضباً . ولما استقر ابن طاهر بمنزله بعث إليه ابن هشام بضيافة براً به وقياماً بحقه ، فردها أبو بكر عليه ولم يقبلها ، فعُدّ ذلك من جفاء خلق ابن طاهر . » وهذا الخبر يفيدنا في صفة ابن هشام ومكانته في علم النحو كما يلقي أضواء جانبية على نوع من المناظرات اشتهر في بعض العصور الإسلامية ، وكأنه تقليد من تقاليد العلم والعلماء لا يزال يتجدد . وهذا (الشفوف) الذي أشار إليه ابن عبد الملك المراكشي يفسره ما جاء في ثبت مؤلفات ابن هشام وفيها كتاب « إصلاح ما وقع في أبيات سيبويه وفي شرحها للأعلم من الوهم والخلل » ، وقد ذكره ابن الأبار في التكملة .

وقد توزع اهتمام ابن هشام بين النحو واللغة والأدب ، وبين التدريس والتأليف . ومن سَرد تصانيفه نتبين تنوع الاتجاهات التي توجه إليها . ومن مؤلفاته ١) **تقويم اللسان** نحا فيه منحى الزبيدي في « لحن العامة » وصدّره بالتعقّب على الزبيدي في أشياء نسب العامة فيها إلى اللحن هم فيها على الصواب . وذكر ابن الأبار أنه له (كتاباً في لحن العامة) . وفي البغية (لحن العامة)[1]

١) الذيل والتكملة ٢٥ ب ، التكملة ٢ : ٦٧٥ ، بغية الوعاة ١ : ٤٩ .

٢) **شرح مقصورة ابن دريد**[١] . وعرّفه الصلاح الصفدي بأنه شارحها قال « اللخمي شارح الدريدية : محمد بن أحمد بن هشام بن ابراهيم اللخمي السّبتي شارح الدريدية ، وهو من أحسن الشروح ، كتبته بخطّي في زمن الصبا » وهو الكتاب الذي سنتحدث عنه[٢] . ٣) **الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل** . كذا ذكره في التكملة ، وسماه في الذيل : شرح أبيات الجمل ، وقرأها محقق البغية خطأ فجعلها كتابين قال « من مؤلفاته كتاب الفصول ، والجمل في شرح أبيات الجمل » ، وهو وَهْم ، ولم ينتبه إلى أن السيوطي ذكر أنه ينقل عن ابن الأبار[٣] . ٤) **شرح الفصيح لثعلب** ٥) **شرح قصيدة الحريري في الظاء** ٦) شرح قصيدة الهاشمي في **ترسيل النيّرين** ٧) والكتاب الذي سبقت إليه الإشارة عن التكملة : إصلاح ما وقع في **أبيات سيبويه** وشرحها للأعلم من الوهم والخلل » .

شعره :

تناقل ابن عبد الملك ، وابن دحية الكلبي ، والسيوطي أربعة أبيات لابن هشام جمع فيها استعمالات كلمة (الخال) ذات المعاني المتعددة ، ونصُّ ابن عبد الملك أن أبياته « أقرب للحفظ ، وأكبر شهادة باقتدار منشئها على النظم ، من القصيدة التي ذَيّل بها أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي القصيدة التي أنشدها ثعلب ، وما كمّلها به أبو اسحاق بن فرقد[٤]... وأبيات ابن هشام هي :

أقول لخالي وهو يوماً بذي خال ... تروح وتغدو في بُرودٍ من الخالِ
أما ظفرتْ كفّاك في العُصُرِ الخالي ... بربّة خالٍ لا يَزِنُ بها الخالي
تمرُّ كمرِّ الخال يرتجُّ ردفُها ... إلى منزل بالخال خِلوٍ من الخال
أقامت لأهل الخال خالاً فكلُّهم ... يَؤُمُ إليها من صَحيح ومن خال

قال ابن الأبار في شعره : « مع حظ من النظم ضعيف » وهذه شهادة ناقد

١) المصادر السابقة . ٢) الوافي بالوفيات ٢ : ١٣١ .
٣) بغية الوعاة : ١ : ٤٨ — ٤٩ .
٤) الذيل والتكملة ٦ ٢ / أ . وانظر أبيات أبي الطيب اللغوي في مراتب النحويين : ٣٥

شاعر ، وقال فيه ابن عبد الملك : « وكان لابن هشام تصرف حسن في النظم ، ومنه أبيات ضمنها معاني الخال ... »

وفاته :

لم تقع لابن الأبار وفاته فقال إنه وجد الأخذ عنه والسماع منه سنة ٥٥٧ [١] ونص ابن عبد الملك في الذيل والتكملة على أنـــه تُوفي بإشبيلية سنة سبع وسبعين وخمس مئة .[٢]

مقصورة ابن دُريد : هي قصيدة مقصورة ألفها أبو بكر محمد بن دريد الأزدي اللغوي الأديب الشهير[٣] مدح بها « الشاه ابن ميكال وولديه ،ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور [٤] » ونقل ابن خلكان أنـــه عارض ابن دريد في قصيدته هـــذه جماعة من الشعراء ، وممن عارضـــه الشاعر الأندلسي حازم القرطاجني ، وشرّح قصيـــدة حازم أديبٌ مغربي متأخر سكن الأندلس هو الشريف السبتي الغرناطي ، ولهذه القصيدة وشرحها شهرة . وشرّح مقصورة ابن دريد جماعة ، منهم اللغوي الأندلسي ابن هشام الإشبيـــلي .

نسخة الشرح : في دار الكتب المصرية نسخة جيدة من شرح ابن هشام على المقصورة الدريدية محفوظة بالمكتبة الشنقيطية (برقم ٦٥ أدب ش) وهي نسخة كانت عند المصنف التركي المشهور ابن كمال باشا ، وعليها خطه وتوقيعه ، واقتناها الشنقيطي من استانبول سنة ١٢٩١ هـ. وعلى الغلاف « شرح قصيدة ابن دريد للأديب أبي عبدالله محمد بن أحمد بن هشام السبتي المغربي المعروف بابن هشام اللخمي اللغوي–رحمه الله– وقد سمى الأديب الفقيه ابن هشام هذا الشرح بالفوائد المحصورة في شرح المقصورة» . وذكر ابن هشام في مقدمة شرحه سند المقصورة ورواتها المتصلين من وقته إلى أبي بكر بن دُريد » . قال الأستاذ أبو

---

١) التكملة ٢ : ٦٧٦ . ٢) الذيل والتكملة : ٢٧ ب .

٣) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي : وهو إمام من أئمة اللغة والادب ، ولد بالبصرة وتنقل في بـــلاد كثيرة ، وتقلد ديوان فارس لآل ميـكال ، وانتهى مطافه في بغداد . وله مؤلفات كثيرة (انظر وفيات الأعيان ٣ : ٤٤٨ – ٤٥٤ ، إنباه الرواة للقفطي ٣ : ٩٢) . ٤) وفيات الاعيان : ٣/ ٤٤٨ .

عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي أخبرنا بهذه القصيدة الفقيه الأجل الشيخ الأفضل أبو بكر بن العربي رحمه الله قال أخبرنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي ، وقال أخبرنا أبو محمد (الحسن بن علي الجوهري) قال أخبرنا ابن الجرّاح ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي رحمه الله قال .. القصيدة » . وهذا أحد الأسانيد التي روى بها ابن خير المقصورة في فهرسته [١] . وقد ضمّن الشارح كل الأبيات المنسوبة إلى المقصورة ، لأنه كان يقول في بعض المواضع . وهذا البيت ليس من الرواية [٢] ويشرحه مع ذلك . وقال بعد شرح البيت الأول :

يا ظبيةً أشبه شيء بالمهَا ترعى الخُزامى بين أشجار النقَا

وهذا البيت لم يثبت في رواية أبي علي ولا في أكثر الروايات ، وإنما وقع في رواية شاذة وهي رواية أبي اسحاق بن مخلد . وأبو علي هو القالي ، وتوجد عنه رواية المقصورة ، شائعة في الأندلس [٣]. وقال بعد شرح البيت :

عَوّل على الصّبر الجميل إنه أمتعُ ما لاذ به أولو الحِجى

وهذا البيت ليس في اكثر الروايات ، وكذلك الذي بعده[٤].

مصادره : لم يذكر ابن هشام أنه نقل عن أحد ممن سبقه إلى شرح المقصورة . وكان ينقل مباشرة عن أئمة اللغة في المشرق والأندلس في شرح الغريب ، وإيضاح المعاني ، ومن النحويين والأدباء . فمن المشارقة المبرد ، وأبو الفتح بن جني ، وأبو علي البغدادي ، وهو يكثر من النقل عنهم والاحتجاج بهم ، بالإضافة إلى أعلام كثيرين مثل الكسائي ، والخليل ، والقزاز ، وأبي بكر النقاش ، والسّيرافي ، وأبي الحسن الرماني وغيرهم . ومن الأندلسيين ينقل عن أبي محمد بن السّيد ، وابن سِيدَه ، صاحب المُحكَم ويحتج بهما في اللغة خاصة ، وأبي عبيد البكري ويحتج به في الروايات والأمثال خاصة . وهو يفضل الاحتجاج بأسمائهم دون كتبهم إلا في مرات قليلة .

مقدمة الشارح : قدم ابن هشام لشرحه بمقدمة موجزة بيّن فيها منهجه

١) ابن خير : ٤٠٠ .
٢) انظر مثلا ١١٥ /و ، ١١٦ /و - ظ ٢٠ /و .
٣) فهرسة ابن خير : ٤٠٠ .
٤) شرح المقصورة : ١١٥ / ظ .

وأسلوبه ، وذيلها بترجمة ابن دريد معتمداً على أبي علي القالي ، أورد فيها بعض أخباره ومصنفاته ، وذكر سند روايته للمقصورة متصلاً بابن دريد . وبدأ مقدمته بذكر ما تمتّعت به مقصورة ابن دريد من اهتمام أدباء زمانه ومنتحلي هذه الصناعة في وقته ، وأنها صارت مَأمّهم في اللغة وإمامهم ، لسهولة ألفاظها ونبل أغراضها ، وثقة مُنشِئها ، واستفادة قارئها ، واشتمالها على الثلث من من المقصور ، واحتوائها على جزء من اللغة كبير ، ولما تضمنها من المثل السائر ، والخبر النادر ، والمواعظ الحسنة ، والحكم البالغة البيّنة [1] وقال إن عدداً من من الشعراء عارضوا ابن دريد فلم يبلغوا شأوه ، ولا شقّوا غباره ، وإنه عند أهل الآداب في هذا الباب أشعر العلماء وأعلم الشعراء ووعد بذكر جملة من أخباره . ثم تحدث عن جماعة سبقوه إلى شرح المقصورة لم يُسَمّ أحداً منهم ولكنه قسمهم إلى قسمين : فمنهم المُسهب المطوّل والمُختصر المقلّل [2] . وانتهج لنفسه نهجاً وسطاً — كما قال — لأنه أكثر نفعاً « فاعتمدنا حين سُئلنا شرح غريبها وذكر المهم من معانيها ، وإعرابها ، على المتوسط إذ هو خير الأمور ، واقتصرنا على ما هو أنفع عند الجمهور » . ثم ماز شرحه بأنه ذَكر عقب شرح الأبيات المصادر التي اعتمدها ابن دريد في بناء قصيدته ، وأصول معانيه ومحتويات قصيدته « على أنا أودعنا هذا الشرح فَنّاً من العلم خطيراً ، وباباً من الأدب كبيراً لم يُصِل غيرنا من الشارحين فيه قلماً ... وهو أنّا ذكرنا عقب شرح أكثر الأبيات من أين أخذ معناها ، وعلام أسس مبناها من أشعار الجاهلية والمخضرمين ومَنْ بعدهم من المحدَثين ممن نسج على منواله واحتذى على مثاله ، وسنقف على ذلك كله في موضعه من هذا الكتاب ومحله إن شاء الله [3] » . وهو في هذا يشير إلى ما صنعه مما يدخل — بالمعنى الواسع — في باب السرقات . ثم ذكر ترجمة موجزة لابن دريد ، والتفت إلى الشرح .

شَرْح ابن هشام على مقصورة ابن دريد لاحقٌ بالشروح التعليمية ، وداخل فيما شرطنا لهذا القسم من هذا الفصل عن الشراح . وقد بيّن الشارح نفسه ذلك في مقدمته حين جعل هَمّه إيصال معاني القصيدة وغريبها

---

١) ٣ / ظ – ٤ / و . ٢) ٢ / ظ – ٤ / و . ٣) المصدر نفسه : ٢ / ظ – ٤ / و .

وملاحظات أخرى بجدّ وسط وبما هو أنفع عند الجمهور [٢] ولم يخرج هو عن شرطه إلا من جهة واحدة ، لكنها غلبت على الشرح كله ، سنتحدث عنها .

وهو يبدأ الشرح كعادتهم بشرح بعض الغريب ، ويلاحق الكلمة الغريبة في المعاجم ، وشعر العرب – أهل الحُجّة أولاً – ويمثل لذلك كثيراً . ثم يشرح المعنى ، ويعقب عليه بما يحفظه من معان مشابهة أو قريبة ، ويسترسل في ذلك كما سنمثّل ويحلل ذلك بتعريف ، يتناول بعض الأعلام ، يسوقه البحث .

طريقته :

وهو يشرح الكلمة الغريبة وما تحتمله من معان ، ويأتي بالشواهد ، وينبه على مذاهب العرب وما تواضعت عليه من استعمالات لغوية في الأسماء والأفعال ، وفي الأوصاف والتشبيهات مما ينصرف إلى الاستعمال اللغوي ، أو ينبّه إلى المعاني المشتركة كقوله والعرب تشبه البرق بالنار [١] وقوله في شرح البيت :

إذا بلوتَ السيفَ محموداً فلا   تذُمّه يوماً إن تراه قد نَبا

«والعرب كثيراً ما تحمل الأفعال بعضها على بعض إذا اشتركت في المعنى ، فيكون التقدير : إذا علمت السيف محمودا [٢]» .

وهذا شرح بيت كامل يوضح لنا طريقته في الشرح ، ومعالجته للناحية التي رأى أنه انفردَ بها بين الشارحين من تِبيان مصادر معاني ابن دريد في قصيدته . قال :

يا ظبيةً أشبهَ شيءٍ بالمها   ترعَى الخُزامى بين أشجار النقا

« الظبية الغزالة . قال ذو الرمة :

فيا ظبية الوعْساء بين جلاجل   وبين النقا آ أنت أمْ أمّ سالم

والظبية أيضاً لكل ذات حافر بمنزلة الحيا لكل ذات ظلف وخُف . وظبي أيضاً اسم رملة . قال امرؤ القيس :

وتعطو برَخص غير شثن كأنه   أساريعُ ظبيٍ أو مساويك إسحل

والعرب تشبّه عين الرجل والمرأة بعين الظبية في كلامهم المنظوم والمنثور . قال الشاعر :

---

١) ٤/د – ظ .   ٢) ٨٧/ظ .   ٣) ١١٥/د .

فعَيناك عينها وجيدُك جيدها   ولكنّ عظم الساق منكِ دقيقُ

ويشبهون أيضاً جيد المرأة بجيد الظبية ، وقد تقدم الاستشهاد عليه . وقال امرؤ القيس في ذلك :

وجيدٍ كجيد الرّيم ليس بفاحش   إذا هي نَصّته ولا بمعطّلِ

وقال الآخر :

فلم ترَ عيني مثل سِرب رأيتُه   خرجنَ علينا من زفاف بن واقف

طلعن بأعناق الظباء وأعين الـ   ـجآذر ، وامتدت بهن الروادف

والمها ج مهاة ، وهي الشمس ، قال الشاعر :

ثم يجلو الظلام ربٌّ رحيمٌ   بمهاة شُعاعها منثورُ

والعرب تشبه وجه المرأة بالشمس في الإشراق . قال النابغة :

قامت تراءى بين سِجفي كِلّةٍ   كالشمس يوم طُلوعها بالأسعد

وقال أبو حية :

فـألقت قناعاً دونه الشمس واتقّت   بأحسن موصولين : كـفٍّ ومِعصم

والمهاة أيضاً الدرّة ، والعرب تشبه المرأة بها في الضياء . قال الربيع بن ضبع الفزاري :

كأنها درة منعّمَـةٌ   من نسوة كنّ قبلها دُررا

وقال النابغة :

أو درّة صدفية غواصُها   بَهجٌ متى يرَها يهلّ ويسجدُ

والمهاة أيضاً بقر الوحش . والعرب تشبه المرأة لِحُسن عينيها ومشيتها . قال الشاعر :

لها من مهاة الرمل عينٌ مريضةٌ   ومن ورق الرّيحان خضر أشارب

وقال عمر بن أبي ربيعة :

أبصرتهـا ليـلةً ونسوتهـا   يمشين بـين المقـام والحجر

يرفُلن في الريط والمروط كما   تمشي الهُوَينـا سواكنُ البقر

المهاة أيضاً البلورة . والعرب تشبه المرأة بها في البياض فيحتمل أن يـكون أبو بكر رحمه الله شبه هذه المرأة التي شبب بها ، وجعلها ظبية على الاتّساع ،

بالشمس في إشراقها أو بالدرة في ضيائها وبريقها أو ببقرة الوحش في ُحسن عينيها ومشيتها أو بالبلورة في بياضها ونصاعتها إذ لا دليل في البيت على واحدة مما وصفنا بعينها . إلا أن الأظهر ـ والله أعلم بمراده ! ـ أنه يريد بالمها بقر الوحش، شبه المرأة بها لحُسن عيونها ، وجعلها ظبية على الإتساع لطول جيدها ، وأخذ هذا من قول زهير :

تنازَعها المَها شبَهاً ودرُّ النـ ـحور وشاكَـهَت فيها الظِّباء [1]

ونقل بعد البيت شرح الأصمعي عليه . فهذا مثال واحد لبيت واحد شرحه .

وهو إذا استطرد هنا في اللغة وفي شواهد شعريه لتعضيد معاني اللغة ، فإنه يستطرد لهذا الغرض ولغيره في ُمعظم الاحيان وقدأضاف إلى استطراده الطويل في شرح البيت الاول هذا أن استعمال الظبية تفصيل المرأة كان (علىالاتساع) وأن بعض َمعنى ابن دريد من بيت لزهير .

وهو يبني استطراداته زيادة على تعقُّب اللغة وشرح المعاني على ثلاثة أمور . أولها : الاستطرادات النحوية . والثاني : إشاراته إلى أخذ الشعراء معاني ابعضهم بعضاً ، والثالث : بعض التعريفات بالأعلام والأماكن والمواسم . أما ستطراداته النحوية فتتمثل في إعرابه كلمات وجملا : اقتضى المقام ذلك أم كان نافلة منه، وفي إشارات مختلفة إلى مذاهب الكوفيين والبصريين في بعض المسائل، وفي وقوفه عند بعض القواعد بالشرح والتفصيل . وقد يعرض لبعض مسائل في الصرف . وهذا شرح بيت من أبيات المقصورة كاملا .

لـَيْن إذا لـُوينت َسهل معطفي ألوى إذا خوشنت مرهوبُ الشَّدا

قوله : ليْن أصله ليّن ـ ووزنه فيعل ـ بياءين لانه من لان يلين ، فعين الفعل ياء وقبلها الياء الزائدة . فأدغمت الاولى في الثانية فوقع التشديد لذلك ، ثم يخفف فيقال في ليّن ليْن ، وفي ميّت ميْت . وقد قرىء بهما جميعاً . وفي هيّن هيْن . قال الشاعر :

َهينون لينون أيسارٌ إذا يسروا ُنوّاس مكـْرُمةٍ أبناءُ أيسارِ

---

١) ٤ / ظ وفي الديوان (طبعة الدار) : در البحور . ورواية النحور للأعلم .

ولين خبر مبتدأ مضمر كأنه قال أنا لين ، وسهل كذلك . ومعطفي فاعل سهل . وألوى كذلك . ومرهوب كذلك . والشذا مضاف إليه وهو في موضع رفع لانه مفعول لم يسم فاعله لمرهوب . والتقدير : مرهوب شذاي . والعامل في إذا محذوف دل عليه ماتقدم . والتقدير إذا لوينت لنت . وكذلك إذا الثانية العامل فيها فعل مضمر دلّ عليه الكلام المتقدم . والتقدير إذا خوشنت اشتدت خصومتي وخيف مني . وهذا كما تقول : أنا شاكرك او أشكرك إذا أعطيتني ، وأنا زائرك أو أزورك إذا أكرمتني ، أي إذا أعطيتني شكرتك وإذا زرتني أكرمتك [1] » . فهو توسّل بالإعراب إلى إيضاح المعنى ولكنه إعراب مسهب ، بل لعل الناظر يظن أن الموضوع في النحو لا في شرح معنى البيت ، كما أن الشارح عرّج على لين فقلبها على وجوهها وأتى بميزانها الصرفي ومثّل لكل ذلك.

واهتم بما يعرض من قضايا اختلف فيها البصريون والكوفيون. فكرر كثيراً في أمثلة شتى خلافهم حول كتابة الثلاثي المقصور « والدُّجاج دُجية وهو ما ألبسك الليلُ من ظلمته ، وتكتب بالألف على مذهب البصريين لأنه من دجا يدجو وبالياء على مذهب الكوفيين لأن أوله مضموم ولأن واحدة دُجية [2] ». ورضا مقصور ويكتب بالياء على مذهب الكوفيين وبالألف على مذهب البصريين » ، وسما ، وعلا ، [3] الخ » . وقال في الشاهد :

ما للجمال مشيُها وئيدا   أجندلاً يحملن أم حديدا

« . . وروى الكوفيون مشيها بالرفع والنصب والخفض [4]. وذكر خلافهم على المرفوع بعد إذا : بالفعلية أم بالاسميّة قال :

قد مارست مني الخطوب مرسا   يساورُ الهَول إذا الهول عَلا

« . . الهول فاعل بفعل مضمر دل عليه (علا) . والتقدير إذا علا الهول علا . هذا مذهب البصريين . وأما الكوفيون فيرفعون ما بعد إذا [5] بالابتداء».

ووقف عند مسائل كثيرة في النحو ، من ذلك أنه شرح استعمالات (الكاف) وقال إنها « تستعمل على أربعة أقسام اسم ، وحرف ، وجواز الاسمية والحرفية ،

١) ٩٣ / ظ . ٢) ١ / و ٣) ٣٢ / و . ٤) ٣٨ / ظ . ٥) ٩٢ / و .

وزائدة . . »[1] وبيّن مواضع استعمال النون الثقيلة[2] وفعل (اتخذ ومفعولاته)[3] والأفعال الداخلة على الابتداء والخبر[4] وعمل اسم الفاعل فيما شرط سيبويه »[5] وهو يسهب في شرح ذلك كما لو كان يؤلف في كتاب نحو .

والحق أن ميزة شرح ابن هشام على المقصورة في شيئين : أولهما الإفاضة في أمور النحو والصرف كما وضحت من النواحي الثلاث بما يزيد عن متطلبات شرح عام لقصيدة . والثاني الإضافة في متابعة المعنى الواحد عند شعراء مختلفين على تباين العصور مما يلحق ببحث السرقات . وهو لا يعالج موضوع **السرقات**: باستعمال الاصطلاحات التي شاعت في تمييز أنواعها وتبيين الفروق بين سرقة وأخذ وغصب وانتحال .. الخ مما فصّله السابقون على ابن هشام ،وذكره — مثلا — ابن رشيق في العمدة. وكان غاية ما يستهويه هو إثبات عدد من الأبيات تتشابه في الأغراض وتتقارب في المعاني ، وغالباً ماتكون عبارتُه (أخذ) و مأخوذ) و (هذا ينظر إلى) . وكان أحياناً ينتبه إلى أن الشاعر يعكس معنى غيره وينظمه ، ويعبر هو عنه بأن هذا المعنى (ضد) معنى فلان . ولا نجد عبارات فنية تتصل بهذا الموضوع سوى ما أسلفت تقريباً . وقد يعيّن الأخذ بين اثنين ، ثم يورد أبياتاً أخرى قريبة المعنى أو مشابهة ، دَرَجاً دون أيّ تعليق فهو إما أنه اكتفى باثبات معلوماته وبسط محفوظاته ، أو أنه لم يرد أن يدخل في تفصيلات نقدية لا تدخل فيما وضع لنفسه من حدود في شرحه . ولنبيّن بالأمثلة معلقين على رأيه ، قال :

«شجيت لابل أجْـرَضتني غُصـّةٌ   عنودها أقتلُ لي من الشَّجا

. . وهذا ينظر إلى المثل السائر أتى الوادي فطمّ على القرى »[6] ، وفي مكان آخر :

« وضرم الرأيُ المشِيتُ جُذوة   ما تأتلي تَسفع أثناءَ الحَشا

. . وهذا مأخوذ من قول الحسين بن مطير الأسدي :

لقد كنتُ جلداً قبل أن توقد النوى   على كبدي ناراً يطيب خمودها »

---

١) ٦ / ظ .   ٢) ١١٦ / ظ .   ٣) ١٠ / و .

٤) ١٤ / ظ .   ٥) ١٧ / ظ .   ٦) ١٢ / ظ – ١٣ / و .

فهو عبر في المثال الأول بأنه (ينظر) وهو يعني أخذ المعنى من بعيد ، وعبر ثانية بأنه (مأخوذ) وهو ألصق وأقرب . وعلـّق على قوله :

« واتخذ التـّسهيدُ عيني مألفاً · لمـّا جفا أجفانَها طيفُ الكرى

. . وهذا البيت ضد قول بشار :

لم يطل ليلي ولكنْ لم أنـَم ونفى عـنّي الكرى طيفٌ ألـَمّ

فأخبر أن الطيف الذي نزل به نفى الكرى عن عينيه . وابن دريد ذكر أنه لما جفا الطيفُ جفنَه اتخذ التسهيد مألفاً عينه لأنه إنمـا كان ينام من أجله ، كما قال المجنون :

وإنـّي لأستغشي وما بيَ نعسة لعل خيالاً منك يلقـَى خياليا

وقال الطائي :

ظبي تقنـَّصتُـه لمـّا نصبتُ له في آخر الليل أشراكاً من الحلُم »[1]

فهو استشف علاقة الضدّية بين بيت ابن دريد وبيت بشار ، وأخرجه بيت بشار إلى بيت المجنون بجامع معنى استدعاء الطـّيف والخيال ، وكذلك خروجه إلى بيت الطائي .

وينبـّه أحياناً إلى الإختلاف الجزئي بين المعـَنيين كما في شرحه :

يرسبن في بَحر الدجا وبالضـّحى يطفون في الآل إذا الآلُ طفا

. . وهذا ينظر الى قول ابن الرمي — وإن كان الموصوفان مختلفين — :

كالبحر يرسبُ فيه لؤلؤه سفلاً وتطفو فوقه جِيَفـُه »

وناقش فكرة أنـّه لكل شيء أجل محـــدود ، وزمن موقوت ، من قول ابن دريد[2] :

« إذا ذوى الغصن الرطيب فاعلمَنْ أنْ قُصاراه نفادٌ وتـَوى

وهذا مأخوذ من قول الأسود بن يعفر :

فأرى النعيم وكل ما يُلهى به يوماً يصير إلى بلـَى ونَفادِ

وقال آخر : « والناس يبلون كما يبلى الشّجر »

---

١) ١٠/د . ٢) ١٢/د .

وقالت ليلى الأخيلية :

وكلُّ شباب أوجديدٍ إلى بلى   وكل امرىء يوماً الى الله صائرُ

وهذه كلها راجعة الى معنى واحد ، ثم علق مباشرة على هذه المعـاني بيت للمتنبي فقال : وما أحسن قول المتنبي :

آلة العيش صحةٌ وشبابٌ   فإذا ولّيا عن المرء ولّى

ولعله أراد أن يقول إن صلة بعيدة بين المعـاني السابقة ومعنى بيت المتنبي ؛ وعبّر أيضاً عن إعجابه بالمتنبي .

وغاية ما نقوله في هذا الباب عند ابن هشام إنه حـاول أن يقدم لقارئه في كل معنى أودره ابن دريـد ما سبق به إليه من شعر أو مثل لمتقدم أو محدث وحاول محاولة مبتدئة في تعيين نوع العلاقـة بين معناه وبين المعـاني السالفة السابقه له . فهو إمّا أن يصرح بالأخذ ، أو يقول إن معناه يشبه معنى فلان أو ينظر إليه وكان يهتم بإيراد النماذج والمشبهات أكثر من مناقشتها وتحديد موقفه واضحاً منها ، بعد أن كانت المصطلحات في تعيين أقسام السرقـات شاعت وفشت وتدُوولت. بل إن الاخذ والنّظر والإلمام والضدّية من جملة المصطلحات النقدية ، وإن كان ابن هشام لم يقحم نفسه في تنويعها وتفصيلها ورد مآخذه الى أصولها من كتب النقد السابقة له ، بل إنه لم يشر إلى كتاب واحد في هذ االفن.

ملاحظات عامة : لم يتعرض الشارح إلى فنون البلاغـة ، ولم يشر إلا إلى الاستعارة بشكل عارض في شرحه :

فكان كالليل البَهيم صاح في   أرجائه ضوءُ صبـاحٍ فانجلى

وإنما الصياح هنا مجاز واستعارة لأن النهار لما كان آخذاً في الإقبـال وكان الليل آخذاً في الإدبار شبه النهار بالهازم الذي من شأنـه أن يصيـح على المهزوم [1] » . وأشار في البيت الاول إلى أن ابن دريد استعمل الظبية من قولة في مطلع المقصورة (يا ظبية أشبه بالمها) على الاتساع . وهو باب أفرده ابن رشيق في العمدة [2] .

---

١) ٦ / ظ .

٢) العمدة لابن رشيق (مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ. ١٩٠٧ م) ٢ : ٧٥ .

وكان الشارح يستطرد بين الحين والحين إلى التعريف ببعض الاعلام لمناسبات يرددها الشاعر في مقصورته كتعريفه بإمرىء القيس ، وعبد الرحمن بن الأشعث ، وجُذيمة الأبرش ، ويزيد بن المهلب ، وبيهس وقـُصير ، وعمرو بن هند. وتفصيله في موضوع الحج والعمرة. وهو لا ينصُّ على مصادر نقوله ولا يحيل على مؤلفات بأعيانها . وهو يردد ما في كتب الأدب العامة كالكامل والشعر والشعراء والأمالي وغيرها . وكان يشير أحياناً الى بعض الامثال مثل (لكل جواد كبوة) [١] و (إن الشقي وارد البرَاجم [٢]) وقولهم (لا لعالك)[٣]. وينص على الرجوع إلى كتاب أبي عبيد البكري في شرح أمثال ابن سلام . وهي أمثال قليلة استدعاها الشرح لبعض إشارات ابن دريد ، كما انـه ، كان يورد بعض أشعار المحدثين للإستئنـاس أو التلمح دون تسميته ، اكتفاء بقوله : (ولبعض المحدثين) أو ما شابه هذه العبارة .

---

١) ١١٥ / و .   ٢) ٤٤ / ظ .   ٣) ٢٧ / ظ .

الشروح الذوقيّة الجماليّة

شرح مشكل أبيات المتنبّي
لابن سِيْدَه

هو أبو الحسن علي بن أحمد [١] بن سِيْده ، لغوي نحوي من مشاهير علماء الأندلس، قال فيه الحُميدي في جذوة المقتبس : « إمام في اللغة وفي العربية ، حافظ لهما ، على أنه كان ضريراً . وقد جمع في ذلك جموعاً وله مع ذلك في الشعر حظ وتصرف [٢] » . ولد سنة ٣٩٨ بمُرسية وهي قاعدة كورة تدمير [٣]، ومنها ذاعت شهرته وبَعُد صيته بالعلم واللغة والشعر ، وفي هذا يقول ابن سعيد نقلاً عن المسهب « لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تواليف ، تفخر مرسية به أعظم فخر ، طرزت به برد الدهر ، وهو عندي فوق أن يوصف بحافظ أو عالم [٤] .. » تلقى أبو الحسن علومه عن كثيرين؛ منهم والده

(*) انظر ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي ٢٩٣ – ٢٩٤ . والصلة لابن بشكوال : ٤١٧ – ٤١٨ وبغية الملتمس للضبي : ٤٠٥ . ومطمح الأنفس لابن خاقان : ٦٠ وفهرسة ابن خير : ٣٥٦ – ٣٥٧. وطبقات الأمم لصاعد الأندلسي ١١٩ – ١٢٠ . والمغرب لابن سعيد : ٢ : ٢٥٩ . ومعجم الأدباء لياقوت (ط . مصر) ١٢ : ٢٣١ – ٢٣٥ . ووفيات الأعيان لابن خلكان : ٣ : ١٧ – ١٨ . وإنباه الرواة للقفطي ٢ : ٢٢٥ – ٢٢٧ . والديباج المذهب ٢٠٤ – ٢٠٥ . وبغية الوعاة للسيوطي ٢ : ١٤٣ . ونفح الطيب ٣ : ٣٥١ . وسير أعلام النبلاء ١١ : ٢ : الورقة ١٧٨ (مصورة بدار الكتب رقم ح ١٢١٩٥) .

وانظر : Brock G. 1. 308. S. 1. 542.

١) اختلف في اسم أبيه بين أحمد كما في الجذوة واسماعيل كما في الصلة ، وظهر الاختلاف أيضاً في فهرسة ابن خير وطبقات الأمم والمغرب . وأثبت الاسم كما في أقدم نص وأقربه للمترجم به ، والحميدي معاصر لابن سيده وأدرك وفاته . والأمر بحاجة الى مزيد تدقيق .

٢) ص ٢٩٣ . ٣) الروض المعطار للحميري : ١٨١ . ٤) المغرب ٢ : ٢٥٩ .

اسماعيل بن سيده [١] . وفي ترجمته أنه لقِيَ أبا بكر الزبيدي وأخذ عنه مختصر العين ، وأنه كان من النحاة ومن أهل المعرفة والذكاء [٢] . ومنهم أبو عمر الطّلمنكي ، وصاعد اللغوي البغـــدادي . وفي فهرسة ابن خير أن [٣] « أبا سليمان بن أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أخذ عن ابن سيده كتاب مختصر العين للزبيدي ، وقد كان ضريراً ، وكان أبوه كذلك ، وعُرف بحافظة شديدة وعلم غزير ، ومعظم الذين ترجموا له ينقلون حكاية غريبة ؛ قال ابن بشكوال : وذكر الوقشي عن أبي عمر الطلمنكي قال : دخلت مرسية فتشبّث بي أهلُها ليسمعوا عليّ الغريب المصنف فقلت لهم : انظروا لي من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي ، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده فقرأه علي من أوله إلى آخره ، فعجبت من حفظه ، وكان أعمى ابن أعمى [٤] .

وقد اشتهر ابن سيده بأنه نحوي لغوي ، وقد ألف كتابين كبيرين في اللغة هما : المُخصص ، والمُحكم ، وجمع فيهما علماً غزيراً . ولعل حافظته الواعية كانت تغلب عليه ، فيملي صفحات من كتب غيره ضمن كتبه . قال محقق كتاب الخصائص « على أنه أتيح لابن جني لغوي كبير أغار على فوائده وبحوثـــه اللغوية ، وذلك هو ابن سيده علي ابن أحمد المتوفى سنـــة ٤٥٨ ، وهو كثيراً ما يغفل العزو إليه في كتابه المحـكم [٥]. ويأتي صاحب اللسان فينقل ما عند ابن سيده ، وينسبه إليـه وهو لابن جني .. [٦] ثم قال : وترى في المخصص [٧] من آخر صفحة ٣ إلى آخر صفحة ٧ من الجزء الأول بحثاً في اللغة .. وهـذا في الخصائص ج ١ صفحة : ٤٠ - ٤٧ .. [٨]. ولم يكن المؤلفون والمصنفون الأوائل يهتمون كثيراً لعزو نصوصهم وإسناد شواهـدهم ، وهـذا من الأمثلة على ذلك .

وعُرف ابن سيده أيضاً بعنايته بالمنطق وفي هـذا يقول القاضي صاعد

---

١) ترجم له في الصلة ١ : ١٠٤ وانباه الرواة ١ : ١٩٩ تحت اسم اسماعيل .
٢) الصلة ١ : ١٠٤ وقال انه توفي بعد الأربع مئة .
٣) فهرسة ابن خير ٣٥٠ . ٤) الصلة ٢ : ٤١٧ - ٤١٨ .
٥) فهرسة ابن خير : ٣٥٦ . ٦) الخصائص لابن جنّي - ط دار الكتب المصرية ١ : ٢٩
٧) فهرسة ابن خير : ٣٥٦ . ٨) الخصائص ١ : ٣١ .

الأندلسي ... عُني بعلوم المنطق عناية طويلة وألف تأليفاً كبيراً مبسوطاً ذهب فيه إلى مذهب متّى بن يونس ، وهو بعد هذا أعلم أهل الاندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار ... وختم ترجمته بقوله : .. فهؤلاء — ابن سيده وجماعة ذكرهم — مشاهير أهل البُرهان من علماء الاندلس [١] . ونقل ياقوت في معجم الأدباء أن ابن سيده كان مع إتقانه لعلم العربية ، متوفراً على علوم الحكمة ، وألف فيها تأليفات كبرى . وسنرى في شرحه على مشكل المتنبي صدى تأثره بعلم المنطق . وشارك أيضاً في الشعر ، وقال الحميدي فيه : وله مع ذلك في الشعر حظ وتصرف [٢] وكثر في ترجمته نقلهم أبياتاً من قصيدة رفعها إلى إقبال الدولة العامري صاحب دانية معتذراً ، مطلعها :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليُمنى ... سَبيلٌ فإنّ الأمن في ذاك واليُمنا
ضحيت فهل في بُرد نومك نومة ... لذي كبد حَرّا وذي مقلة وَسْنا
ونضو هموم طَلّحته طياته ... فلا غاربا أبقين منه ولا متنا [٣] ..

ونقل صاحب المغرب من شعره :

لا تضجرن فما سواك مؤمّلُ ... ولديك يحسن للكرام تذللُ
وإذا السحاب أتت بوابل درها ... فمن الذي في الريّ عنها يَسأل
أنت الذي عوّدتنا طلب المنى ... لا زلت تَعلم في العلى ما يُجهل

ويبدو أنه انفق كثيراً من شعره في الأماديح . وشعره — مما نرى من شواهد — لاحق بشعر أنصار مدرسة الشعر القديم الرصين ، وهو يصطنع له الغريب من اللغة ، والمألوف من المعاني العربية الشعرية .

والمعروف عنه — فيما لدينا من أخباره — أنه كان في خدمة مجاهد العامري [٤] صاحب دانية . وقال الحميدي إنه كان منقطعاً إلى الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله العامري [٥] . ويفسر لسان الدين بن الخطيب في أعمال الأعلام في حديثه

---

١) طبقات الامم الصاعد : ١١٩ – ١٢٠ . ٢) الجذوة : ٢٩٣ . ٣) المصدر نفسه .
٤) أعمال الاعلام : لسان الدين بن الخطيب : ٢١٧ – ٢٢٠ .
٥) الجذوة ٢٩٣ . وحكم مجاهد العامري دانية من ٤٠٨ – ٤٣٦ وخاض في الفتنة فزاد ملكه ونقص .

عن دولة مجاهد العامري، وعن الحركة الثقافية في ايامه فقال انه جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه وأتت إليه العلماء من كل صقع ، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم ، كأبي عمرو المقرىء ، وابن عبد البر وابن معمر اللغوي ، وابن سيده ، فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلمانه [١] ... وحدثت بين ابن سيده وبين علي بن مجاهد (إقبال الدولة) نَبوة ، بعد أن آل ملك أبيه إليه ، لا ندري سببها ولا زمنها ، والأبيات السابقة استعطاف من ابن سيده لإقبال الدولة ، يستعطفه ويستعتبه مما بدر منه ثم عادت الحال إلى سابقها من الصفاء بينهما . وتوفى ابن سيده سنة ٤٥٨ [٢] بدانية في ظل حكم إقبال الدولة الذي امتد إلى سنة ٤٦٨ حين أخذ ابن هود — جار إقبال الدولة وصهره — ما بيده واحتل دانية [٣] .

مؤلفاته : ١) المحكم في اللغة ، ذكره ابن خير وقال : الكتاب المحكم والمحيط الأعظم ، مرتب على حروف المعجم في اللغة [٤] طبعت بعض أجزائه ، ولا يزال قسمه الأعظم مخطوطاً . ٢) المخصص ، قال ابن خير الكتاب المخصص في اللغة ايضاً ، مرتب على الأبواب كالغريب المصنف [٤] ٣) الأنيق في شرح الحماسة ، ذكره ابن خير[٤] وابن بشكوال [٥] وغيرهما . ٤) شرح أبيات الجمل للزجاجي ، ذكره ابن خير[٤]. ٥) العويص في شرح إصلاح المنطق، ذكره ابن خير [٤]. وذكرت له كتب أخرى في اللغة والعروض . وغلبت صفة اللغوي النحوي عليه عند معظم الذين ترجموا له . ويبدو أن ابن سيدة كان معجبا بنفسه ومزهوّاً بما عنده ، فقد قال في مقدمة كتابه المحكم عن كتابه هذا « ولو كان لكتابي هذا نفس ناطقة ، ولسان مطلقة ، لأنشد قول أبي الطيب :

غضبُ الحسودِ إذا لقيتُك راضياً رزءٌ أخفُّ عليك من أن يوزنا »[٦]

وقال في مكان آخر « إني أجد علم اللغة أقل بضائعي ، وأيسر صنائعي إذا إذا أضفته الى ما أنا به من علم حقيق النحو ، وحوشيّ العَروض ، وخفي

---

١) أعمال الاعلام ـ لسان الدين الخطيب : ٢١٨ . ٢) وفيات الاعيان ٣ : ١٨ .
٣) أعمال الاعلام : ٢٢٢. ٤) فهرسة ابن خير : ٥٦٣. ٥) الصلة : ٢ : ٤١٧ .
٦) المحكم والمحيط الاعظم لابن سيده ـ تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار ـ طبع مصطفى الحلبي ١ : ٧ .

القافية ، وتصوير الأشكال المنطقية ، والنظر في سائر العلوم الجدلية . . » [1]
وهذا الإعجاب بنفسه ، وإظهار التمكن من الجدل والمنطق ، والتمثل بقول أبي الطيب ، يفتح لنا باب الحديث .

كتابه : في دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من كتاب شرح مشكل أبيات المتنبي لأبي الحسن علي بن سيده . واسم المؤلف كاملاً على كتابه « أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي المعروف بابن سيده » وهو يقع في ١٧٩ ورقة من القطع الصغير . وهو ، كما يبدو من عنوانه ، شرح لأبيات مختارة ، انتقاها الشارح نفسه – على الأغلب ، فليس ما يدل على أن أحداً معيناً سأله شرح تلك الأبيات أو بعضها – وعالجها من وجهة نظره ، وهي الأبيات التي اعتبرها (مشكلة) . وهذا « الإشكال نفسه موضع نظر ، أهو إشكال لدى معاصري الشارح ممن أخفقوا في توجيه معانيها واستكناه مراميها ، أم هو إشكال لدى فئة كانت تلازم اللغوي النحوي" المنطيق الضرير ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون استعراضاً شخصياً لأبيات أحب الشارح أن يبين براعته في فهمها على نحو ما يشرح أهل عصره، وعلى نحو جديد استعمل فيه بضاعته من الفلسفة والمنطق واستخدم آلاتها ؟ ومهما يكن من أمر الجواب ، فإن الكتاب جدير بوقفة قصيرة ، نعرض لما فيه ، ونرى صورة ما من صور ابن سيده ، وقد نقلنا رأيه الذاتي في نفسه باعتباره متفلسفاً منطقياً .

منهج الكتاب : في بداية النسخة المعتمدة لدينا من الشرح [2] قال الناسخ ، ولعلها من إضافة أحد ملاك نسخة سابقة ، « .. وبعد فهذا شرح غريب موجز ، وتعليق لطيف منجز ، للشيخ الإمام أبي الحسن . . . » [3] وهذه نظرة سريعة صحيحة ، وإن كانت لا تصور كل شيء في هذا الشرح . ويبدو أن ابن سيدة أصاب سهمه الأول حين جعل من المتنبي قضية" له، بعد أن كان صيته في الأندلس يطبق الآفاق . وهذا أمر سنعرض له فيما بعد ، ونبيّن مكانة المتنبي من الأدب

---

١) المحكم : ١ : ١٦ .
٢) شرح مشكل أبيات المتنبي ـ نسخة دا الكتب المصرية : ٢ / ظ .
٣) في دار الكتب نسخة أخرى مصورة عن تونس رقم (١٨٨٧٧ ز) وثالثة نسخها نساخ حديث برقم (١٣٨٥٣ ز).

الأندلسي ، والشعر بخاصة . ومن ناحية أخرى فـان ابن سيدة طبق شيئاً من معلوماته المنطقية ، وأورد أشياء من آرائـه في معـاني المتنبي مخالفاً « بعض الشراح » و « بعض النقاد » وبهذه النواحي اصطبغ الشرح ، وتأثر .

لم يكن الأساس الذي اختار الشارح – بناء عليه – أبيات المتنبي المشكلة واحداً . فهو يقف عند أبيات متداخلة المعاني ، أو له عليها ملاحظات لغوية أو رأي بلاغي . ومعظم ما وقف عنده أبياتٌ فيها إشارات فلسفية أو منطقيـة ، أو أن الشارح وجّـه معـانيها توجيهات منطقية : احتملت ذلك أم لم تحتمل . واحتوى كتابه على ملاحظات نقدية وبلاغية أخرى مبثوثة في ثنايا الكلام. والشارح يورد الأبيات مفردة ويعالج كل بيت على حدة ، دون مراعاة لترتيب الأبيات على أبواب المشكل الذي بنى عليه كتابه ؛ فإن وُجدت في القصيدة أبيات ، سردها كنظامها فيها . والكتاب – بهذا – يخرج شيئاً كثيراً عن كتب الشروح التي أسلفنا عرض بعضها، ذلك أنه لم يلتزم شرح الديوان كاملاً، ولا شرح جزء منه وإنما هو وقفات ذوقية شخصية عند أبيات اختارها الشارح ؛ وهو بذلك نموذج فريـد في منهجه وإن كان ابن السِّيد ستيحتذي صنيعه من حيث المبدأ ، دون أن يكون في كتابه هذا الإلحـاح الغريب على المنطق ، والتوجيه به . ولنبدأ بمثال ، فنلاحظ طريقته ، ونشرح بعدُ ما يقـع منه . قال المتنبي : (١) .

« ياليت لي ضربة أُتيحَ لها   كما أُتيحت له محمّدُها

معنى إتاحة الضربة له : حلولها به . ومعنى إتاحة محمد لها نبوها عنه ، واحتماله لها وتأثيره فيها بزعمـه . وكذلك كل حال ، وذي حـال كل واحد منهما متاح لصاحبه . وأراد . أتيح لها محمدها كما أتيحت هي له ، وأتيح : قُـدّر . ويجوز أن يكون أراد الضربة ذُمت حين وقعت به لأنها لم تكن له بحق ؛ فكان ذلك الذم تأثير فيها . وكذلك السيف ضرب غير مستحق فذاك الذم تأثير فيه . وكل ذلك مجاز واتساع . أي قُدر محمد للضربة كما قُدرت له . فـكان هو المؤثر فيها . ألا ترى الى قوله بعد :

أثر فيها وفي الحديد وما   أثّـر في وَجْهه مهندُها

١) شرح المشكل : ٤ ظ ـ ٥ و .

أثر في الشيء : غادر فيه أثراً . ولا يكون التأثير إلا في الجواهر كقولك : أثّر المطر في الحائط ، والخُف في الأرض . وأثر المرضُ في جسمه . ولا يكون ذلك في العَرَض . وقد اقتسم قوله: (أثر فيها وفي الحديد..)جوهراً وعـرَضاً. أما الجوهر فالحديد ، فالتأثير فيه سائغ. وأما الهاء في قوله : فيها، فعـرَض لأنه كناية عن الضربة التي في قوله : (يا ليت لي ضربة أتيح لها) وإنما لم يصح التأثير في العرض لأن التأثير إبقاء للأثر. والأثر عين. والعَين لا يكون أثره إلا في عين مثله. أعني بالعين الجوهر إذ لا يحمل الجـوهر إلا جوهر . وأما العَرَض فليس بعين ؛ فيكون حاملاً لعين آخر . فإذاً قوله : أثر فيها : استعارة ومجـاز غريب كأنه توهم الضربة عيناً ، بل هو عندي أبلغ لأنه إذا أمكنه التأثير في العَرض كان له في الجـوهر أمكن ، لكنه مـع ذلـك قـول شعري أعـــني ليس بحقيقـة . وقوله (ومـا أثر في وجهه مهندهـا) . المهنـد : السيف . وهـو عندي من من قوله : هَنَّدته النسـاء أي تَيَّمته . والمتيَّم : نحيل ، فكذلك السيف . ولم ينف تأثير المهند في وجهه نفياً كلياً، وكيف ذلك وقد أثبت الضربة وهي التأثير؟. وإنما أراد أن المهند لم يؤثر في وجهه أثراً قبيحاً لأن وقوع الضربة على الوجه تزين ولا تشين لدلالتها على الشجاعة والإقدام كما أن التأثير في الظهر دليل على الجـبن والفرار ، كقوله :

فلسنا على الأعقاب تَـدمى كلومُـنا ولكنْ على أعقابنا تقطـُر الدّما

ويروي يقطر الدما . جعل الدما اسماً مقصوراً كفتى . . فهذا شيء عرَض، ثم نعـاود الغرض . فكأن المهنَّد لما وقـع على وجهه – فـكان ذلك إشعاراً بالإقدام – لم يؤثر فيه البتة . فلذلك نفى التأثير في اللفظ نفياً عاماً . ونحوه ما حكاه سيبويه من قولهم: تكلمت ولم تكلم. أي أنك لما لم تـُجد ولا أصبت كنت بمنزلة من لم يتكلم ، وإن كنت قد تكلمت » .

ويرى القارىء سريعاً كيف تقلب الشارح في بيتي المتنبي بـين الشرح اللغوي الخفيف وشرح المعنى ، وملاحظة بعض وجوه البيان ، ومعالجة جزء من المعنى معالجة منطقية ، استخدم فيها العَرَض والجَوهر . وخرّج تأثير الجوهر بالعرض على أنه استعارة ، لأنه لا يصح تأثيرُ الجوهر في العرض إلا على المجاز والإتساع.

الفلسفة في شعر المتنبي : شغلت حِكم المتنبي الدارسين قديماً وحديثاً . فمنهم من عاد بعدد كبير منها – مثل الحاتمي – إلى فلسفة أرسطو ومنهم من جرّده من التأثر به البتة مثل أحمد أمين [1]. ويقول د. محمد مندور بعد عرض طويل لما سلف من آراء النقاد : في الحق إننا بمراجعة حِكَم أرسطو وأبيات المتنبي نرى ردّ بعضها إذ اتضح أن معنى الحكمة ومعنى البيت أو البيتين مختلفان ، حتى لتلوح المقارنة بينهما تعسفية ، وكذلك الأمر في بعض الأبيات الأخرى التي نرى أن معانيها قريبة وصياغتها عربية عادية ، فهي وإن اتفقت مع جملة أرسطو في المعنى إلا أن ذلك قد يكون وليد المصادفة البحت . . وأما ما دون ذلك فإننا لا نستبعد أصلا أن يكون المتنبي قد تأثر فيه بأرسطو ، وبخاصة عندما تشهد الصياغة بذلك ، ويكون البيت تعبيراً عن فكرة نظرية فلسفية ... » [2] وهو لا يرد ذلك إلى السرقة ، ولكن الى (الاستيحاء) فهو لا يصوغ حكمة ما لأرسطو شعراً ، ولكنه قد يستوحي فكرة ما على وجه من وجوه التأثر .

والشارح لم يتابع كل حكم المتنبي ليعارضها بحكم أرسطو أو غيره من الفلاسفة ولكنه أشار مرات إلى ما سماه (رأي الفلاسفة) ، فمن ذلك مناقشته بيت أبي الطيب :

« أحادٌ أم سُداسٌ في أُحادِ لُيَيْلَتُنا المَنُوطةُ بالتَّنادي [3]

ليلتنا صغّرها تصغير التعظيم ، ووجه تصغير التعظيم أن الشيء قد يعظم في نفوسهم حتى ينتهي إلى الغاية ، فإذا انتهاها عُكس إلى ضده لعدم الزيادة في تلك الغاية . وهذا مشهور من رأي القدماء الفلاسفة الحكماء : أن الشيء إذا انتهى انعكس الى ضده – ولذلك جعل سيبويه الفعل الذي لا يتعدي الى مفعولين، وهي نهاية التعدي ، بمنزلة الفعل الذي لا يتعدى إلى مفعولين ، قال : لأنه لما انتهى فلم يتعد صار بمنزلة ما لا يتعدى ، وهذا منه طريف جداً » .

وعالج الشارح بيت المتنبي :

ولجُدتَ حتّى كدت تبخل حائلاً للمنتهى ، ومن السرور بكاء !

---

١) عرض الدكتور محمد مندور لمشكلة المتنبي وما دار حوله من نقد في (النقد المنهجي عند العرب) . نشر مكتبة نهضة مصر – القاهرة – ١٩٤٨ . انظر ١٩٣ – ٢٠٨ .

٢) النقد المنهجي : ٢٠٥ . ٣) شرح المشكل : ٢٨ / و .

• فقال « . . . إن شئت قلت : بلغ جودك الغاية ، ومعروف أن الشيء إذا انتهى انعكس ضداً ، فكذلك جودك لما انتهى فلم يك مزيـد كاد أن يستحيل بخلا ... » [١] . وعالج الشطر الثـاني بالأسلوب نفسه : « وهذا معنى فلسفي وما نظن أن المتنبي كان يستطيع أن يصل إليه لو أنه لم يكن مثقفاً تثقيفاً فلسفياً ، فهو يعتمد على قـول الفـلاسفة : اذا زاد الشيء من حده انقلب الى ضده . . . » [٢] . هذا حـال الشاعر ، والشارح أشد تصريحـاً بتعلقه بالفلسفة والمنطق ، فقد قال انه ينقل عن الفارابي في باب البرهان [٣] . والدكتور مندور يقول في المتنبي : « من الثابت أن الفارابي قد أوى الى كنف أمير حلب سيف الدولة وعاش في بلاطه ، ولاشك أن المتنبي قد تأثر بما نشر المعلم الثاني في تلك البيئة من مبادىء الفلسفة » [٤] .

والشارح يرى أن الإتيان بمثل هذا حسَن في الشِّعر ، ويعبر عن الطباق أو المقابلة بعبارة أقرب الى المنطق ، وينتقد معنى المتنبي على هذا الأساس ، قـال في شرح بيت المتنبي :

« وتُحيي له المالَ الصوارمُ والقنا ويقتل ما تُحيي التَّبَسّمُ والجَدى

« . . ولو قال : يميت مكان يقتل لكان أشد مقابلة للحياة لأن القتل ليس بضد الحياة ، إنما هو علة ضد الحياة في بعض الأوقـات ؛ ونقيض الحياة إنما هو الموت ، ومقابلة الشيء بنقيضه أذهب في الصنعة » [٥] . فهـو لم يكتف بكلمة يقتل ، لأن « الصناعة » تقتضي أن تكون المضادة تامة : وشرح قوله :

ولقد علمنا أننا سنطيعه لما علمنا أنّنا لا نخلُد

« أي علمنا أننـا في طاعة الفراق والانقياد له ليقيننا بالموت الذي هو أشد أنواع الفراق . . . ومن ظريف هذا البيت إيجابه لطاعة الجنس ، وجعله عـلة ذلك إطاعة النوع الضروري ، لأن النوع قابل لاسم الجنس . وهذا منه تفلسف منطقي بديع [٦] » . و

أسَفي على أسفي الذي دَلَّهتني عن علمه فيه عليّ خفَاءُ

---

١) شرح المشكل: ٤٠ / ظ . ٢) النقد المنهجي: ١٩٨ . ٣) شرح المشكل: ٣٧ /ظ .
٤) النقد المنهجي: ٢٠٤ . ٥) شرح المشكل: ١١٦/و. ٦) شرح المشكل: ٧٣ / و.

« ليش يأسف في الحقيقة على الأسف إنما يأسف على تمييزه الذي كان يعقل به أسفه ، فحقيقة الكلام : أسفي على عقلي الذي كنت أحصّل به أسفي فيه عليّ خفاء . أي أنك قد دلهتني حتى ما أشعر بأسفي . وقد كان ينبغي له أيضاً أن يذهب عليه لو كان مدلهاً أسفه على هذا الأسف الى ما لا نهاية له ! لكن هذا مقطع شعري فلا تتقصيّن بالمنطق فيفسد !! »[1] وبعد أن وضّمنا في الحلقة المفرغة أشار علينا بعدم متابعة المنطق واستقصائه لئلا يفسد المعنى الشعري ، ولقد يريد الخشية على المنطق ! .

هذه معان وجّهها الشارح بتوجيهات فلسفية منطقية ، استخرج بعضها من معان فلسفية كشرحه قوله « ومن السرور بكاء » ، وطبق منهجه في توجيه المعنى توجيهاً منطقياً . ولقد يظن القارىء أن هذا شيء عارض ، فاذا قلبنا صفحات الكتاب لاحظنا أنه (مكتظ) بهذا ، ان عرض معاني المتنبي على ميزان الشارح المنطقي الفلسفي — فيما اختاره من أبيات — هو منهج التزمه كثيراً وصار غالباً على الكتاب . وقد يشرح المعنى شرحاً معنوياً ولغوياً ، أي شرحاً يتأدّى من فهم مدلولات الألفاظ ، ومعطيات المعاني فحسب ، ثم يتبعه بشرح ينفّذ فيه منهجه ويُحكم طريقته ، ويفصل بين الشرحين بعبارة « وإن شئت قلت . . » أو ما هو قريب من ذلك . وقد يكون الشرحان مما يناسب منهجه ، ويجاري قياسه .

وهذا مثال من النوع الأول : شرح قوله :

تُشرق أعراضهم وأوجههم كأنها في نفوسهم شِيَمُ

« لا شيء أصفى ولا أبسطَ من النّور . فلذلك توصف الجواهر الصافية به ، وأولى شيء بذلك الأمور النفسانية لأنها أذهبُ في البقاء . والشيمة نفسانية ، والوجه جسماني . والعَرض يمكن أن يكون الجسم ، فلم يخلص الى النفسانية كخلوص الشيمة فشبه أبو الطيب الأعراض والأوجه بالشيم في الشروق والصفاء ، وتناهي البقاء . وإن شئت قلت : وضع هذا الكلام على أنه قد علم أن شِيمَه مشرقة عِلماً عاماً . وقدم ذلك لمزية الشيمة — وهي الطبيعة — على الوجه

١) شرح المشكل ٣٧ / ظ .

والعرض . فحمل الوجه والعرض بعد ذلك عليها بسببها . والأوجَه ما قدمناه من أن الشيمة نفسانية ، فهي أملك بالصفاء. والوجه والعرض جسمانيان فحملها عليها » [١] . فهو يفضل الشرح الذي اصطنع مصطلحات المنطق والفلسفة على شرحه الآخر الذي اقتصد فيه من تلك المصطلحات،واكتفى فيه بعرض المعنى كما يتأدى من لفظه وإيحائه . وهذا شرح آخر لقوله :

وبقايا وقاره عافت النا س فصارت ركانة في الجبال [٢]

« كأنه استبد بالوقار أجمع إلا أنه بقيت منه بقية ، فتلك البقية عافت نوع الانسان لِما رأته به من قلة الاحتمال لهـا ، والعجز عن الاستقلال بها لضعف سنه ووهي قوته . فعدلت إلى أجسم الجواهر الأرضية وهي الجبال إذ لم تجد جوهراً يستقل بها إلا إياها . وإن شئت قلت : ان لوقاره هيولى خلق منها . فما فَضل من تلك الهيولي يكون ركانة في الجبال [٣] » .

وتحدث عن بُعد الحبيب باعتباره « مسافة نفسانية » [٤] وأن الجد معدود في الفضائل النفسية ، والتواني يعد في الشقاوة لكونه في الرذائل التي يبعث عليها العجز ..». وأكثر من تحكيم لَفظَي الجَوهر والعَرض ، ولعل ابن سيده توسم ألاّ يتقبل مُعاصِره كلامه بقبول حسن ، أو أن يكون بعيداً عما ألفوا فقال بعد شرح إحدى مسائله « ولو وثقنا بفهم بني الزمان لغَنينا عن إطالة البيان » [٥] ، وهذه دعوى عريضة إلا أن يكون أضمر ما نظنه من تَوقّع استغرابهم صنيعه .

مآخذ على المتنبي : لابن سيده جملة ملاحظات على أبيات كثيرة ، يرتد بعضها الى استعمالات لغوية ، ويرتد بعضها الآخر الى المعنى نفسه ، أو أشياء أخرى . من ذلك ملاحظته على استعمال لو واذا ، قال المتنبي :

---

١) شرح المشكل : ٩٢ / و .

٢) البيت من قصيدة في مدح عبد الرحمن بن المبارك الانطاكي وقبله(ص ١١٣ ط عزام).

« رجل طينه من العنبر الورد وطين العباد من صلصال

فبقيات طينه لاقت الماء فصارت عذوبة في الزلال » ..

٣) شرح المشكل:٣٧/و . ٤) شرح المشكل : ٤٤/ ظ. ٥) شرح المشكل:١٨ /ظ.

« نظمت مواهبُه عليه تمائماً   فاعتادها فإذا سقطن تفزّعا

... ولو قال (فلو سقطن تفزعا) لكان أشبه بالمعنى لأن قوله (فإذا) يشعر بسقوطهن في بعض الأوقات ، لكن سقوطها إنما يكون لعدم مال أو انقطاع سؤال . فهذا توجيه قوله : فإذا سقطن »[1] . واعترض عليه لعطف النكرة على المعرفة في قوله :

أذا الغصن أم ذا الدعْصُ أم أنت فتنة   وذيّا الذي قبّلته البرق أم ثغر

وقال « .. كان أصنَع أن يقول : برق ، لمكان ثغر ، لأنهما نكرتان »[2] . واعترض على المتنبي لغلوه الشديد في قوله :

ولو برز الزمان إليّ شخصاً   لأدمى شعرَ مفرقه حُسامي

فقال « . . فتمناه هو شخصاً ليوقع به ، غلواً منه وعلواً ، وعليه دائرة السوء »[3] . وزاد اعتراضه على بيته في مدح بدر :

طلبنا رضاه بترك الرّضا   رضينا له فتركنا السجودا

فقال « قبحاً لكلامه ، ونَسْراً في هذا الموضع وأشباهه لنظامه[4]» وهذه صورة دينية واضحة .

وعلق على (غربة اليد) في قوله[5]:

ولكن الفتى العربي فيها   غريب الوجه واليد واللسان

« .. وأما غربة اليد فقيل إنّه عنى بها الخط ، ولا يعجبني ، إنما عنى بها الجود ، والجود للعرب » . وانتقد المتنبي لمعاظلته وسوء تأليفه الكلام في قوله :

أنى يكون أبا البريّة آدمٌ   وأبوك والثقلان أنتَ محمدُ

هذا مَحْل من القول وسفَه . . وهذا من قبيح الضعف وطريف السخف[6]. وانتقده لأنه فصل بين المبتدأ والخبر بجملة أجنبية في قوله « وأبوك — والثقلان أنت — محمد » . وانتقده لمبالغته الشديدة في قوله :

يقولون تأثيرُ الكواكب في الورى   فما بالُه تأثيرُه في الكواكب

... ويذهب إلى تكذيب المنجمين ، فيقع فيما هو أوحش وأفحش من

١) شرح المشكل : ٣٣ / و . ٢) الورقة ٢٢ / ظ . ٣) الورقة ٢١ / و .
٤) الورقة ٤٣ / و . ٥) الورقة ١٨٢ / و . ٦) الورقة ٢٠ / ظ .

قولهم ، وهو قوله : إن هذا الممدوح أثر في النجوم بفضله عليها ... [1] وهو لا يحبّذ المبالغة الشديدة التي تجاوز حدّ الاعتدال ، وخاصة ما يمس العقيدة من وجه ، كما سبق ، ومن ذلك شرح بيته :

يريك من خلقه غرائبه   في مجده كيف يُخلق النَّسم

فانه دفع أن تكون (خلق) ههنا بمعنى الابتداع – الخلق من عدم – وقال « وإنما الخلق هنا كناية عن الصُّنع ، وكنّى عنه بلفظ الخَلق ذهاباً إلى ابتداع هذه الغرائب . وهذا أمر شديد المبالغة [2] ».

مناقشات : ولا نعدم إشارات إلى شراح للمتنبي يذكر بعضهم كابن جنّي ، ويُغفل آخرين ، وهو يناقشهم في بعض شرحهم ويخرج تخريجات خاصة تتفق ومنهجه أو تغاير في فهم المعنى . وشرح قوله :

تشقكم بفتاها كل سَلْهَبَة   والضربُ يأخذ منكم فوق ما يَدَع

« بفتاها أي بفارسها . ذهب في لفظ الفتى الرفع من شأن الفارس كقولهم : أنت الفتى كل الفتى ، لا يذهب الى فتاء السن ولكنه كقوله : أنت الرجل ! تمدحه بالصبر والثبات والنجدة ، لا تعني به الرجولة التي هي الذكورية . و (الضرب يأخذ منكم فوق ما يدع) ذهب قوم الى أنه عنى أن القتلى أكثر من الناجين ، وهو لعمري قُوَيل ، والذي عندي أنه لم يَعْنِ بذلك الكَمّ . وانما عنى أن الضرب يأخذ النفوس ويدع الأبدان. والنفس فوق الجسم في لطف الجوهر وشرف العنصر . فهذا معنى قوله : فوق ما يدع ، لا الكمية التي ذهب إليها أولاً [3] » ! والمعنى الذي رجّحه بل ارتضاه الشارح معنى طارىء وسياق الأبيات (من قصيدة يمدح بها سيف الدولة) لا يؤدي إلى ترجيح ما ذهب اليه :

وفي قول المتنبي .

فقد غيب الشهاد عن كل موطن   ورد الى أوطانه كل غائبِ

قال بعض النقاد ، وهذا كقول أبي نواس :

واذا المَطيُّ بنا بلغنَ محمداً   فظُهورهنّ على الرجال حرامُ

١) الورقة : ٧ / و .   ٢) الورقة : ٣٢ / و .   ٣) شرح المشكل : ٨٤ و – ظ.

وليس عندي مثله ، لأن المتنبي قال أغنى هذا الممدوح قصّادَه وردهم إلى أوطانهم فكفاهم السفر . وأبو نواس قال : إذا بلغت المطي بنا هـذا الأمير حرمت ظهورها على الرجال أي لم تركبها أبداً ولا امتهناها جزاء على تبليغهـا إيانا أملنا من لقائه . ولم يذكر عطاء ولا كفاية سفر ..[٢]» . ورد تشبيه النقاد قول أبي الطيب :

همُّه في ذوي الأسنةِ لا فيـ ـها وأطرافُها له كالنّطاق

بقول أبي تمام :

إن الأسود أسودَ الغاب ِهمّتُها يوم الكريهة في المسلوب، لا السَّلبِ

وليس مثله ..[١]» وذكر الفروق بين البيتين . وهو يعقـد أحياناً مقارنات سريعة بين بيت للمتنبي وآخر لشاعر آخر . قال المتنبي في صفة أيّل :

★ يحول بين الطرف والتأمل ★

كقول البحتري يصف فرساً :

جاري الجياد فطار عن أوهامها سَبْقاً ، وكاد يطيرُ عن أوهامه

وهذا أبلغ من قول المتنبي لأن سَبْق الوهم أول على السرعة من سبق الطرف مع لفظ الطيران ، والطيران أبلغ في السرعة ، ولذلك شبهت العرب خيلهـا بالطير [٢] ... » وهو في موضع آخر يُشعر بتفضيله بيتاً للمتنبي لأنه أغرب[٣]. وهو أحياناً يشير الى ما يشبه السرقات ، وجعل قول المتنبي :

إذا امتلأت عيونُ الخَيل مني فويلٌ للتّيقظ والمنـام

كقوله :

ترى في النوم رمحك في كلاه ويخشى أن يراهُ في الظلام

ثم قال مادة كل ذلك قول الشاعر :

وعلى عدوك يا بن عم محمـد رَصَدان ضوء الشمس والإظلام
فإذا تنبه رعته واذا هدى سلّت عليه سيوفك الأحلامُ[٤]

وعلق على قول المتنبي يصف بحيرة :

---

١) الورقة ٧١ / و. ٢) الورقة ٧٥ / و . ٣) الورقة ٤٠ / ظ .
٤) الورقة ٧٠ / ظ . ٥) الورقة ٢١ / و.

ناعمة الجسم لا عظامَ لهـا   لها بناتٌ وما لهـا رَحِمُ

وقد ألم المتنبي في هذا بقول ابن الرومي يستهدى سمكاً :

وبنات دِجلة في قبائلكم   مأسورةٌ في كل معترك

إلا أن المتنبي زاد بقوله « وما لها رحم »[1] . وهو يفضل أن يحتوي البيت الواحد أكثر من معنى وأكثر من صورة ، كما سبق . ومثل آخر ، فقد علق على قول المتنبي :

«فكثير من الشجاع التوقي   وكثير من البليـغ الكلام

... وهذا في أسلوب قول الشاعر :

يُغضي حياءً ويُغضَى من مهابته   فما يُكلَّم إلا حين يبتسمُ

ولأبي الطيب فضل ذكر الشجاعة والبلاغة في بيت واحد ، وإفراد كل واحد من الفضيلتين بمصراع[2]» .

إشارات بلاغية : في الكتاب ذكر عـــدد قليل من مصطلحات البلاغة . وأكثر ما تكون اشارته إلى (الاستعارة) وقد مر مثال منها في أول النقول ، وأشار إلى **الكتابة** ، **والغلو** وهو يقرنه مع **الافراط** كتمليقه على بيت المتنبي :

أحيا ، وأيسرُ ما لاقيت ما قتلا   والبينُ جارَ على ضعفي وما عدلا

إذ شرح المعنى واحتمالاته ، ثم قال : وقد يكون أحيا اسماً يدل على المواصلة أي أثبت ما قاسيته بحياتي ما قتل . وهذا **غُلو وافراط** ، لأنه اذا كان ما قتله أثبت شيء لحياته لم يبق له ما يوجب الموت[3] . **وذكر المبالغة**[4] ، وأكثر من الحديث عن **التضاد** دون ذكر **الطباق** بالاسم.

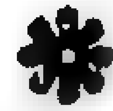
مصادره : ذكر المؤلف عدداً من الاسماء بأعيانها وأحال على مجهولين كثيرين. فمن الاعلام : سيبويه ، والفارسي والفارابي ، وابن جني— في شرحه على المتنبي—

---

١) الورقة ٣٣ / ظ .   ٢) الورقة ٨٩ / ظ .   ٣) الورقة ٧ / و .
٤) انظر مثلا : ٢ / ظ ، ٥ / ظ ، ٣١ / و .

وأبو زيد الانصاري . وأورد رأي (بعض الفلاسفة) فيما يراه النائم ، وناقض « بعض النقاد » ، و « بعض مفسري » شعر المتنبي . ولا شك في أن تحقيق الكتاب تحقيقاً متأنياً يكشف عن خبايا مصادر أخرى اعتمد عليها الشارح أو تاجَزها المعارضة والعِداء .

هـذا كتاب فريد في بابه في كتب الشروح الاندلسية . فقد ملأه بالملاحظات النقدية والموازنات والمقارنات وحكّم منهجه المنطقي في توجيه أبيات كثيرة ، واستخدم بعض معطيات الفلسفة . ولو أنه شرح ديوان المتنبي كله على هـذا لخرجنا بمنهج كامل ، ويبدع جديد . والكتاب على حاله شيء جديد طريف يسهم في إيضاح الحركة الادبية والنقدية في الاندلس .



شرح ابن السِّيد البطليوسي

على سقط الزند للمعري

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السِّيد ، أصله من مدينة شِلب ، ولد ونشأ في بطَلْيوس ، وبها نبغ واشتهر ، وعرف لذلك بابن السِّيد البطليوسي . وهو من كبار علماء الأندلس ومشهوري أعلامهـــا . توزعت اهتماماتُه بين علوم العربية وآدابها ، وبين الفقه والعلوم الإسلامية ، إلى اهتمامات أُخرى بالفلسفة وعلم الكلام .

ولد ابن السيد في بطليوس سنة ٤٤٤ وتلقى فيها علومه وثقافته ، ولازمها مدة إلى أن نبغ وظهر . ولا نستطيع تحديد هذه الفترة بالضبط ، ولكنها فترة طويلة نسبياً ، ولا بد أن يكون الرجل استوى فيها على قدم راسخة . وقد عرف له معاصروه من أصحاب الدويلات المتناثرة — دول الطوائف — مكانته وعلوا بضاعته . وفي هذا يقول معاصره ابن خاقان : «وخدم الرياسات ، وعلم

(*) ترجمته في قلائد العقيان (مصر ١٢٨٤ هـ) ١٩٢ — ٢٠٠ ، والصلة لابن بشكوال ١ : ٢٩٢ — ٢٩٣ . والمطرب لابن دحية (مصر ١٩٥٤) : ٢٢٥ — ٢٢٦ وبغية الملتمس للضبي : ٣٢٤ (الترجمة رقم ٨٩٢)، والمغرب لابن سعيد ٢ : ٣٨٥— ٣٨٦ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (مصر ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م) ٢ : ٢٨٢ — ٢٨٤ ، وبغية الوعاة للسيوطي (مصر ١٩٦٥) ٥٥ — ٥٦ . والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ١٩٨ (وينقل عن ابن خلكان) ، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض المقري ٣ : ١٠١ — ١٥١ ، تاريخ الفكر الأندلسي — بالنثيا — ترجمة د. حسين مونس : ٣٣٤ — ٣٣٥ . ونفح الطيب ٢ : ١٦٧ — ١٧٣ . وهو ينقل عن ابن خاقان ، والذخيرة .

وانظر : Brock , 1 , 547. S. 1, 758 .

طرق السياسات ، ونفق وكسد ، ووقف وتوسد [1] ». وقد خدم في دولة عبد الملك بن رَزين صاحب السَّهلة الذي امتد حُكمه ما بين ٤٣٦ و ٤٩٦ [2]. وقال ابن خاقان في هذا : وكان له في دوله ابن رزين مجال مُمتد ومكان مُعتمد . وفسَّر هذا الكلام بالنثيا في تاريخه بأنه كان كاتباً لعبد الملك بن رَزين صاحب السهلة [3].

«وكان عند وصوله الى ابن رَزين قد رفعه أرفع محل ، وأنزله منزلة أهل العقد والحل ، وأطلعه في سمائه وأقطعه ما شاء من نَعمائه وأورده اصفى مناهـــل مائه ، واحضره مع خواصّ نُـدَمائه ، وكانت دولته موقف البيان ، ومقذف الأعيان .. لولا سطواته الباطشة ونكباته البارية لسهام الرُّزء الرائشة [4]».

ومدح ابنُ السَّيد عبد الملك ابن رزين بقصائد أثبت بعضها ابن خاقان في كتابه عنه . ولكن ابن السيد غادر ابن رزين « فرار السرور من نفس الحزين [5] » ، وما ندري أذلك لطباع ابن رزين الصعبة أم لخلاف آخر ، وقد وصف ابن الأبار عبد الملك هذا بأنه كان مع شرفه وأدبه متعسفاً على الشعراء ومتعسراً بمطلوبهم من ميسور العَطاء [6] . ولا نعلم بالتحديد زمن مغادرته ابن رزين . ولكنه توجه إلى المستعين أحمـــد بن هود صاحب سرقسطه « فلم يَخف على المستعين اختلاله ، ولم تَخف لديه خِلاله ، فذكره مُعلِماً به ومعرّفاً ، وأحضره منوهاً له ومشرفاً [7] ». وقال ابن السيد في ذلك شعراً مدح به المستعين وعرّض بابن رزين ، ومن قصيدة له في هذا المعنى :

أناخت بنا في أرض شَنْتَ مَريّةٍ هواجسُ ظَنٍّ خَنَّ والظنّ خَوَّانُ [8]
وشمنا بروقاً للمواعيد أتبعت نواظرنا دهراً ، ولم يهمِ هَتَّانُ
فسرنا وما نُلوي على مُتَعذّرٍ إذا وطنٌ أقصاك آوتك أوطانُ
... الى مستعين بالإله مُؤيَّدٍ له النصر حِزب والمقادير أعوانُ [9]

١) أزهار الرياض ٣ : ١٠٦ ٢) معجم الأنساب (زامباور) ١ : ٨٨ ، المغرب ٢ : ٤٢٨ .
٣) تاريخ الفكر الأندلسي – بالنثيا : ٣٣٤ . ٤) أزهار الرياض ٣ : ١٢٣ .
٥) أزهار الرياض ٣ : ١٢١ . ٦) الحلة السيراء لابن الأبار - تحقيق د. حسين مؤنس ٢ : ١١٠ .
٧) أزهار الرياض ٣ : ١٢١ .
٨) شنتمرية الشرق حاضرة سهلة بـني رزين (الحلة السيراء ٢ : ١٠٨ – ١٠٩ ، وانظر الهامش) . ٩) أزهار الرياض ٣ : ١٢٢ .

وقال ابن خاقان إنه نال عند ابن رزين الحظوة والجاه ، وها هو ذا ابن السيد يخونه ظنه ويمرض بانه غادر ابن رزين لأنه لم يلق ما أمّل :

رحلنا سوام الحمدِ عنها لغيرها
فلا ماؤها صَدّا ولا النبتُ سَعدانُ [1]

ولعله حمد المقام عند بني هود في سرقسطة ونال عندهم ما سرّه. وقد تنقل في أرجاء الاندلس ، وطوّف . وفي ترجمة ابن خاقان له انه اتصل ببني ذي النون أصحاب طليطلة ، وله مدائح في القادر [2] ، ومن ذلك قصيـــدة أنشدها القادر بمجلس الناعورة في طليطلة [3] . ومدح الظافر عبد الرحمن بن عبيد الله ابن ذي النون أيضاً ، ولعله من أمرائهم البارزين في الدولة ، وفيه يقول :

فقلت عبيد الله أو نجلُه سَرى فذكرني دارين أوبتُهُ بالسَّحَر [4]

وفي البـاقي من شعره وترسله ما يدل على سعة اتصالاته وكثرة اصدقائـه وأصحابه من الوزراء والكتاب والأمراء ومن هؤلاء سوى من ذكرنا قبل : ذو الوزارتين ابو عيسى بن لبون[5]، وذو الوزارتين ابو عبد الله بن ابي الخصال[6] وذو الوزارتين ابو محمد بن الفرج [7] والوزير أبو محمد بن سفيان [8] والوزير أبو عبد الملك بن عبد العزيز[9]، والكاتب أبو الحسن راشد بن عريب [10] وقد مدح بعضهم ، وكاتبه بعض آخر ، ومدحه بشعر أيضاً بعضٌ منهم .

ولم يستمر على حـاله دائماً من العيش على رفـــد أهل المُلك ومواهب الممدوحين ، فقد جلس لإقراء علوم النحو ، وقَصده الناس للتلقي عنه ، وقـال فيـه صاحب الصلة « وكان حَسن التعليم جيد التلقين » [11]. واستقر ابن السّيد آخر الأمر في مدينة بَلَنْسية ، وفيها كانت وفاته سنة ٥٢١ . وكان هناك قـد طبقت شهرته الأندلس واتجه اليه الناس . ونقل ابن خلـكان أنه سكن مدينة

---

١) ازهار الرياض للمقري ٣ : ١٢٢ .
٢) في معجم الأنساب أنه حكم ما بين (٤٦٧ — ٤٧٨) .
٣) أزهار الرياض ٣ : ١٠٧ . ٤) أزهار الرياض ٣ : ١١٧ .
٥) أزهار ٣ : ١٢٠ . ٦) أزهار ٣: ١٣٣ . ٧) أزهار ٣ : ١٤٥ .
٨) أزهار ٣ : ١٤٢ . ٩) أزهار ٣: ١٢٥ . ١٠) أزهار ٣ : ١١٩ ، ١٣٢ .
١١) الصلة ١ : ١٩٢ .

بلنسية ، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرؤون عليه ويقتبسون منه، وكان حسَن التعليم جيد التفهيم ، ثقةً ضابطاً » [1]. كما نقل صاحب المطرب في ترجمة أبي إسحاق ابراهيم بن يوسف الحمزي أنه « رحل شرق الأندلس للقاء الأستاذ العالم . . . أبي محمد بن السيد . . . » [2] .

ثقافته : أخذ ابن السيد علومه عن جماعة منهم أخوه علي بن محمد ، [3] وأبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي، [4] وأبو سعيد الوراق، [4] وأبو علي الغساني الجياني ، [4] وأبو الفضل البغدادي . [4] وأخذ عنه جماعة منهم عبد الملك بن محمد بن هشام القيسي ، [4] وأبي محمد عبدالله بن أحمد بن سعيد العبدري ، [5] وغيرهم . [6] وله روايات في فهرسة ابن خير مثل المبرّز في اللغة لمحمد بن يونس الحجاري الكفيف ، [7] ومقاتل الفرسان لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، [9] والنقائض بين جرير والفرزدق ، [8] وسقط الزند وضوئه [9] وألف كتباًكثيرة شهيرة منها : ١) شرح سقط الزند للمعري ، وهو موضوع دراستنا ٢) الفرق بين الحروف الخمسة وهي السين والصاد والضاد والطاء والدال « جمع فيه كل غريب » كما قال ابن خلكان [10] . ٣) المثلّث (في اللغة) في مجلدين أتى فيه بالعجائب ودل على اطّلاع عظيم ، [11]. ٤) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة ، وهو مطبوع ٥) إصلاح الخلل الواقع في أبيات الجمل ٦) الحُلَل في شرح أبيات الجمل (للزجاجي) ومن الكتابين نسخة في دار الكتب المصرية في مجلد واحد. ٧) التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة [12] ٨) الحدائق . ٩) شرح الموطأ ، ذكره في الصلة وفي وفيات الأعيان . وسماه ابن

---

١) وفيات الأعيان ٢ : ٢٨٢ . ٢) المطرب : ٢٢٥ .
٣) الصلة ٢ : ٢٩٢ . وانظر فهرسة ابن خير في أسانيد كتب ابن السيد التي رواها المؤلف . وذكره في نفح الطيب ٥ : ٢١٢ ، وأورد له أبياتاً من الشعر قريبة من نمط شعر أبي محمد أخيه . ٤) فهرسة ابن خير : ٣٥٧ ، ٤١٢ .
٥) ابن خير : ٤١٢ . ٦) ابن خير : ٣٥٧ . ٧) ابن خير : ٣٨٣ .
٨) ابن خير : ٣٨٣ . ٩) ابن خير : ٤١١ – ٤١٢ .
١٠) فهرسة ابن خير : ٤١١ – ٤١٢ ١١) وفيات الأعيان : ٢ : ٢٨٢
١٢) أزهار الرياض ٣ : ١٠٧ .

خاقان « المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس» [1] ١٠)جزء فيه علل الحديث. كذا في فهرسة ابن خير [2] . ١١) كتاب فيـه مسائل في العربية ذكره ابن خير [3] ١٢) فهرسة ابن السيد رواها ابن خير [4] ١٣) قصيدة في رثاء ديك . رواها ابن خير [5] ١٤) الانتصار ممن عدل عن الاستبصار ، وقال فيه ابن خير « جزء فيه رد أبي محمد .. بن السيد على القـاضي أبي بكر بن العربي فيما رده عليه في شرحه لشعر المعري » . وقد طبع الكتاب ، وسندرسه في موضعـه . ١٥) رسالة كتب بها الى ابن خلصة ،وأخرى بعث بها الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم[6]. وفي الكتاب الذي أفرده ابن خاقان لترجمة ابن السيد -- ونقله المقّري في الأزهار -- شعرٌ ورسائل له .

ويبدو أن ابن السيد تعرض للحاملين عليه كما قرت عينه بالحاملين عنه ، فهذا أبو بكر بن العربي يخطّئه وإن كان رد ابن السيد شديد الإفحام، وسنفصل فيه في فصل لاحق ؛ وفي التكملة (١ : ٤٢٦ ط عزة العطار) أن محمـد بن عبد الرحمن بن خلصة النحوي رد عليه ؛ قال « ورسالته التي رد فيها على ابن السيد من أجود الرسائل وقد حُملت عنه » . وهو من صحابة ابن العربي .

بقي لنا من شعر ابن السيد قدر ضئيل معظمه في كتاب ابن خاقان عنه الذي احتواه كتاب أزهار الرياض ، وهو شعر يرتفع عن شعر طبقة العلماء والفقهاء . وله قصائد لاحقةٌ بشعر المقلدين لمذهب الأوائل وأنصار الشعر القديم كوصفه للفرس [7] ، وكمعظم مدائحه ؛ وقال من مطلع قصيدة في المدح :

همُ سلبوني حُسن صبري إذ بانوا بأقمار أطواق مطالعُها بَانُ
لئن غادروني باللوى إن مهجتي مسايرةٌ أظعانَهم حيثما كانُوا
سقى عهدهم بالخَيف عهد غمائم ينازعها مزنٌ من الدمع هَتّانُ .. [8]

وله قصائد أخرى لم يقصّر فيها عن أنصار الشعر المحدث كقوله من قصيدة بعث بها إلى أبي عيسى بن لبون :

١) أزهار الرياض ٣ : ١٠٧
٢) فهرسة ابن خير ص : ٢٠٤
٣) فهرسة ابن خير ص : ٣١٦
٤) فهرسة ابن خير ص : ٤٣٣
٥) فهرسة ابن خير ص : ٤١٣
٦) فهرسة ابن خير ص : ٤٢٠
٧) أزهار الرياض ٣ : ١٠٨
٨) أزهار الرياض ٣ : ١٢١

ثُمَّ نصطبح من قهوة بِكرٍ حتى نُرى صرعى من السُّكرِ
أُنُف تناساهـا الورى حتى لم تجرِ في بالٍ ولا ذكرِ
فترى الدنان وما حوت منها كجوانح طُويت على فِكر
نفحت فقلت المسك أو ماقد أحيى أبو عيسى من الذِّكرِ (١)

ونقل المقّري قول ابن السيد :

نفسي الفداءُ لجؤذر ، حلو اللّمى مستحسَنٍ بصدوده ، أضناني
في فيه سمطا لؤلؤ يروي الظّما لو علّني ببروده أحياني

ثم قال « ويخرج من هذه القطعة عدة قطع » . (٢) ويبدو أن ابن السيد على ما فيه من صفات العالم المتحرج كان يشارك في طرف الشعر ، والدعابة بالغزل بالغلمان ، وقد نُقل من أخباره أنه « كان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس صورةً : رحمون وعزُّون وحسُّون ، فأولع بهم — كذا — وقال فيهم :

أخفيت سقميَ حتى كاد يخفيني وهِمْت في حُبّ عزونٍ فعزوني
ثم ارحموني برحمون فإن ظمئت نفسي إلى ريق حسون فحسّوني

ثم خاف على نفسه ، فخرج من قرطبة » (٣) وما نظن ابن السيد قال هذا إلا للجناس الذي يعزل القضاة !

وبعد : هذا شرح على كتاب المعري سقط الزند وهو ديوان جمع المعري فيه « أول شعره وما سمح به خاطره » (٤) وكان شرحه بكتاب آخر سماه (ضوء السقط) « غير أنه وقع فيه تقصيرٌ من جهة المستملي ، وذلك أنه استملى معنى بعض أبيات منه ، وأهمل أكثر المشكلات . . . فجاء التفسير كأنه لُمعَ شق ، لم يشف الغليل . . . » (٥) وقد شرح سقط الزند كثيرون منهم : أبو زكريا التبريزي تلميذ المعري ، وابن السيد ، وأبو يعقوب الخُوَيّي — ألف شرحه سنة ٥٤١ — ، والفخر الرازي ، والخوارزمي (ت ٦١٧) ، وغيرهم . ويصح أن ابن السيد

---

١) أزهار الرياض ٣ : ١٢٠ ٢) نفح الطيب : ٥ : ١٠٨
٣) بغية الوعاة ٥٥ — ٥٦ ، ونقلها في أزهار الرياض : ٣ : ١٢٠ .
٤) شروح سقط الزند — مقدمة التبريزي ١ : ٣ ٥) المصدر نفسه : ١ : ٣ - ٤ .

من أوائل شُـرّاح سقط الزند . أما المعري فـولد سنة ٣٦٣ وتوفي سنة ٤٤٩ ، وامتدت حياة التبريزي بين ٤٢١ و ٥٠٢ وابن السيد بين ٤٤٤ — ٥٢١ .

وشَرْح ابن السّيد على سقط الزنــد مطبوع مــع شرحين آخرين في نسق واحد ؛ يسبقه شرح أبي زكريا التبريزي ، ويتلوه شرح صدر الأفاضل قـاسـم ابن الحسين بن محمـد الخوارزمي . وجُعل الـكتاب وفهارسه في خمسة أجزاء ، وطبع ما بين ١٣٦٤ — ١٣٦٨ هـ و ١٩٤٥ — ١٩٤٩ م ، في دار الكتب المصرية بعناية جمـاعة من الادباء ، ثم أعيـد طبع الكتاب بالأفست ، عن الدار القومية ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م كما هو . وقـد أشار بعض الأدباء إلى أهمية شرح ابن السيد على سقط الزند ، ومكانته بين كتب المؤلف نفسه ، وبـين كتب شرح السقط بعامة ، وفي هذا يقول ابن خلكان « وَشَرَح سقط الزند لأبي العـلاء المعري شرحاً استوفى فيه المقاصد ، وهو أجود من شرح لأبي العـلاء صاحب الديوان الذي سمّاه ضوء السقط »[1] وذكره ابن سعيد في استدراكه على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس فقال : « وأما شرح سقط الزند له فهو الغاية ، ويكفي ذكره عند أرباب هذا الشأن وثناؤهم عليه »[2] وقـد أخذ الناس شرح سقط الزنـد لابن السيد عنه وتناقلوه وذكر ابن خـير في فهرسته سنده فيه قال : « كتاب شرح سقط الزند لأبي محمد بن السيد رحمه الله ، حدثني به الشيخان : أبو الحسن عبد الملك بن محمد بن هشام القيسي ، وأبو محمـد عبدالله بن أحمـد بن سعيد العبدري ، عن مؤلفه أبي محمد... »[3] وهو شرح يمثل ذروة نُضج الفكر الأندلسي وتمثله الثقافـة العربية ، ويمثل ابن السّيد فيه شخصية الأديب العـالم المحقق الذي ألمّ بفنون الأدب ، وفنون أخرى من علوم اللغة والنحو ، والفلسفة وعلم الكلام ، والفقه والتفسير وكافة علوم الشريعة إلمامةَ المشارك حيناً ، المختص حيناً آخر . وسنرى فيه رقة الأديب في حُسن فهمه للمعاني ، وحُسن أدائه الفكرة والعبارة ، وخـوضه في المسائل العويصة — مثل الحديث عن عقيدة المعرّي — بجُرأة ودقة وحرص ، كالسائق الماهر يجتاز التلعات والوهاد متمكناً مطمئناً .

١) وفيات الأعيان : ٢ : ٢٨٢ ٢) نفح الطيب : ٤ : ١٧٥
٣) فهرسة ابن خير : ٤١٢ .

وقد استطاع الشارح الأنـــدلسي أن يفيد من ثقافته التي أجملنا بعضها في ترجمته فقد كان لغوياً نحوياً ، أديباً ، شاعراً ، وكان فقيهاً ذا إلمام بأمور الشريعة وكتب التفسير والحديث والمذاهب ، وتحـدّث في الفلسفة بما يـدل على حسن اطّلاعه على أمورها، كما أنه أشار في شرحه إلى بعض آراء أفلاطون، وأرسطو، ونقل عن الفارابي ، وناقش بعض المسائل الفلسفية أثناء شرحه إشارتٍ للمعري متنـّوعة . واستخدم معظم ما عنده من تراث ثقافي من علوم الفلك والجغرافية والعروض ، ومعلومات في البلدان، ودلّـل على اطلاع واسع على عادات العرب وأخبارهم وأيامهم ومواسمهم . وسنعود عـلى ذلك كله بالعرض والمناقشة . ولا بد قبل البسط والعرض من القول إن ابن السيد البطليوسي بحـاجة إلى دراسة متخصصة تكشف عن جوانب شخصيته المتعدّدة ، فإنه ليس مجرد نحوي شرَح الجُمَل وانتقد سيبويه؛ وهو عند التّحقيق صورة أندلسية حية، وأثر بارز من آثار العرب هناك . ولن أستطيع في هـذه الفقرة مهما وَسّعت الحديث ، أو حـاولت الإلمام أن أتم ما ينبغي من واجب الدّرس وغاية التقصي وسأحـاول جهدي أن أحسن النقل والتصوير والمناقشة .

مقدمة الشارح : وضع ابن السّيد كتابه هذا إجابة لطلب شخصية لم يصرّح بذكر اسمها ولكن يبدو أن الطالب ذو مكانة مرموقة ولعله من ذوي السلطة ومصـّرفي الأمور،وفي المقدمة ما يدل على أن طالب الشرح توسّم في ابن السّيد أن يجد لديه ما لم يظفر به من شرح المعري نفسه ؛ قال : « سألتني — واصل الله لديك توامي النعم ، وبلغك أقاصي الهمم — أن أشرح لك سقط الزند من شعر أبي العـلاء المعروف بالمعرّي ، وذكرتَ أنك قرأتَ ضوء سقط الزند الموضوع فية فلم تجده مستوفياً لجميع معانيه ، ورجوت أن تجدَ عندي ما يوافق مُرادك ويطابق اعتقادك » [1] ثم وصف الشارح بإيجاز صفات شعر المعري وخصائصه، وكأنـه يشير بذلك إلى ما سيقف عنده في شرحه وما سيعالجه من آرائـــه : « ولعمري إنه لشعر قويُّ المباني ، خفيّ المعاني ، لأن قائله سلك به غير مسلك

١) شروح سقط الزند (مقدمة ابن السيد) ١ : ١٥ .

الشعراء ، وضمنه نكتاً من النّحَـل والآراء . وأراد أن يُري معرفته بالأخبار والأنساب وتصرفه في جميع أنواع الآداب ، فأكثر فيه من الغريب والبديـع ، ومزج المطبوع بالمصنوع ، فتعقّدت ألفاظه ، وتَبعُدت أغراضه »[1] وقد أعاد الشارح ترتيب قصائد الديوان بحسب حروف المعجم واحتج لذلك بحجة ، قال : « ورأيت أن ترتيبه على نظم الحروف المعجمة أتم في الوضع وأجمـل للتصنيف فاحتجت لذلك أن أزيد فيه ما يفي بالغرض[2]... وفي هذا يقول محققو الديوان في مقدمة الكتاب المطبوع «وليس هذا الشرح خاصاً بسقط الزند ، بل ضم إليه طائفة أخرى من شعر أبي العلاء ، بعضها من لزوم ما لا يلزم ، وبعضها الآخر من سائر دواوين أبي العلاء[2] » .

شرح المعاني : استخدم الشارح كما قلت أنماطاً مختلفة من الاساليب والوسائل للنفاذ إلى خبيء معاني المعري ، ولتبيان مقاصده وإشاراته وأغراضه ، واستطاع أن يتغلغل وراء كل معنى مستتر ويبيّنه . وليست له طريقة واحدة في تنـاول شرح كل بيت من أبياته ، ولكن الغالب أن يبدأ بشرح لغويّ لبعض الكلمات الغريبة ، أو محتملة الوجوه ، أو التوجيه إلى معنى واحد هو ما قصد اليه الشاعر ثم يبسط المعنى ويبيّنه . وفي مجال المعنى نفسه كان الشارح يبيّن قيمـة معنى المعري بالقياس الى مَنْ سبقه اليه ، أو الى بعضه . وعُني ببيان تجديد المعري على المعاني الشائعة أو السابقة له ودرجة تجديده ، فكأنه يُخاص ما ابتكره مما اتكأ عليه . ونبّه على معانيه المبتكرة التي لا يحفظ لغيره فيها شيئاً ، وهي شيء كثير . وعُني أيضاً بعمل مقارنة مستمرة تقريباً بين معاني المتنبي وأبي تمام من جهة ، ومعاني المعري من جهة أخرى ؛ مما اشتركوا فيه . أو كان المعري يتوكأ فيها على أحدهما أو يعارضه أو يعكس معناه . والمقارنـــة بين المتنبي والمعري — في هذا — أشد وضوحاً وأكثر وجوداً ، ولعل هذا ما يؤكد ما نقله ابن خلكان من أن ابن السيد شرح ديوان المتنبي ؛ وعلى كل حال ، فإن ابن السيد دل على اطلاع كامل على معاني المتنبي ودقائق شعره . وقبـل أن نذكر

١) شروح سقط الزند (مقدمة ابن السيد) ١ : ١٥ .

٢) شروح سقط الزند (مقدمة النـاشرين) صفحة د — هـ .

تتمة خصائص الشرح ومميزاته ، سنضرب مثلاً على ما تقدم من سرد . قال في شرح مطلع القصيدة الأولى [1]

أعن وَخد القِلاص كشفتِ حالا ومن عند الظلام طلبتِ مالا

الوَخْد : السير السريع ، وهو الوَخدان أيضاً ، والقلاص جمع قلوص وهي الفتية من الإبل ، وهي في الإبل بمنزلة الجارية من النساء . وصف تعذُّر مآربه وأوطاره ، وعَنّف نفسه على كثرة حركاته وأسفاره فقال يوبّخها على مافعلت ، وينكر عليها ما أوهمتها ظنونُها الكاذبة وسوّلت : أحاولت أن تكشفي عن حال وَخْد الإبل حتى تقفي عليه ، وتوهّمتِ أنّ السُّرى يُنيل المال ويوصل إليه ؟ فكيف رأيت إخفاق أملك ، وقلة إنجاح سعيك الذّميم وعملك . وكأنه أراد أن يناقض بهذا قول أبي النشناش :

فلم أرَ مثل الهمّ ضاجَعه الفتى ولا كسواد الليل أخفَق طالبُه

وقول جابر بن ثعلب :

فإن الفتى ذا الحَزم رام بنفسه حواشيَ هذا كي الليل يَتموّلا

ويحرص الشارح على إيضاح الأمور الدقيقة في معاني الشاعر ، واستكناه المقصود من المعاني الظاهرة ، فالمعري يقول في فرس :

ولولا غَيرة من أعوجيٍ لبات يرى الغزالة والغَزالا

يحس اذا الخيال سَرى الينا فيمنع من تَمهدنا الخَيالا

... يقول لولا أن هذا الفرس الأعوجي أحس بمجيء الخيال فأدركته غيرة لذلك ، ونم بمجيئه وصهل حتى أيقظ الركب لبات هذا العاشق يرى من محبوبه غزالةً وغزالا . وفي هذا وصف للفرس بجودة الحس وصدق السمع ، كما وصفه بذلك في موضع آخر فقال :

يحسُّ وطء الرّزايا وهي نائبةٌ فينهب الجريَ نفس الحادث المكر [2]

فحديث المعري في المقام الأول عن الطيف ، ولكن الشارح التقط هذا المعنى العميق ، وخشي من القارىء أن يصفه بالتزيّد ، فجاء بدليل من شعر المعري نفسه . ومن طريقته أنه يُحيل في معاني الشاعر على معانيه نفسها من قصائد

---

١) شرح سقط الزند ١ : ٣٧ . ٢) الشروح ١ : ٧٥ - ٧٧ .

أخرى أو أبيات أخرى [١] . وهذا التدقيق يبدو في صورة أخرى ، فهو يحاول تعليل معاني المعري ، أو بيان سبب تفضيله عبارة على عبارة اخرى وهو يرى أن في ذلك بلاغة ذات مغزى ، وأن كل تعبير أو تشبيه مقصود لذاته ، ولما يحمل وراءه من إيحاءات ، فمن ذلك شرحه قول المعري :

فأقسم ما طيورُ الجو سُحْماً كَشِهُنّ ، ولا نعامُ الدَّوّ روحا

... شبه أبو العلا الإبل بالطيور والنعام في السرعة . وإنما خص السحم من الطير دون غيرها لمعنيين : أحدهما أن يكون وصف إبلاً سوداً . والثاني أن يكون أراد أن الإبل اسودّت من العرق لأن عرق الإبل اسود ، قال رؤبة ... والنعام توصف بسواد الألوان ، ولذلك ذكرها مع الطير السُّحم ، قال العجاج يصف ظليماً .. [٢] ، وهذا مثال آخر اشد دقة في استنباط المعنى ، وفيما وراء المعنى ، قال المعري :

وأبصرتِ الذوابلُ منه عدلاً فأصبحَ في عواملها اعتدالا

يقول : علمت الرماح أنه يحب العدل فاعتدلت ، فلذلك يرى لرماحه من الاعتدال ما لا يرى لغيرها . وعوامل الرماح : صدورها . وخصّها بالذكر ، لأن معوّل الرمح إنما هو على عامله . وقال (فأصبح) ولم يقل فأمسى لأن الصباح إقبال والمساء إدبار [٣] . وهذه الملاحظة الأخيرة دقة متناهية في الانتباه لدقائق المعاني . ومدح المعري رجلا بالفروسية فقال :

دع اليراع لقوم يفخرون به وبالطوال الردينياتِ فافتخر

فهنّ أقلامك اللاتي إذا كتبت مجداً أتت بمدادٍ من دمٍ هدرِ

فشرح ابن السيد الأبيات وعلق بعدها : وإنما فضل في هذا الشعر السيف على القلم ، لأنه مدح رجلا كان من الفرسان ، ولم يكن له حظ من الكتابة . وفي هذا ربط بين مناسبات الشعر ومحتوياته ، وفيه التفاتة جيدة . وكان يشير إلى المعاني المحتملة في بعض الأبيات وفي ذلك يقول التبريزي تلميذ المعري : وربما

---

١) وانظر ١ : ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ... الخ

٢) الشروح ١ : ٢٦٥ - ٢٦٦ ، وانظر ٣٤٤ ، ٥٧٤ ، ١٢١٧ ، ..

٣) الشروح ٧١ - ٧٢ .

احتمل البيت الواحد معنيين وأكثر ، وقد مرّ مثله في هذا الكتاب فيما أخذته عنه – يعني المعري – وحصّلته منه وقت القراءة عليه ، غير أن حمل المعاني على ما هو أدخل في كلام العرب ، وأليق بمعاني الشعر هو الوجه [١]. وهو يقلب تلك الأمور المُحتملة الوجوه ، ثم يرجّح ما يظنه أليق بالمَقام ، وألصق بالمَعنى وله في ذلك منهج يتابعه ويجري على سَننه . قال المعري في قصيدة مديح :

وإن بَخلتَ على الأحيــــاء كلهم   فاسق المواطر حيّاً من بني مَطر

وقال الشارح : الأحياء : القبائل واحدها حي . ويحتمل أن يريد بالمواطر السَّحاب ، ويحتمل أن يريد الأمطار بعينهـا ، وهو أجود [٢] وقال في شرح البيت :

سرّت بيَ فيه ناجياتٌ مياهُها   تَجُم إذا ماء الركائب غارا

الناجيات : الابل السريعة ، والركائب : الابل التي تركب للسفر واحدها ركوبة . ويقال : جم الماء يجم . اذا كثر وهذا يحتمل معنيين : أحدهمــا أن يكون ضرب جموم الماء وغؤوره مثلين لكثرة للسير وقلته – وليس هناك ماء في الحقيقة ، وإنما أراد أن سيرها يكثر ككثرة الماء إذا جم ، فيكون كقول امرىء القيس :

يجم على الساقين بعــد كلاله   جموم عيون الحسي بعد المَخيض

وكما قال النمر بن تولب :

جموم الشّد شـائلة الذُّنابى   تخالُ بياضَ غُرتها سِراجا

والثاني أن يريد بالماء العرق، لأن قلة العرق مما يكره، فيكون كقول امرىء القيس : وأخلف ماء بعد ماء فضيض . والمعنى الأول عندي أجود [٣] .

ويتبين لنا من خلال شرح ابن السيد أنه مطلع على أشعـار العرب ومدرك لمعانيهم التي يرددونها . وهنالك صور شعرية ومواقف معيّنة تناولهـا الشعراء وكَثُرت في قصائدهم ، أشار اليها الشارح وبيّن موقف المعري منها ، فهو تارة يُعيد المعنى نفسه وتارة أخرى يضيف اليه شيئاً جديداً وقد يعكسه أو يأتي

---

١) الشروح ٥ : ٢٠٣٤   ٢) الشروح ١ : ١١٦ .

٣) الشروح ٢ : ٦٢٢ – ٦٢٣ ، ٧٣ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ .

بجديد لم يُسبق اليه . ونحن هنا قريبون من (المعاني المشتركة التي يتداولها الشعراء) ونزيد على ذلك ما عرف عن العرب من عبارات أو مواقف أو اصطلاحات قد لا تكون بالضرورة من عمل الشعراء أو وقفاً عليهم ، كقولهم فلان ابن الليل وأخو الليل إذا كان كثير السفر فيه [١] ، وأن العرب تسمي كل شيء تطاول أمده ، وبقي بعد ذهاب غيره مخلداً [٢] وأن كل أمة عند العرب قَيْنة [٣] ، واستعمال العرب العد بمعنى التشبيه والظن [٤] إلى غير ذلك مما هو داخل في المأثور عن العرب من مثل أو استعمال لغوي ، أو عادة ، أو طراز حياة ، أو أسلوب خطاب . ولعل ذلك آتٍ من ثقافة ابن السيد اللغوية الغزيرة واطلاعه على عادات العرب وأحوالهم من تراث ثقافي ملأ الأندلس طول أيامها . قال المعري :

ومن أم النّجوم عليه دِرْعٌ يحاذِرُ أن يمزّقها الطعان

... والعرب تسمي المجرة أم النجوم لكثرة النجوم المجتمعة فيها ، وأم كل شيء أصله الذي يضمّه [٥] .

وعلق على قوله :

لعبت بسحرنا والشعر سحرٌ فتبنا منه توبتنا النّصُوحا

... والعرب تسمي كل ما استمال النفوس من كلام وغيره سِحراً ، ومنه قوله ﷺ حين سمع كلام عمرو بن الأهتم : إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة [٦] . وعلّق على قوله :

بنات الخيل تعرفها دلوك وصارخة وآلسٌ واللقان

هذه كلها مواضع من بلاد الروم وقد ذكرها أبو الطيب . وأراد بنات الخيل العِتاق فحذف الصفة حين علم ما أراد . والعرب تحذف الصفات اذا كان في فحوى الكلام ما يدل عليها . فيقولون إن فلاناً لرجل ! وإنه لإنسان ! ، إنما يريدون رجل كامل أو رجل مستحق لأنه يسمى رجلاً ، ولولا ذلك لم يكن في الكلام فائدة يستعيدها المخاطب [٧] .. ومثل هذا كثير لا ينضب معينه لدى

---

١) الشروح : ٥٤٦ ٢) الشروح : ٦٧١ ٣) الشروح : ١٢٤٠

٤) الشروح : ١٤٢٩ ٥) الشروح : ١ : ٢١٢ ٦) الشروح : ١ : ٢٧٦

٧) الشروح : ٢٠٢ - ٢٠٣

ابن السيد ، وهو من مميزات شرحه البارزة [١] . وقال المعري .

فليتك في جفني مواريّ نزاهة ... بتلك السجايا عن حشاي وعن ضبني

وقال الشارح بعد كلام . . وإنما نزه أباه عن أن يكون في حشاه ، لأن الحشا موضع الأقذار ، وكأنه أراد أن يناقض مَن تقدم من الشعراء ، لأن من شأنهم أن يصفوا أن أحبتهم في أحشائهم ، كما قال أبو الطيب :

فإن تكُ في قبر فإنك في الحشا
وإن تكُ طفلا فالأسى ليس بالطفل [٢]

وخرج إلى مبتكرات المعري في إطار معاني العرب ، كمثل قوله :

كلم كنظم العقد يَحسن تحته ... معناه حسنَ الماء تحتَ حبابه

فقال : أما تشبيه الكلام بالدر فكثير قد تجاذبه الناس قديماً وحديثاً . وأما تشبيه المعنى تحت اللفظ بالماء تحت الحباب فلا أعرف له نظيراً في شيء من شعر المتقدمين ولا المتأخرين . وقد أشار الشعراء إليه وان كانوا لم يَنُصّوا عليه ،لأن الكلام والحباب يُشبَّهان جميعاً بالدر . فولّد أبو العلاء من ذلك أنْ شبّه الكلام بالحباب ، لأن الشيء إذا أشبه الشيء ، فقد أشبه ما يشبهه والشاعر إذا كان ذا ذكاء كفاه أقل تنبيه وأيسر إيماء [٣] . فهو قد خلّص معنى المعري من المعاني المتداولة وبيّن مقدار ابتكاره ، وقدّر توليده بعبارة دقيقة واضحة.

اختراعات المعري : الحكم على معنى بأنه مسبوق اليه ، أو بأنه جديد مبتكر عمل شاق ، يحتاج الى مراس طويل ، ومطالعات واسعة واستيعاب لمعظم معاني العرب القديمة بخاصة ، وإلمام بالشعر الحديث ، وهو كثير ، والإحاطة به من الصعوبة بمكان ، ولا تتأتّى هذه المقدرة إلا بعد زمان من الدراسة والممارسة. وقد كان الشارح يُلقي حكمه على بعض معاني المعري بالجدة والابتكار ، والطرافة والتوليد ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأمثلة التي ميز فيها الشارح خيوط المعري من خيوط أسلافه ، من نسج شعر واحد . وكان في معرض

---

١) وانظر ١٩١ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٦٤ ، ٤٢٦ ، ٥٤٦ ، ٦٧١ ، ٧١٢ ، الخ .

٢) الشروح : ٢ : ٩٣٧

٣) الشروح ٧١٨ – ٧١٩ .

هذا يشير – أحياناً – الى أوائل من عُرف بإثارة معان معينة ، ثم تابعهم الشعراء بعدها [1] . وهو يورد رأيه بعبارات مثل :ولا أحفظ هذا المعنى لغيره ، أو لا أعرف لهنظيراً ، وقال في شرح بيت المعري في وصف السيف :

كأن أباه أورثه أورثه السّلالا سليل النار دق ورق حتى

فجعله كما ترى سليلاً للنار التي طُبِع بها . وذكر أنه ورث السلال والسقم عنها . ولا أحفظ هذا المعنى لغيره [2] وشرح بيت المعري :

وكالنار الحياة فمن رماد أواخرها ، وأولها دُخان

... يقول لست أعتد بأول عمري وهو عصر الصبا ، ولا بآخره وهو عصر الهرم ، وانما أعتد بأوسطه وهو عصر الشباب كما أن النار لا يُنتفع بأولها لأنه دخان ، ولا بآخرها لأنه رماد . وانما المنتَفع به منها ما بين الطرفين ، وهذا معنى لا أحفظه لغيره [3] ، وهو مع ذلك يحتاط احتياط العالم الحذر ، المعتد بما عنده في غير قطع ولا جزم ، فيقيد معرفة الابتكار والتجديد في الصور والمعاني المعرية بنطاق (ما يحفظ) و (وما يعرف) ولكن عمله هذا في تمييز مبتكرات المعري شيء جديد ، وهام بالقياس إلى ما رأينا من شروح أندلسية، وبالقياس إلى الشرحين المطبوعين مع شرح ابن السيد . والنماذج كثيرة ولعلها أكثر من أن تحصى ، وسنعود الى طرف من هذا الموضوع في الحديث عن السرقات .

اللغة في الكتاب : شارح المعري لا بد له من ثقافة تضارع ثقافته لتحيط بما ينثره من غريب في اللغة وجديد في المعاني ، وغير ذلك مما اصطنع ... وكان الشارح على مقدار من الثقافة اللغوية أمكنه من فهم المعري ، وتفهيمه أيضاً فقد كان يشير الى المعاني المحتمَلة في الكلمة – ما دام ذلك ممكناً في معنى الشاعر – وربما غلبت عليه الصنعة فشرح الكلمة تفصيلاً، كسرده معاني الراح [4] والورد [5] ، والغانية [6] ، ووجوه استعمال وزن فعيل في اللغة [7] . وهو يحرص على أن يوضّح معنى الكلمة حيث هي من موقعها في بيت المعري . ونحن

---

١) ١١٧ ، ١٢٨ . ٢) الشروح : ٩٧ . ٣) الشروح : ١٧٨ .
٤) ص : ١١٥٠ . ٥) ص : ١٤٩ . ٦) ص : ١٢٧ . ٧) ص : ١١٤٢ .

نجد له رأياً ايضاً في وجوه معاني الكلام المفرد الغريب ، قال : « فرّق بعض اللغويين بين خطىء وأخطأ فقال : يقال خطىء يخطأ إذا تعمد الذنب ، وأخطأ يخطىء اذا لم يتعمد . وقال غيره : يجوز أن يقال : خطىء ، بمعنى أخطأ ، وهذا هو الصحيح ، ويدل عليه قول العرب : (مع الخواطىء سهم صائب) يُضرب مثلاً لمن يصيب في بعض الاوقات والغالب عليه الخطأ .. [1] ». وهو في أثناء شرحه يشير الى بعض الملاحظات اللغوية بما يدل على اطّلاع وتمكن ، فمن ذلك إشارات الى بعض الجموع النادرة ، والتغليب في اللغة[2] ، ووزن فعل واستعمالاته [3] ، وبعض الأضداد [4] ، وكان يرد احياناً على (بعض اللغويين) — الذين يورد لهم اشياء في اللغة — بما هو جار في القياس [5] ، ويورد مذهب القياس [6] ، ويورد مذهب القياس ومذهب السّماع في موضوعات اخرى [7] ولننظر شرح قوله :

كأنما الضرب يَفري من كلومهمُ
أكبادَ سِرب رَهين النّور في الكُنُس

يفري : يقطع . وزعم بعض اللغويين أنه يقال فريت الشيء إذا قطعته للاصلاح وأفريته اذا قطعته للإفساد . وهذا ليس بصحيح ، لأنا قد وجدناهم استعملوا « فريت » في الإفساد . قال الشاعر :

فرى نائبات الدهر بيني وبينها
وصرف الليالي مثل ما فُري البردُ [8]

وهو قد يعرّج على أصول مدلولات الأسماء أو المواضع بغير إطالة : « والحمى : موضع ، وأصل الحمى : الموضع الذي يُحمى فلا يقربه أحد [9] » وهذا كثير ، وقد يكتفى بالإشارة إلى المعنى الواحد المقصود . « والطّيف هنا : الخيال الذي يُرى في النوم [10] ». وهو يحتج بأعلام كالمبرّد ، وثعلب ، وابن السكّيت ،

---

١) ص : ٢١٧ - ٢١٨ . ٢) ص : ٣٩٩ . ٣) ص : ٢٩٣ .
٤) ص : ٦٣٦ . ٥) ص : ٦٤٢ . ٦) ص : ٣٦٢ . ٧) ص : ٢٦٣ .
٨) ص ٧٠٧ ، وانظر مثلاً ص : ٩٣ و ١٠٣ وغيرها .
٩) ص : ٧٣٤ . ١٠) ص : ٧٥ .

والأصمعي ، والرازي صاحب الزينة ، وسواهم .

ملاحظات نحوية : استخدم الشارح النحو ، وطبق أحياناً شيئاً من الإعراب ، لضرورة إيضاح المعنى أو تبيين بعض الوجوه من بعض . وكان في أثناء ذلك يحتج بسيبويه ، والأخفش ، والمبرّد ، وأبي علي الفارسي ، ويشير إلى مسائل من الخلاف بين الكوفيين والبصريين بما يدل على سعة واطلاع وتميز . و هذا مثال من إعراب بعض بيت المعري يصف فيه الرمح :

توهّم كل سابغة غديراً   فرنّق يطلبُ الحَلَق الدّخالا

... فأما إعراب بيت أبي العلاء ، فان كان أراد مداخلة الحلق بعضها في بعض فالدخال صفة للحلق على وجهين : أحدهما أن يكون التقدير : الحلق ذا الدخال ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . والثاني : أن تجعل المصدر في تأويل اسم مفعول ، كأنه قال : الحلق المداخل ، فيكون بمنزلة رجل رضا . وإن كان أراد بالدخال الدخال الذي يكون في الورد — وهو أشبه بمراده ، لذكره الغدير والشرب — فيجب أن يكون الدخال صفة لمصدر محذوف كأنه قال : الشرب الدخال . فيكون من باب قولهم : رجع القهقرى أي الرجعة القهقرى [1] فهو قد بيّن الوجهين ، وأدلى برأيه فيما يرى ويُرجّح .

وناقش مسألة العبارة بالماضي ، والعبارة بالمضارع والفرق بينهما ، وأن التعبير بالمُضي له خصائص تنطلي على المعنى لا توجد في المضارع ، في قول المعري :

ويا أسيرة حجليها أرى سفهاً   حمل الحليّ بمن أعيى عن النظر

فان قيل : فهلا قال بمن يُعيي عن النظر فيجعله فعل حال دائماً غير منقطع فيكون أبلغ من أن يكون ماضياً ؟ فالجواب عن هذا من وجهين : أحدهما أن الماضي قد يذكر ولا يراد أن المخبر عنه في الحال والاستقبال ... وعلى هذا يتأول قوله تعالى (وكان الله عليماً حكيماً) انما المراد أن ما علم الآن من حكمته وعلمه لم يزل موصوفاً به . فهذا وجه . والوجه الثاني أنّ ذكر الفعل الماضي ها هنا أليق بما ذكره من السّفه ، ويريد أن أهلها ألبسوها الخلاخيل مع ما قد سلف من علمهم بأنها لا تقدر على حمل نظر العيون ، فكان ذلك أبلغ في وصفهم

1) ص : ١٠٨ .

بالسفه [١] . وناقش مسائل كثيرة على طريقته من ربط المسألة بما هو فيه من مجال معاني المعري ، باختصار ، ومن ذلك ذكر الأقوال الكوفية والبصرية في (بَلْنَه) [٢] وبعض أحوال الحال [٣] وجانب آخر من الموضوع نفسه [٤] ، وإجازة صلة الألف واللام الداخلتين على الاسماء الجامدة [٥] ولم يشتط في ذكر أمور النحو والصرف ، ليخرج عما هو فيه ، بل جعله وسيلة لكشف ما غمض من المعنى أو احتمل الوجوه .

السرقات : سبق الحديث عن معاني المعري المحدثة أو المبتكرة ، وهذا الكلام لاحق به وإن كان لكل مجال . فقد ألحقت تلك الفكرة بالحديث عن شرح المعاني ، وها أنذا أمرّ على موضوع الأخذ أو السرقة . والحق أنّ ابن السيد لم يستعمل كلمة السرقة كما استقرأت من شرحه المطبوع ، ولكنه كان يُعنى بتبيان أصول معاني المعري في الشعر العربي قديمه ومحدثه ، وفي القرآن والحديث والأمثال وأقوال العرب . ولم يدخل في تفاصيل اصطلاحية ، ولكنه أغنى ذلك بدقة استخدامه ما استظهر وروى من تراث العرب . وقد ميّز الشارح في هذه الناحية عدة أمور :

١) انتبه إلى أن هنالك تراثاً مشتركاً يستقي منه مَن شاء من الشعراء ، وهو ما شاع من تشبيهات العرب وصورهم وانطباعاتهم في مناحي الحياة مِن حولهم ، لا يُعد الأخذ منه عيباً ، ولا سرقة . بل ان التزام الشاعر — في بعض الأحيان — بطرائق العرب المألوفة أمر ضروري عند الشارح ، ويحاسب عليه الشاعر ان خالفه ولم يكن له وجه بلاغي يرضى هو عنه ، ولنجتزىء بمثال هنا للتدليل — وإن كان موضع الكلام عليه في مناقشة نقد الشارح المعري— قال المعري :

قلدت كل مَهاة عقد غانية وفُزت بالشكر في الآرام والعُفُر

قال الشارح « ... ولو اتفق له أن يذكر في هذا البيت البقر مع الآرام لكان أكمل للمعنى لأنه أفرد الظباء بالشكر ، فكان إخلالاً بالصنعة [٦] ... » ففي هذا القسم من الأفكار والمعاني لا سرق ولا أخذ ، وهو كثير التنبيه على

١) ص : ١١٧ . ٢) ص : ١٢٧١ . ٣) ص : ٢٩٤ .
٤) ص : ١٧٤ . ٥) ص : ٢٠٣ . ٦) ص : ١٢٧ — ١٢٨ .

مثله بعبارات مختلفة . وشبّه المعري ما على السيف من وشي بآثار النّمل ، فقال الشارح « والعرب تشبه فرند السيف وما عليه من الوشي بآثار النمل والدّبى [1] » قال المعري :

وليلٍ خاف قولَ الناس لمّا   تولى سار منهزماً فعادا

فقال بعد شرح البيت « والعرب تشبه الصّباح بالهازم والليل بالمهزوم [2] » وضرب الأمثال من الشعر ، قديمه وحديثه ، ومثلُ ذلك عبارة المعري عن البرق بـ (ضاحك المزن) فان العرب تشبه البرق بالضحك والمطر بالبكاء [3] . وتعقيبات ابن السيد على هذه المعاني بمجرد ذكر أصل المعنى ، يدل على أنه يعده في المعاني العامة المباحة لكل شاعر .

٢) ونبه في مواضع كثيرة ايضاً على معان طرقها المعري ، وهي من معاني شعراء العرب قديماً وحديثاً ، وعلى قلةٍ كان يبيّن أول من استعمل ذلك المعنى ممّن وصل إلينا تراثهم من شعراء العرب ، كقوله : « أول من أثار هذا المعنى طرفة ، أو أوس بن حجر ... » وكان فيما سوى ذلك ينبه على أن هذا المعنى « كثيرٌ في الشعر [4] » ، أو كثير متردد في الشعر ، أو كثير في الشعر القديم والمحدث [5] . وقال مثلاً « والشعراء يصفون أن الذئاب تُلم بهم في الفلوات [6] و « الشعراء يشبهون عيون الأحبة بالسيوف » . وأولع المعري بتصوير انطباع صورة السماء على صفحة الماء ، فقد نبه ابن السيد على ذلك ، وعقب عليه بقوله : وقد أكثر المحدثون في هذا المعنى كقول القائل (البحتري) :

اذا النجوم تراءت في جوانبها   ليلاً حسبت سماء ركّبَتْ فيها

وقول الآخر .. الخ » ولم يكن يشير في هذا القسم إلى ما يَعني النقل أو الأخذ .

٣) وهناك معان اخترعها شعراء بأعيانهم كان أخذها أو البناء عليها مما يلفت النظر ويدعو إلى التنبيه ، وفيها يكون (الأخذ) و (اللمح) و (النظر) و (المقاربة) وما شابه ذلك من درجات . وهو في مصطلحاته دقيق ، لا يلقي

---

١) ص : ١٠٤ .   ٢) ص : ٧٩٢ .   ٣) ص : ٩٠٧ .
٤) ص : ٥٢٣ .   ٥) ص : ١٦٣ .   ٦) ص : ٥٠٧ .

الكلام إلا بعد ميزان . فهو يميز أنواعاً مختلفة من أخذ المعـــاني . فمن ذلك : المشابهة التامة وعبارته في ذلك (مثل) و (كما قال ..) وربما أكد هـذا النوع بكلمة أشد دلالة وهي قوله (أخذ أو (مأخوذ) . مثله قول المعري :

وممتحن لقاءَكَ وهو موتٌ   وهل يُنْبي عن الموت امتحان

... وهذا مأخوذ عن قول أبي الطيب :

سَل عن شجاعته وزُره مسالماً   وحذارِ ثم حذار منه محارباً
فالموت تعرفُ بالصّفات طباعه   لم تلق خلقا ذاق موتاً آيبا [1]

ومن ذلك أخذ المعنى والزيادة عليه [2] ، ومنه عكس المعنى [3] ، والمماثلة في المعنى دون اللفظ ، وأخذ المعنى ، ومخالفته في بعضـه [4] ومنه (النظر) ، و (الإشارة) [5] ومن ذلك توليد معنى من معنى سابق ومثله قول المعري :

يبيتُ مسهداً والليل يدعو   بضوء الصبح خالقه ابتهالا

فقال الشارح : ... وهذا معنى ظريف ولـّده من قول أبي الطيب :

أعزمي طال هذا الليل فانظر   أمنك الصبح يفرق أن يؤوبا

وأبو الطيب أول من أثار هذا المعنى ، فأخذه أبو العلاء ، رخالف به ماذهب اليه أبو الطيب ... [6] ومن ذلك أن يكون معنى المعري **نحواً من معنى** شاعر آخر [7] أو يكون **موجوداً** في بيت [8] شاعر آخر . ولو عمدت إلى الأمثلة لطال الحديث في غير وقته ودون مجاله ، وسأكتفي بالإحالات على الارقام مع ملاحظة أن أرقام الأجزاء الخمسة متسلسلة ، فيغني الرقم عن الجزء .

٤) وماز الشارح كما أسلفت معاني المعري التي ولـّدها أو اخترعها [9] ، فأتم بذلك نظرته العامة على معانيه : القديمة ، وذات الخيوط المشتركة من قـديم وحديث ، ومبتدعاته . وجدير بالملاحظة والتأمل أن الشارح في النوع الثـالث الذي تحدثت عنه في معاني المعري المأخوذة من غيره — على أي وجه — ركز

---

١) ص : ١٨٦ — ١٨٧ .   ٢) ص : ١٦٠ .   ٣) ص : ٢٣٤ .
٤) ص : ٧٢٥ .   ٥) ص : ٤٥ .   ٦) ص: ٦٨ — ٦٩.
٧) ص : ١٥٧ ، وانظر : ١٥٨ ، ١٤٥ .   ٨) ص : ٤٤ ، ٧٧ .
٩) مثـــل صفحـات : ٩٨ ، ١٧٨ ، ٢٠٧ ، ٣١٥ ، ٤١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٥٣ ، ٦٩٥ .

